© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشارا التحرير: فيصل دراج، الياس خوري

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات
ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٢٣» خريف ٢٠١٩

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / + ٩٧٠٢ – ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090904802525 10

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **في ذكرى رحيل القائد والزعيم والرمز ياسر عرفات**

يحيى يخلف

أوراق فلسطينية

١٥ **الجرائم الإسرائيلية سويةً**

د.ناصر القدوة

٢١ **الأدب الفلسطيني في منظور إسرائيلي جديد: هل في الأدب الفلسطيني حقب منفصلة؟**

د. فيصل درّاج

٣٧ **المساعي الأميركية والإسرائيلية لشطب قضية اللاجئين**

عبد الغني سلامة

٥١ **المخطوطات هويّات الأمم: المخطوطات المقدسية أنموذجًا**

عزيز العصا

قراءات في المشهد الانتخابي الإسرائيلي

٦٧ **سياسة الفصل العنصري وحزب الجنرالات الستة «الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة ومسار المفاوضات الفلسطينية»**

شذى يحيى

٨٥ **انتخابات الكنيست الثّانيّة والعشرون: لا نستطيع وحدنا ولا يستطيعون بدوننا**

محمّد علي طه

٩٩ **قراءة في الانتخابات الإسرائيلية**

عليان الهندي

أوراق ثقافية

١١٣ **سيرة ماري روزنتال ورسالتها الطويلة الى حفيدها الفلسطيني**

محمود الورداني

١٢٣ **التركيب ونسق التعبير في رواية وحيد الطويلة: «جنازة جديدة لعماد حمدي»**

أحمد المديني

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٣٥ **الرواية التفاعلية والأدب الرقمي .. تحديات المبدع العربي**
بديعة زيدان

١٤٧ **تدريبات صفية على الرقص مع الاحتمال والمستحيل وممارسة التناقض والقفز من النوافذ**
زياد خداش

١٥٧ **حالة طلاق ما بين الأدب والسينما الفلسطينيين!**
يوسف الشايب

أوراق الذاكرة

١٧٣ **مجنون جبل النار**
صالح أبو أصبع

١٧٩ **ماجد أبو شرار موهبة القائد**
شهادة عبد الفتاح القلقيلي

كتب وتقارير

١٨٩ **قراءة في رسائلِ غسان كنفاني لغادة السّمان**
رفعــة يونس

١٩١ **الحياة قصاصات على الجدران، سيرة السينما وسير الأشخاص**
يوسف الشايب

أوراق المؤسسة

٢٠٥ **إحياء الذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس**

في ذكرى رحيل القائد والزعيم والرمز ياسر عرفات

توافق هذه الأيام الذكرى الخامسة عشرة لرحيل الزعيم والقائد التاريخي لحركة فتح والثورة الفلسطينية ياسر عرفات، قائد عَزّ نظيره. سيرته ومسيرته تاريخ متدفق بلا انقطاع، وتحوّل العادي الى غير العادي، فهو الفتى الذي خرج من جرح النكبة، وهو المفرد الذي تحوّل الى صيغة الجمع، وهو الذي نذر حياته للكفاح من أجل الحرية ومواجهة مكر التاريخ بتأسيس تاريخ مختلف يعيد الاعتبار للقصية الفلسطينية، ويحوّلها مع جيل من رفاقه وكوادره القيادية وفدائييه وجنوده من قضية لاجئين الى قضية شعب له حقوق في العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة وعاصمتها القدس الشريف.

من رابطة طلاب فلسطين بدأت المسيرة، وفي مرحلة النهوض القومي والمد الناصري، وانتصار الثورة الجزائرية وحركات التحرر في العالم كان التأسيس.

***

تأسست حركة فتح في السياق التاريخي المناسب، وتشكّلت من نهر وروافد، وأصبحت حركة فدائيين يرفعون شعار: الكفاح المسلح الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، وأعادت الاعتبار للهوية الفلسطينية، ورافقت تأسيس منظمة التحرير، بل وتبوأت قيادتها بعد الإنجازات التي حققتها الحركة الفدائية وخصوصا بعد معركة الكرامة.

من صفوف البسطاء الحالمين خرج ياسر عرفات، ظهر في لحظة تاريخية كان الشعب الفلسطيني فيها بحاجة الى رموز تعيد له الثقة والكرامة والأرض والوطن.

خرج باسمه الحركي، وظلّ بعيدا عن الأضواء، ينكر الذات، ويتقدم الصفوف من أجل التضحية، ويعيش مع رفاقه في قواعد الفدائيين التي انتشرت في الأغوار على امتداد ضفة نهر الأردن، ويقود

ببسالة وشجاعة معركة الكرامة، وما كان لأحد من خارج صفوف رفاقه أن يعرف هذا القائد لولا ذلك الغلاف الذي تصدّر صورته في مجلة ال TIME فعرف العالم هذه الشخصية الأسطورية التي قادت معركة هزمت الجيش الإسرائيلي هزيمة قاسية.

كان الكفاح المسلح يزرع ، والسياسة تحصد، وأصبحت منظمة التحرير الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني.

لم يهمل ياسر عرفات العمل السياسي، فقد كان يعرف أنّه يقود واحدة من أكبر حركات التحرر الوطني في العالم معترفاً بها عربيا ودوليا، وأنّ هذا الكفاح يتعين أن يستثمر سياسيا.

امتد عمل المنظمة من خلال سفرائها ودائرتها السياسية وقياداتها الى مختلف الدول والقارات، وخصوصا في أوروبا التي دعمت أوساطها اليسارية والأخلاقية النضال الفلسطيني، وكان لابدّ من طرح مبادرات سياسية في مواجهة الدعاية الإسرائيلية، فطرحت منظمة التحرير عام ١٩٦٩مشروع الدولة الديموقراطية المدنية على كامل التراب الفلسطيني،

وكان ذلك عملا سياسيا بارعا حاز على ترحيب واسع في الأوساط اليسارية، ووسّع معسكر الأصدقاء في العالم، وبما أن ياسر عرفات صار رمزا فإن كوفيته التي يعتمر بها صارت أيضا رمزا للحرية يتباهى به الشبيبة في مختلف بلاد العالم.

كثيرة هي التحالفات التي عقدتها منظمة التحرير في هذا العالم، وكثيرة هي المنظمات التي اعترفت بها، فقد كانت عضوا في الجامعة العربية، ومنظمة التعاون الإسلامي، وحركة عدم الانحياز، وعضوا مراقبا في الأمم المتحدة، وشريكا في منظمات دولية ومنها منظمة الوحدة الأفريقية، وصداقات وعلاقات مميزة مع دول اميركا اللاتينية والبحر الكاريبي، وخصوصا دولة كوبا.

ولعل التحالف الأكبر الذي حققه ياسر عرفات هو التحالف مع الاتحاد السوفياتي القطب الثاني الذي كان يتشكل منه النظام الدولي. فالاتحاد السوفياتي في ذلك الحين كان يعتبر الأحزاب الشيوعية والحركات العمالية وحركات التحرر في العالم هم معسكر أصدقائه.

لم يكن ياسر عرفات شيوعيا وانما وطنيا فلسطينيا بامتياز، لكنّه يجيد قراءة السياسة الدولية، فوجد في الاتحاد السوفياتي ومنظومة الدول الاشتراكية قوّة كبرى تعزز مكانة منظمة التحرير، وتحقق الكثير من هذا التحالف سياسيا وعسكريا، وعومل ياسر عرفات في المنظومة الاشتراكية كزعيم

وطني تحرري بأكثر مما كان يعامل بها زعماء الأحزاب الشيوعية.

حقق ياسر عرفات مجدا وعظمة في الساحة الدولية، ولم تكن صحف العالم تخلو من خبر أو تحليل لكفاح الشعب الفلسطيني، أو تصريح لزعيمه، وكان مراسلو وسائل الاعلام العربية والعالمية يسعون للقائه، ولم يرفض الزعيم اجراء اللقاءات الصحافية معه، فقد كان يعتقد أن الاعلام وسيلة لإيصال صوتنا الى العالم، والى إيصال روايتنا للرأي العام الذي ظل لسنوات طويلة لا يستمع الا للرواية الإسرائيلية.

حقق سمعة دولية ، ولكن الغرور لم يعرف طريقه اليه، ظل التواضع سمة من سماته، والبساطة سلوك يعبر عن سجاياه، وتجلى ذلك في حياته ومعيشته وطعامه وشرابه، فلباسه البسيط من قماش الكاكي لا يتغير، وغرفة نومه تشبه غرف البسطاء من أبناء شعبه، ولا يعيبه أن يخيط بنفسه ثقبا في جوربه أو زرا سقط من قميصه، ولا يأكل الاّ مع زائريه ورفاقه البسيط والعادي من الطعام، وفي أغلب الأحيان كان يكتفي بطبق من الحساء مع القليل من حبات الذرة، ومن سجاياه المعروفة أنّه كان يطعم ضيوفه الذين يجلسون قربه بيده الكريمة ، ولعلّ اطيب الوجبات اليه تلك التي كان يتناولها مع أبنائه الفدائيين في قواعدهم حيث يصبح للوقت مذاق التفاح ، أو مع أطفال شهداء تل الزعتر في بيت أطفال الصمود حيث يستمتع بمشاعر أبوّة ليس لها مثيل، وطالما حمل لهم بعد عودته من زياراته لدول العالم الألعاب والفاكهة.

كان ودودا يمتلك طاقة إيجابية تشبه المغناطيس تجذب اليه الناس والكوادر والقيادات والزعماء والشخصيات العامة محلية كانت أو عربية أو دولية، طاقة إيجابية يرفقها بابتسامته الساحرة فتجذب اليه محدثه من أول لقاء.

وكان حليما قلّما يغضب، لكنه اذا غضب يغضب قليلا، مثلما الحديد يسخن بسرعة ويبرد بسرعة.

ولم يكن حقودا، فليس رئيس القوم من يحمل الحقدا، وحتى لو كان في داخله عتب فإنّه لا يظهره، وطالما كان يردد الآية الكريمة: واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا.

مع هذه الجسور التي يمدها مع الآخر، ومع هذه البساطة في العيش والتعامل مع رفاقه ومع الآخرين، فإنّه في السياسة كان محنّكا، يتألق في وقت الأزمات، ويجوب الدول ويذرع القارات

ويتوجه الى أبعد نقطة على خارطة العالم من أجل كسب الدعم وتوسيع معسكر الأصدقاء .

كان يتلقى التقارير السياسية التي ترفع له من كل الجهات المختصة، ويأخذ بها علما ويحوّلها الى أعضاء اللجنة المركزية، وأعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير.

كان سياسيا عز نظيرة، يتقن اللعبة، ويتقن المناورة، يقرأ السطور، ويقرأ ما وراء السطور، وعندما يتخذ القرار لا يتخذه منفردا، وانما يناقشه في مطبخ القرار الفتحاوي ، ومطبخ منظمة التحرير(اللجنة المركزية، المجلس الثوري، اللجنة التنفيذية، المجلس المركزي، وقادة الفصائل)، ويحرص على أن يحظى القرار على موافقة الأطر الشرعية.

عظمة ياسر عرفات مستمدة من عظمة شعبه، وعظمة قادة حوله، قادة جيل العمالقة، وكوادر قيادية ساهمت معه في بناء مداميك الثورة من فتح وفصائل منظمة التحرير كافة.

كان معه في المسيرة خليل الوزير، صلاح خلف، عادل عبد الكريم ، محمود عباس، فاروق القدومي ، خالد الحسن، هايل عبد الحميد ، سليم الزعنون، أبو علي إياد، ممدوح صيدم، أبو يوسف النجار، سعد صايل، أبو ماهر غنيم ، فاروق القدومي ، ماجد أبو شرار، انتصار الوزير، صخر حبش وعشرات غيرهم، ومن الفصائل الحكيم جورج حبش، نايف حواتمة، سمير غوشة، أبو العباس، طلعت يعقوب، زهير محسن، عبدالرحيم أحمد، ومن المستقلين في رئاسة المجلس الوطني :خالد الفاهوم ، الشيخ عبد الحميد السايح .

ومن اللجنة التنفيذية شخصيات وقامات وطنية.

كانت قيادات لها قامة ومكانة فلسطين وقامة ومكانة شعبها، وما كان لياسر عرفات أن يحقق كل الإنجازات التي حققتها منظمة التحرير دون الأدوار السياسة والنضالية التي قام بها هؤلاء القادة.

ظلّت اللجنة المركزية لفتح هي مطبخ القرار الأول. وكانت علاقة ياسر عرفات مع أعضائها علاقة أخوّة، يجمعهم ما أطلق عليه ياسر عرفات: قانون المحبة ، الذي طبّقه أيضا على عموم منتسبي الثورة.

لا تستطيع هذه العجالة أن تحيط بكل تاريخه المجيد ، تاريخ يتفيأ ظلاله رفاق دربه الذين يكملون المشوار، ويستلهم من بطولة القيم في روحه أجيال وأجيال.

في الذكرى الخامسة عشرة تواصل مؤسسة ياسر عرفات الحفاظ على تراثه الكفاحي، ونشره

وتعميمه ليكون ملهما لكل مناضلي الحرية والكرامة الإنسانية والتحرر الوطني. وتواصل عطاءه من خلال إنجازات تحتفي بتاريخ شعبه وبتاريخه وتاريخ رفاقه وتاريخ قادة سبقوه في ثورات فلسطين المتعاقبة على امتداد القرن العشرين، وتخصيص جائزة سنوية تمنح لمؤسسات فلسطينية تربوية وثقافية وإنسانية تقدم العطاء والتميز. وتأسيس متحف الذاكرة والتاريخ الفلسطيني المعاصر، متحف ياسر عرفات الذي يعتبر معلما من معالم دولة فلسطين.

كما تقدم مؤسسة ياسر عرفات خدمات أخرى في المجالات الثقافية، والتربوية، والشبابية، وتعنى بشكل خاص بالشباب والطلبة والأجيال الجديدة.

في الذكرى الخامسة عشرة نقف احتراما وإجلالا لروحه الطاهرة، ونردد معه: العهد هو العهد والقسم هو القسم،

ومعا وسويا سنكمل المشوار.

يحيى يخلف

أوراق فلسطينية

الجرائم الإسرائيلية سويةً

د.ناصر القدوة *

هذه محاولة لوضع لائحة تضم عناوين السياسات والإجراءات والأعمال التي قامت بها إسرائيل ومازالت تقوم بها ضد الشعب الفلسطيني، بهدف الاستيلاء على أرضه والقضاء على حقوقه وأهدافه الوطنية، وضد المنطقة العربية أو للتأثير عليها، والتي تمثل انتهاكاً لمبادئ القانون الدولي ولأحكام ميثاق الأمم المتحدة، أو تمثل انتهاكاً أو انتهاكاً جسيماً للقانون الدولي الإنساني وللقانون الدولي لحقوق الإنسان (جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية) أو تنتهك قرارات مجلس الأمن ذات الصلة، أو تنتهك الفتوى القانونية لمحكمة العدل الدولية في العام ٢٠٠٤، كما تنتهك القيم والأصول التي يقوم النظام الدولي على أساسها. بالإضافة لما سبق، فهي تنتهك الاتفاقات المعقودة بين الجانبين وتقوض إمكانية التوصل لحل تفاوضي.

القارئ لن يجد أي جريمة إسرائيلية جديدة، لا يعرفها في هذه اللائحة ، لكن الجديد هنا هو محاولة وضعها سوياً في لوحة فائقة البشاعة، لا مثيل لها في عالمنا المعاصر. نجحت إسرائيل دائماً في إخفاء كامل الحقيقة عن المجتمع الدولي، بل تحاول إلصاق التهم بالجانب الفلسطيني.وبالمقابل فشل الجانب الفلسطيني في عرض اللوحة كاملة على العالم، وكان هناك ميلٌ مرضيٌ للتركيز فقط على آخر الجرائم الإسرائيلية ثم نسيانها عند حدوث جريمة جديدة. هذه اللائحة كفيلة بإعادة المواقف إلى رشدها وبشكل قوي، ولعلنا نقوم بأرشفة تفاصيل هذه الجرائم.متابعة الجرائم الإسرائيلية كافة بتفاصيلها وأرشفتها هي مقدمة مقاومتها، والتي يجب أن تكون شاملة ضد كل الجرائم سويةً، وباستخدام الوسائل القانونية والسياسية والشعبية والتعبوية. بالإضافة للعمل الخارجي السياسي والإعلامي لوضع الصورة كاملة أمام المجتمع الدولي. هذه اللائحة يجب أن تكون لائحة اتهام ضد إسرائيل ولائحة مواجهة لها. إذا ما انحرف فلسطيني أبرز هذه اللائحة، وإذا نسي عربي ذكره بهذه

* رئيس مجلس ادارة مؤسسة ياسر عرفات

اللائحة، وإذا لم يعرف أجنبي إعرض عليه هذه اللائحة.

عناوين الجرائم الإسرائيلية هي:

أولاً: انتهاك مبدأ «حق تقرير المصير للشعوب» ومنع الشعب الفلسطيني بالقوة من ممارسة هذا الحق وإنجاز استقلاله الوطني.

ثانياً: التوسع الإقليمي، المنظم والمخطط، في انتهاك لمبدأ عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير بالحرب أو بالقوة:

١. الاستيلاء على نصف الأراضي المخصصة للدولة العربية في قرار التقسيم ١٨١ (II) خلال حرب ١٩٤٨ وضمها لإسرائيل(بالرغم من موافقة إسرائيل على القرار وإعلانها التزامها به).

٢. العمل الحثيث على ضم القدس الشرقية وإعلان ذلك، بما في ذلك تهويدها وتغيير وضعها والعمل على تغيير وضع الأماكن المقدسة هناك، وإغلاق المؤسسات الفلسطينية فيها.

٣. العمل الحثيث على ضم الجولان السوري وإعلان ذلك.

٤. محاولة التوسع في الجنوب اللبناني وسيناء المصرية.

٥. الخطر التوسعي تجاه الأردن وما بعده.

ثالثاً: منع اللاجئين من العودة لديارهم وممتلكاتهم والاستيلاء على أراضيهم(بالرغم من جهود لجنة التوفيق للأمم المتحدة):

- رفض عودة ٧٥٠ ألف لاجئ في العام ١٩٤٨، بالرغم من التعهدات الإسرائيلية المختلفة بتنفيذ قرار الجمعية العامة ١٩٤ (II) والقرارات اللاحقة.
- الاستيلاء على ٥،٥ مليون دونم ملكية خاصة لهؤلاء اللاجئين، والعقارات المقامة على بعضها والمحاصيل في الأخرى، والاستيلاء على كافة أملاك هؤلاء دون أي تعويض.
- منع ٣٦٠ ألف نازح عام ١٩٦٧ من العودة إلى ديارهم بالرغم من قرار مجلس الأمن ٢٣٧ (١٩٦٧).

رابعاً: التمييز المنظم ضد الفلسطينيين العرب من مواطني إسرائيل. وأبرز نموذج هو قانون القومية الذي ينص من بين أمور أخرى على حق تقرير المصير لليهود فقط.

خامساً: الاستعمار الاستيطاني للأرض الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك القدس، (أراضي دولة فلسطين

على حدود ١٩٦٧) وذلك من خلال:

- الاستيلاء على أراضي الفلسطينيين وبناء المستعمرات عليها.
- نقل سكان قوة الاحتلال الى الأرض المحتلة.
- وضع المستعمرين تحت منظومة قانونية مختلفة، وإقامة نظام معيشي تميزي منفصل لهم، بما في ذلك طرق أحياناً.
- الاستيلاء على المصادر الطبيعية الفلسطينية خاصة المياه، لمصلحة المستعمرات أو لمصلحة قوة الاحتلال.
- تسليح المستعمرين وتشكيل ما يشبه المليشيات المسلحة، والسماح لهم بإيقاع كافة أنواع الأذى بالمدنيين الفلسطينيين.(حرق منزل عائلة الدوابشة)

سادساً: بناء جدار داخل الأرض الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك القدس الشرقية، مع النظام المرافق له.

- الاستيلاء بحكم الأمر الواقع على مساحة كبيرة من أرض الضفة الغربية المحتلة بما في ذلك القدس.
- حماية بعض المستعمرات غير القانونية أصلاً.
- تسوير وعزل مدن وتجمعات فلسطينية(بيت لحم/ قلقيلية...).
- حرمان المواطنين من أرضهم ومصدر رزقهم غرب الجدار.

سابعاً: القتل المتعمد بأشكال مختلفة:

- القتل المتعمد لمدنيين خلال أو بعد مواجهات عسكرية ولمسلحين بعد السيطرة عليهم أو أسرهم.
- القتل المتعمد لمدنيين خلال أو بعد مواجهات شعبية.
- الإعدامات خارج إطار القانون، بدون مواجهات وبدون أي مبرر جدي حقيقي.
- الاغتيالات لمسؤولين فلسطينيين في عواصم أجنبية.
- ارتكاب مجازر عبر سنوات وجود إسرائيل (كفر قاسم، خان يونس...).
- تشجيع مجازر والسماح بها(صبرا وشتيلا).
- قتل مدنيين غير فلسطينيين يرقى إلى مجازر مثل:

-مجزرة مدرسة بحر البقر الابتدائية ، محافظة الشرقية ، جمهورية مصر العربية.

- إسقاط طائرة ليبية مدنية فوق سيناء (خلال فترة احتلالها).

- مجزرة قانا، مركز قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في جنوب لبنان.

ثامناً: القمع المنظم والدائم للمدنيين الفلسطينيين في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك القدس الشرقية والإضرار بمصالحهم الوطنية من خلال:

١. شن حروب محددة على أجزاء من الأرض الفلسطينية المحتلة (قطاع غزة /مخيم جنين) والتسبب في دمار واسع وأعداد كبيرة من القتلى والجرحى.

٢. استخدام مفرط وغير متناسب وعشوائي للقوة.

٣. حصار مناطق براً وجواً وبحراً لفترات زمنية طويلة(غزة) ومنع دخول وخروج الأفراد والبضائع بما في ذلك أحياناً سلع أساسية.

٤. إغلاق مناطق، مدن وقرى لفترات محددة، واقتحامها عسكرياً أحياناً.

٥. استخدام رصاص مطاطي، غازات، مياه عادمة ضد تجمهرات مدنية.

٦. ضرب المدنيين الفلسطينيين وتكسير عظامهم.

٧.استدعاءات واستجوابات واعتقال تعسفي، تعذيب جسدي ونفسي بما في ذلك للأطفال.

٨.اعتقال إداري، سجن أعداد كبيرة من المواطنين الفلسطينيين لفترات طويلة وفي ظروف بائسة، بما في ذلك أطفال(السجون الإسرائيلية موجودة خارج الأرض المحتلة).

٩. احتجاز جثامين أو دفنها بشكل غير معلن(مقبرة الأرقام).

١٠. منع أو الحد من حرية حركة الأفراد والبضائع من خلال الحواجز والتفتيش، وحتى وضع البوابات وإغلاقها على مداخل القرى، وإغلاق الطرق ومنع المرور.

١١. هدم بيوت كعقاب جماعي وبحجج مختلفة.

١٢. اقتحام بيوت ومراكز وتدمير محتوياتها وسرقات من البيوت.

١٣. اقتلاع أشجار، تخريب حقول، وإغلاق آبار.

١٤. الاعتداءات على الأماكن المقدسة، والاستيلاء على بعضها جزئياً (الحرم الإبراهيمي) والحد من

إمكانية المواطنين الوصول إليها للصلاة وممارسة شعائرهم الدينية.

١٥. سرقة أثار فلسطينية ونقلها لإسرائيل.

١٦. تلويث البيئة الفلسطينية بما في ذلك مكبات النفايات لمواد خطرة.

١٧.الإبعاد من الوطن، ومنع من السفر ومنع دخول (مواطنين وآخرين).

١٨.إلغاء بطاقات شخصية/إلغاء اقامات المقدسيين.

١٩.فرض ضرائب باهظة على سكان القدس وإخضاعهم لأحكام تعسفية تعيق الحياة الطبيعية.

٢٠. حصار الرئيس المنتخب للشعب الفلسطيني لفترة زمنية طويلة، وقصف مقره واقتحامه وتهديم معظمه، والتسبب في قتله.

تاسعاً: منع وعرقلة التطور الاقتصادي الفلسطيني:

- قيود على استيراد سلع تحت حجج الاستخدام المزدوج.
- عرقلة أو منع التصدير عبر إسرائيل لطرف ثالث وعرقلة التصدير لإسرائيل.
- عرقلة حركة البضائع والأفراد داخل الأرض المحتلة.
- الفرض العملي لسلع إسرائيلية على الجانب الفلسطيني(البترول).
- التصرفات التعسفية بأموال المقاصة (استقطاعات وخصومات بشكل أحادي الجانب).
- عرقلة الإنتاج الزراعي والصناعي الفلسطيني.
- عرقلة السياحة للأرض الفلسطينية المحتلة.

عاشراً: تصنيع وحيازة أسلحة نووية وأسلحة دمار شامل أخرى(كيماوية) في انتهاك لمبدأ منع انتشار أسلحة الدمار الشامل ومنع انتشار السلاح النووي.

بالإضافة لكل ما سبق، تقوم إسرائيل بارتكاب جرائم أخرى ضد أطراف دولية، بما في ذلك أصدقائها وحتى حلفائها، ولعل أبرز مثال على ذلك كان قيامها بإغراق سفينة الاستخبارات الأميريكية «ليبرتي» في البحر الأبيض المتوسط، ناهيك عن العمل بشكل غير قانوني في الدول المختلفة دون موافقة ودون تنسيق مع هذه الدول مع ارتكاب مخالفات وجرائم أحياناً.

يجب مواجهة وفضح كل ذلك.

الأدب الفلسطيني في منظور إسرائيلي جديد: هل في الأدب الفلسطيني حقب منفصلة؟

د. فيصل درّاج *

هذا كتاب جديد يثير الفضول وجدير بالقراءة والمساءلة. مؤلفه باحث إسرائيلي يقرأ العربية، يساري النزوع ومتعاطف مع الكفاح الوطني الفلسطيني، مختلف المنظور وموضوعي المقاربة. قدّم للكتاب الناقد الأميركي الماركسي الواسع الشهرة: فريدريك جيمسون المتعاطف بدوره مع حقوق الفلسطينيين. ظهر الكتاب في خريف هذا العام ٢٠١٩، وعنوانه: "صنّاع عوالم، قراء علامات، الأدب الإسرائيلي والفلسطيني في زمن العولمة". ما يلفت في العنوان مساواة، على مستوى المعالجة، بين الأدبين الفلسطيني والإسرائيلي، بعيداً عن مفهوم الفرق والتفاوت العنصري، والتحرّر من دلالة وحيدة للعمل الأدبي، ذلك أن يرى عالم الأدب بصيغة الجمع لا المفرد، ما يفتح له آفاقاً متعددة على الفلسفة والسياسة والنقد الأدبي، والإشارة إلى قرّاء متنوعين، وما يعترف بوجهات نظر متنوّعة وينبذ التأويل الأحادي. ربط هذا كله بعالم متعولم، بمعنى ما، وبإشارات متنوعة لا تقبل بالاختزال وإرجاع المعنى الأدبي إلى معنى وحيد.

١ـ المتعدد الأدبي في احتمالاته المتعددة:

تحرّر مؤلف الكتاب: كفير كوهن لاستيغ من أسطورة "الأدب النقي"، المكتفي بأدبيّته والمنقطع عن تحديده الاجتماعي، ومن فرضية "اللاتكافؤ الثقافي" التي تضع، بداهة، الأدب الفلسطيني في مرتبة أقل من الأدب الإسرائيلي. ولعل هذا المنظور هو الذي جعله يأخذ بفكرة "النص اللامتجانس" الذي

* كاتب وناقد من فلسطين

يعيّن الأدب ممارسة اجتماعية بين ممارسات اجتماعية، تنطوي على السياسي والاقتصادي والثقافي والتأثيرات "العالمية"، وخاصة في زمن العولمة الجديدة، التي عدّلت معنى الزمان والمكان والتثاقف، وأطلقت زمن "امبراطورية الأدب"، الذي قالت به الفرنسية باسكال كازانوفا، حيث الأدب ممارسة كونية قوامها الحرية وتعدّدية القراءة. ابتعد "لاستيغ" عن تصور الألماني إمانويل كانت الذي دافع عن "الاستقلال الذاتي للموضوع الجمالي"، كما لو كان الجميل الحقيقي لا يتلوث بما هو خارجه. وواقع الأمر أن المؤلف من بداية كتابه لا يبتعد عن تقاليد ماركسية في دراسة الأدب رأت في الأدب علاقة اجتماعية محددة. ولهذا يُستهل الكتاب بعبارات عن الليبرالية الجديدة وسقوط جدار برلين و"جدل المركز والأطراف" الذي قال به الاقتصادي الشهير إيمانويل فالتر شتاين منذ عقود.

قارب الكتاب ثنائية المجرد والمشخص، حيث ما هو مجرد على مستوى المفاهيم يأخذ صيغة أخرى في لحظة التطبيق، ما يجعل قراءة الأدب الفلسطيني لا تستوي إلا بربطه بالتاريخ الذي أوجده، وبالسياق الفلسطيني المتحوّل الذي نقله من شكل إلى آخر، أو من شكل إلى أشكال. ذلك أن تاريخ الفلسطينيين هو تاريخ كفاحهم التحرري، الذي حايثته سيرورة التغير والتبدّل والصعود والتراجع. تمكن في هذه الحدود قراءة النص الأدبي الفلسطيني في "استقلاله الذاتي"، الذي يفصح عن أدب له خصوصيته، عبّر عن نكبة ومنفى ولجوء ومقاومة، وصولاً إلى "اتفاق أوسلو"، الذي فتح هذا الأدب على آفاق غيّرت من مقولاته التأسيسية، التي اتخذّت من "العودة المرتقبة" مرجعاً ومحرّضاً و"حلماً".

عاين المؤلف موضوعه بمعرفة وبموضوعية لا شبهة فيها وقدّم مفهوماً نظرياً قابلاً للاجتهاد وهو" التمرحل، بلغة الراحل اللبناني مهدي عامل. ولعل من الطرافة أن ما يثير النقد، ولو بشكل متأخر، يصدر عن "نقد فلسطيني" مايز، من دون اجتهاد كبير، بين الإبداع الخالص الصادر عن "الموهوبين"، و"الأدب المقاوم الفلسطيني"، فذاك النقد تحرّر من السياسة والإيديولوجيات، وهو ما يرفضه الناقد الإسرائيلي.

٢ ـ علم جمال الشتات ١٩٣٣ ـ ١٩٤٨:

استهل المؤلف الفصل الثالث من كتابه بعنوان "لا كانْت في فلسطين، أو علم جمال الشتات ١٩٣٣ ـ ١٩٤٨"، والمقصود بالعنوان، في شطره الأول، الفيلسوف الألماني كانت، الذي تحدّث عن الاستقلال الذاتي للفن، الذي يعارض "الفن الاجتماعي"، بلغة معيّنة، أو "الفن المتعدد العناصر"، بلغة أكثر

دقة، الذي يتوازعه الأدبان الفلسطيني والإسرائيلي، دون أن يتقاسما شكلاً واحداً أو أن يكون لهما هوية واحدة. فقد كتب الفلسطينيون أدباً موضوعه الحرب والاحتلال والمنفى، وعالج أدب الإسرائيليين موضوع: بناء الدولة. لم يكن هذان الأدبان معنيين "بالفن المستقل بذاته" وأسسا، تالياً، لقيم جمالية مختلفة. صاغ المؤلف تصوره الموضوعي متكئاً على معرفة نقدية واسعة، والعمل الأدبي في سياقه التاريخي.

وعى المؤلف إشكالية الأدب الفلسطيني تأمّله في شروطه المادية، التي يفضي تغييبها إلى قراءة مدرسية "مثالية"، تحتفي بالمبدع وتدع الشروط الاجتماعية جانباً. كأن تكتب سلمى الجيوسي في تسعينات القرن الماضي، وما قبله ربما: "بسبب دواعيهم الملحّة فإن عناصر سياسية تسلّلت، غالباً، إلى العملية الفنية الفلسطينية، مزيحة الشكل عن مجراه الطبيعي بسبب إلتزام ما أو انصياعاً لإيديولوجيا معينة. مع ذلك فإن تاريخ الأدب العربي الحديث، والشعر قبل غيره، وبخاصة في العقود التي أعقبت نكبة فلسطين ١٩٤٨، أظهر أن الفن كان عارفاً بمساره الطبيعي في التطور والنمو".

تعلن هذه السطور عن فرق في الوعي التاريخي بين مؤلف الكتاب والشاعرة الفلسطينية، نفذ الأول إلى وحدة الأدب والتاريخ، التي تحدد الأدب شكلاً إيديولوجياً في مجتمع له صراعاته الخاصة به، بينما آثرت الثانية رومانسية الأفراد المبدعين الأقرب إلى الأنبياء. ولهذا رأت أن "تورّط" الأدب الفلسطيني في "مهام عاجلة" يلوثّه ويزيحه عن مجراه الطبيعي، كما لو كان الموقف السياسي في الممارسة الأدبية ظاهرة غريبة عن "الأدب المبدع"، ناسية أن وحدة السياسي والأدبي ميّزت مشاريع أدبية كبرى في القرن العشرين، حال المسرح الملحمي عند بريشت ورواية نجيب محفوظ التي بدأت بموضوع السلطة وانتهت به، وأن المسرحي الطليعي الشهير بتير فايس أطلق على إنجازه الأكبر والأخير صفة: "علم جمال المقاومة".

ردّ كفير كوهن لاستيغ على اتهام "تلوّث الرواية الفلسطينية بالسياسة"، بشكل غير مباشر، مستعيراً ما صرَح به الأميركي روجر ألن في كتابه عن "الرواية العربية"، ورأى أن رواية غسان كنفاني ما تبقى لكم لا تندرج في حقل الواقعية التقليدية، وأنها تأثرت بنزوعات حداثية أوروبية وأميركية ليس آخرها رواية وليم فوكنر: الصخب والعنف، التي ترجمها فلسطيني آخر هو: جبرا إبراهيم جبرا. والواضح أن الشاعرة، كما الناقد محمد صديق، أكتفت بتاريخ الأشكال الأدبية "المتحررة من التاريخ"، أي المتحررة من السياسة، الذي يرى "الأدب في نقائه" ويعتبر، تالياً، أن الهاجس السياسي

أساء إلى إبداع غسان، بعد فترة ١٩٦٧. من اللافت هنا أن يتعامل التصور الشكلاني للأدب مع روايات غسان كروايات "متفرقة"، في حين كان سعيه الأساسي بناء إشكالية نظرية ترى الأدب الفلسطيني في خصوصيته، ما جعل غسان ينتقل من شكل روائي إلى آخر موّحد، لزوماً، بين الأدب والتاريخ، حتى لو بدا الأخير مشظّى تعوزه الوحدة. أبصر الناقد الإسرائيلي تلك الخصوصية بنفاذ كبير، مدركاً الفرق بين العام والخاص والكوني والمتميّز والزمن العام والسياق المحدد، وذلك الفرق الممكن بين "المركز" و"الأطراف"، الذي عني به الراحل سمير أمين ومنظّرو "التبعية" في سبعينات القرن الماضي.

والمحصلة أن الأدب لا يقرأ خارج التاريخ المتميّز الذي أنتجه، وأنه لا يملي مقولاته مستقلاً عن التاريخ إلا إذا كان أدباً سلطوياً أو متسلطاً وأنه يعكس معيشه وقد "أضاف إليه شيئاً ما". وليس الشيء المضاف إلا الوعي الأدبي ـ التاريخي، الذي لا يستقيم إلا بخبرة الأدب المحلي والعالمي، أي بتاريخ الأشكال الأدبية الكونية والمتميزة معاً، وهو ما أقترب منه روائيون فلسطينيون مثل جبرا وحبيبي وحسين البرغوثي ويحيى يخلف وآخرون. وما "المضاف إلى الأدب"، بلغة الألماني ثيودور أدورنو، إلا حوار نصوص الآداب المختلفة، التي تقترح في زمن العولمة الجديدة مفهوم "التهجين" الذي تتجاوز دلالته مفهوم "التناص"، التي أوحى بها باختين، ذلك أن في "التهجين" إحالة على فضاء ثقافي ـ أدبي إنساني متعدد المستويات، بينما يشير مفهوم باختين إلى نصوص تدور في الحقل الأدبي وتكتفي به. وواقع الأمر أن الروائيين الفلسطينيين، كما المنتوج الأدبي الفلسطيني بعامة، عرفوا التهجين والتناص، دون أن يقصدوه أو أن يسعوا وراءه، لأنهم كانوا مهجوسين "بأقدارهم"، أي بتلك "المهام العاجلة" بلغة الجيوسي. فقد كان في أفق جبرا إبراهيم جبرا رومانسية كولريدج وشلي وبايرون وغيرهم من الشعراء الرومانسيين الإنجليز، وحاور إميل حبيبي نص فولتير الشهير كانديد، ودارت في خاطر حسين البرغوثي مذاهب إشراقية شرقية، والتقى غسان في مسرحيته الباب بألبير كامو وشيئاً من الوجودية،.... . مع ذلك فإن هؤلاء الفلسطينيين لم يحاكوا أحداً، ولم يسيروا وراء مدارس أدبية معينة، كان لهم معيش خاص بهم حاولوا صياغته أدباً، متطلعين إلى : ممارسة أدبية فلسطينية، بلغة سريعة، أو إلى "فلسطينيّة الممارسة الأدبية، بلغة أكثر اطمئناناً، ناظرين إلى نص أدبي متميز أفقه التحرّر، ويهجس ببنية أدبية متحررة، إن أمكن، أنجزها محمود درويش في طوره الشعري الأخير. والأكيد أن المقصود بهذا الكلام ليس إضافة الأدب إلى المقاومة، وهو ما كتبت عنه الناقدة الأميركية الراحلة بربرا هارلو بنبل كبير، كما لو كانا عنصرين لا متجانسين، إنما

المقصود إنتاج شكل أدبي فلسطيني مقاوم، تكون المقاومة فيه عنصراً بنيوياً في تشكليه، حال نص حسين البرغوثي الأخير: "سأكون بين اللوز". إن كان للشعوب المستقرة، أي تلك التي لها دولة وتراب واضح الحدود، قادرة على إنتاج نظرية نقدية مرجعها الإيديولوجيات الاجتماعية وحوار النصوص وتقسيم العمل، فإن شتات الفلسطينيين، الذين لا دولة لهم ولا إقامة مستقرة، يسمح بتقديم إقتراحات منقوصة، تعيد الممارسات الأدبية المتنوعة صوغها بشكل مفتوح. فما الشارع والمدينة والبحر والسهل وشروط الإقامة في الوضع الفلسطيني اليوم، وكيف نصل إلى معايير مستقرة إن كان الوجود الفلسطيني كله لا استقرار فيه؟ وعلى هذا فإن ألوية الوضع الغير المستقر على التصور الأدبي الذي يقاربه هو الذي يجعل كل شكل أدبي مستقر جهداً منقوصاً. ولهذا استشهد المؤلف الإسرائيلي بما قاله إدوارد سعيد: "في سياق كهذا ـ ما بعد ١٩٩٨ ـ ، إذن، فدور كل كاتب يعتبر ذاته ملتزماً فعلياً بمعطيات زمنه كان أولاً إنتاج فكر ولغة يقصدان أساساً ضمان البقاء وإسناد ما يمنع خطر الزوال... وبهذا المعنى أصبحت الكتابة فعلاً تاريخياً".

تتعين الكتابة فعلاً تاريخياً حين تواجه وقائع تاريخية كضياع وطن عام ١٩٤٨، أو هزيمة أمة عام ١٩٦٧، منصاعة إلى قانون التحدي والاستجابة، حيث على المهزوم أن يرفض الهزيمة، وأن ينقد الشروط التي أفضت إليها. لا تصدر تاريخية الكتابة عن علاقاتها الداخلية، أكانت "تحريضية ملوّثة" أو إبداعاً مفترضاً يستلهم الأنبياء، بل عن وعيها تحوّلات تراجيدية تعيد خلق القدر الإنساني، وتنقل البشر من مشهد كان له تاريخه إلى آخر يبدو طارداً بلا تاريخ. وبهذا المعنى لا يكون الالتزام فعلاً أخلاقياً، ولا مقولة أدبية، ولا امتداداً لإيديولوجيا مضطربة التبشير، إنما يكون فعلاً مادياً مقاتلاً يعيد خلق الإنسان والوقائع المحيطة به معاً. لا يصدر الالتزام عن وعي ذاتي نقي، ولا عن صناعة الأدب، بل عن مواجهة مباشرة لم يتم اختيارها، تصوّب مسارها أو تحافظ عليه بلا تصويب كبير.

والمحصلة أن قراءة الكتابة الفلسطينية، التي تلت النكبة، بمعايير الإبداع والاتساق النصي أمر ساذج أقرب إلى السفاهة، ذلك أن اللاجئين الفلسطينيين واجهوا ما صادفهم متوسلين الكفاح المسلح ومحاولات كتابية متنوعة، ما ينقل صفة الملوث من نص إلى آخر، ذلك أن "الملوّث" يهتم بالإبداع ويستخفّ بالمهام العاجلة. ولعل الشرط الفلسطيني ، الذي أعقب النكبة، هو الذي عبث بالكلمات الكبيرة، مثل الإبداع والالتزام والخلق، ذلك أنه أطلق "عفوية اللاجئ"، الذي يكون سياسياً بلا سياسة وعفوياً بلا إيديولوجيا وأدبياً بلا نظرية، ويكون هذا العفوي الإلزامي صائباً في الحالات

جميعاً. ولهذا مارس الفلسطينيون، تحت الاحتلال، ثقافة طليقة، تجسّدت في الأغاني واحتفالات الزواج والأعراس والأعياد الدينية وأناشيد مواسم الحصاد التي لا يريح منظرها الاحتلال.

كتب المؤلف: "وقفت المخابرات الإسرائيلية عاجزة عن تقويم المظاهر الحياتية الفلسطينية، وهل هي فعل تخريبي أم أنها وقائع ثقافية. وكذلك وقفت أجهزة الأمن محتارة في بداية ثمانينات القرن الماضي، وهي تنظر إلى الاحتفالات الدينية التي كانت تشرف عليها الحركة الإسلامية...".

إن الحيرة المفترضة لا معنى لها، طالما أن الفلسطينيين يقومون بما كان يقوم به أجدادهم، وأن ثقافتهم من نمط حياة موروث. ومع أن إدوارد سعيد عمد إلى مفهوم "أزمة الزمنية الفلسطينية"، وهو يتحدث عن أدب كنفاني، كما يقول المؤلف، فإن مفهوم الأزمة لا يبدو دقيقاً تماماً، فالأزمة قائمة في المسافة بين الهدف الأدبي والتقنيات الموائمة التي تؤدي إليه، موحية بشيء من العجز، لأنها مقحمة على الوضع الفلسطيني ومقتحمة له، لأنها محصلة وضع لم يسهم الفلسطينيون في صنعه. لن تكون الأزمة في معناها العميق إلا صورة عن "مفارقة تاريخية مأساوية". فالصهيونية الأوروبية المرجع سقطت من زمن تاريخ متقدم إلى آخر عثماني مفوّت، وجعل التدخل الإستعماري الإنجليزي تقصير الهوة بين الطرفين مستحيلاً، وحاضر معطيات الأدب الفلسطيني الموروثة، فهو لم يعرف الرواية، ولا يمكن للنكبة وحدها أن تركبّه وتخلق وسائله.

لهذا، إذن، كتب الفسطينيون، بعد النكبة، عما يعيشونه ويعانونه ما جعل "السيرة الذاتية" تحايث الأدب الفلسطيني كله، بشكل صريح أو مضمر، شعراً كان أو رواية. انطوت رواية جبرا على أطياف القدس التي عاش فيها، وكتب إميل عما عاشه في يافا، وسجّل غسان ما عاينه وسمع عنه، أكان عن مآل اللاجئين الحزين الباحثين عن عمل في الكويت، أو حكاية امرأة فلسطينية عايشها عن قرب هي "أم سعد".

عرف الفلسطينيون تجربة إنسانية استثنائية، بلغة حافية القدمين، أو مأساة كبرى غير مسبوقة في القرن العشرين، وربما قبله، استوجبت أدباً على صورتها "لا وجود لها"، ولم يكن للفلسطينيين وقت لاختراع أدواته، ذلك أنه لا أدب بلا "سلسلة أدبية" تحيل عليه، بلغة الشكلانيين الروس. كان الأدب "حاجة" للتعبير عن مشاق الروح أكثر منه جنساً له أنواعه المختلفة. لذا كانت سحر خليفة مصيبة حين قالت: "لم نكن في ذاك الوقت (سبعينات القرن الماضي) نميّز بين الشعر والسياسة. فشعر المقاومة هذا، كما دعوناه، كان يحدّثنا عن التكامل الإنساني، الثورة، أفكار وأحلام ، كان يمس حياتنا من خلال صور الفلاح العامل في أرضه، خبز الأم... جعلني الشعر الجديد والوضع الجديد أشعر أن

علي أن أكتب ـ لم يكن ذلك قراراً ، بل حاجة قول مترجم كما جاء في كتاب المؤلف".

نقرأ في الكتاب: "ولأنه محدّد بسياقه، غدا الأدب الفلسطيني ممارسة يلتزم المرء بها ويفهم العالم. إنه نمط من المعرفة لا تضمنه فقط خصائصه الذاتية، ولكن سياق الأزمة أيضاً". وكلمة الأزمة هنا مسوّرة بالغموض، كما هوالحال عند إدوارد سعيد فهي توحي، منطقياً، بما يعقب الأزمة، أي حلها، في حين أن في مسار الأدب الفلسطيني، كما الثقافة الفلسطينية بعامة، استعصاءً باهظاً، لأن أفق الأزمة مفتوح، فلا احتلال بلا مقاومة وتحرير، ناهيك عن شتات فلسطيني مأساوي، يبعثر الأزمة الفلسطينية على العالم كله، بما في ذلك إسرائيل التي انشغلت فترة ببناء الدولة وانهمكت، لاحقاً، بمصادرة ما تبقى من الأرض الفلسطينية. وإذا كان استعمال كلمة الأزمة متاحاً، نسبياً، فهو بحاجة إلى صفة "عضوية"، التي ترد إلى وضع فلسطيني معقوّق مضطرب الحركة متعدد الاتجاهات، وإلى سياسة دولاتية إسرائيلية لا تزال تبحث عن "تمامية المشروع الصهيوني".

لا يختلف وضع "جماليات الأدب الفسطيني"، الذي أتى على ذكره المؤلف غير مرة، عن وضع "الأزمة"، المشار إليها، بسبب قلق العناصر المادية التي تنتجه. فقد أخذ المؤلف من الناقد المعروف تيري إيجلتون السطور التالية: "يرتبط ظهور علم الجمال من حيث هو مقولة نظرية بشكل وثيق بالسيرورة المادية التي جعلت من الإنتاج الثقافي، في المرحلة الأولى للمجتمع البرجوازي، واقعاً يتمتع "بالاستقلال الذاتي". يفتقر "المجتمع الفلسطيني" أولاً إلى تلك السيرورة المادية المتكافلة العناصر، وينقصه، ثانياً، التحديد الزمني، الذي يمكن أن يقول بمرحلة أولى وأخرى لاحقة، ذلك أن في النزوع الفلسطيني التحرري ما يقيم علاقة ملتبسة بين مراحله المتميّزة المفترضة. يتكئ كوهين لاستيغ على كلام إيجلتون ليقول: "إذا فهمنا أعمال كنفاني بالطريقة المقترحة هنا، بدا لنا واضحاً أن كتابة هذه الأعمال كانت موجهة إلى الفلسطينيين بشكل خاص، وبشكل ثانوي إلى جمهور عام أو"كوني". وكما سأبيّن، فإن هذه العلاقة بدأت بالتغيّر مع رواية عدنية شبلي في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، عندما لم يعد الأدب الفلسطيني يكتب ويوجّه لشعبه فقط، بل لقراء متعولمين"..

وبالرغم من رهافة النقد وجديّته، فالأرجح أنه يلغي الفواصل بين كونية القضية الفلسطينية، بلغة الفيلسوف الفرنسي إيتين باليبار، والقراءة المتعولمة للأدب الفلسطيني، التي لن يستشهد بها، في هذه الحال، بروايته شبلي. رغم قيمتها الأكيدة، بل بشعر محمود درويش الفلسطيني الإنساني الكوني وغيره من المبدعين. والسؤال طبعاً: هل إحالة إيجلتون إلى الطور الأول من المجتمع

البرجوازي يمكن مقارنتها، ولو من بعيد، بأقدار الفلسطينيين؟ وهل الإشارة إلى رواية شبلي تسمح بالحديث عن رواية فلسطينية متعولمة؟

٣ ـ الأدب الفلسطيني ومفهوم التمرحل:

انطلق المؤلف من فرضية: "الأدب الإسرائيلي والفلسطيني" المحتشدة بصعوبات متنوعة. فالأدب الأول مرتبط بدولة عصرية أنتجت أدباً كونياً له نماذجه الشهيرة التي تمثّلها رواية عاموس عوز وغيره من الروائيين الإسرائيليين الذين انتزعوا، عالمياً، الاعتراف، على خلاف رواية عربية انتزعت اعترافاً منقوصاً، وسّع حدوده نجيب محفوظ وحصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨. ومع أن العولمة، التي تفعل في علاقات القراءة والكتابة، أضافت جديداً إلى صورة الأدب الذي يكتبه عرب، فإن الإضافة بقيت محدودة، ذلك أن قوة الكتابة من قوة اللغة التي تكتب بها.

احتفى كوهن لاستيغ بمفهوم: التمرحل التاريخي، الذي جاء في تقديم فريدريك جمبسون للكتاب. والأساسي في هذا المفهوم النظري، الذي طبقه مهدي عامل على "نمط الإنتاج الكولونيالي"، ماثل في إدراج الأدب في التاريخ، أو في الشروط التاريخية التي تجعل ظهور الأدب ممكناً. فقد ربط، كما رأينا، تيري إيجلتون الأدب بالتاريخ، أو قارب تاريخية النص الأدبي، حين أشار إلى علاقة "علم الجمال" بمطلع العصر البرجوازي. والمقصود بذلك ظهور عناصر تجعل الأدب ظاهرة اجتماعية مثل: مقولة الفرد، اللغة القومية، أجهزة الدولة الإيديولوجية التي تعهد إلى الأدب تأكيد إيديولوجيا الدولة البرجوازية وإعادة إنتاجها.

لا يماري النقد الأدبي الموضوعي في تاريخية النص الأدبي، التي تمنع عنه الوهم الرومانسي القائل بإبداع مكتفٍ بذاته. غير أن على هذه التاريخية أن تنزاح عن موقعها المعترف به، وأن تساوق الاستثنائية الفلسطينية، حيث الدولة الوطنية لا وجود لها، والبرجوازية القائدة غائمة رخوة المواقع، لا موقع للأجهزة الإيديولوجية والمؤسسات الأدبية،... مع ذلك فإن للنص الأدبي الفلسطيني تاريخيّته الاستثنائية، ذلك أن "النكبة" أخذت موقع العصر البرجوازي الذي أشار إليه إيجلتون. والتاريخ هنا مشتّت، مغترب إن صح القول، لا مركز له، كان موجوداً واستلب وتصدّع،... فقد عرفت فلسطين ما قبل الاحتلال الصحف والمدارس والكتابة الأدبية والترجمة وبدايات روائية مثل الوارث لخليل

بيدس و"مفلح الغساني" لنجيب نصّار، كما عرفت شعراً مزدهراً أرقى وجوهه إبراهيم طوقان.

ولكن إذا كان الشعب الفلسطيني اللاجئ انتهى إلى العراء، بالمعنى المجازي والمادي، ألا يعني هذا أن شروط أدبه انتهت إلى العراء أيضاً، وأن عليه أن يستولد من هذا العراء أدباً لا يحفل بالاستقلال الذاتي، ولا يريد أن يستقل عن تاريخه الذي كان، والذي سيكون؟ تأتي تاريخية النص الأدبي الفلسطيني، بهذا المعنى، من عراء متعسف وقع على فلسطينيين يرفضونه ويقاومونه ويكتبون أدباً يتمرد عليه عنوانه: أدب المقاومة. انطوى هذا الوضع على عناصر ثلاثة: أولها مادي ـ تاريخي مجلاه الأكبر: الاستئصال، أي اقتلاع الفلسطينيين من تاريخ محدد والقذف بهم إلى سديم زمني لا يعترف ببداية ولا يعد بنهاية آيته الجملة الصهيونية التي قال بها "رئيس الدولة الوليدة عام ١٩٤٨": "خرجت تلك الضباع من أوكارها ولن يسمع بها أحد بعد عشر سنوات"، التي أجبرت اللاجئين على فعل يبرهن أن أصواتهم عالية، وهناك "أدب المذكرّات" الذي جمع بين عفوية متأسية وخطاب يوحّد بين الفرد والمجموع، وطليعة أدبية وطنية فاعلة، تحدّث عنها كنفاني في مطلع كتابه عن "الأدب الصهيوني". ولعل الرجوع إلى نصوص: أرض البرتقال الحزين، وصيادون في شارع ضيّق، وسداسية الأيام الستة، كما قصص سميرة عزّام، يجلو صورة هذه الطليعة المكوّنة من مثقفين، يعلنون عن هويتهم وعثار شعبهم، وربطهم الأدبي بين ما كان وما سيرجع، ما جعل من ثنائية الخروج والعودة موضوعاً ثابتاً في النص الفلسطيني الجديد، الذي تاريخه من منفاه، حيث المنفى مادة معاشة أدبية وسياسية وجمالية ولغوية معاً، ما جعل، فعلياً، الأدب الفلسطيني يولد في المنفى وهو يحلم بالوطن، ولكن: ما هي جماليات المنفى التي بنى من موادها النص الأدبي الفلسطيني شكله وموضوعه معاً؟

وإذا كان الموضوع الذي ينوس بين العري ورفضه لا خلاف عليه، فإن الشكل الأدبي الذي عليه أن يلبّي استثنائية المأساة بدا طليقاً ومحاصر المراجع، إذ كان عليه أن يدخل في تجربة لم يعرفها الأدب العربي. لم يكن هذا الأدب الجديد والمحاصر يجرّب، باللغة المدرسية، بل كان يختبر، إن صح القول، أو أن "يستولد ذاته بذاته" مرتكناً إلى معيشه وإلى أدوات فنية من خارجه، يختبرها ويستأنسها معاً. عمد غسان، ضمنياً، إلى المجاز، كأن يقول في رواية أولى: اللاجئ الحالم بعيداً عن أرضه ينتهي إلى الهلاك، وكان بدوره لاجئاً وحالماً، وأن يقول في رواية ثانية: النذل هو الذي لا يرى البؤس الذي يغمره، إلى أن انتهى إلى "خيمة عن خيمة تفرق" داعياً إلى الكفاح المسلّح... أما جبرا فكان أول من

أدخل مقولة "الخلاص المسيحي المنتصر" إلى الرواية العربية وصيّر القدس مجازاً فلسطينياً شاملاً. ووصل إميل حبيبي إلى المأساوي الساخر مؤكداً السخرية فعلاً مقاوماً وصيّرت الفلسطينية اللامعة والمغبونة معاً سميرة عزّام قصصها القصيرة إلى "شهادات حيّة"، تدور حول ما يعيشه اللاجئون يومياً، بعيداً عن "تجريد فني" ماسخ المذاق.

جسّدت المحاولات السابقة تاريخية النص الأدبي الفلسطيني بعد النكبة، حيث للفلسطينيين عيون واسعة واجهت تاريخاً أعمى تدب خطاه كما تريد، تتعثّر بالمخيمات ولا تلتفت إلى الذين حشروا فيها. نقضت إنسانية الفلسطينيين وضعهم المهين واستدعت تاريخاً خاصاً بهم ونقلت "اختبارية الأدب الفلسطيني"، المفتوح على عفوية لاجئة قسرية إلى أدب اقتفى آثار الكفاح المسلّح، الذي بدأ في أوائل ستينات القرن الماضي، وظهر "أدب البنادق"، الذي احتلت فيه الإرادة المقاتلة مدى أوسع منها. وسواء وعى هذا الأدب فداحة الاستئصال الفلسطيني كاملاً أو منقوصاً، فقد اندرج بدوره في طور من التاريخ الفلسطيني، مبرهناً مرة أخرى عن "تاريخية النص الأدبي".

جاء الكفاح المسلح بأدب تحريضي تربوي، زاوج بين التفاؤل العام والعودة المنتظرة التي تعيد توحيد التاريخ الممزّق، حيث الحاضر الكفاحي امتداد لماضي عرف الكفاح المسلّح أيضاً. أعطى هذه الطور من تاريخ اللجوء والمقاومة ما دعي "بأدب المقاومة"، الذي تأمله غسان وهو يكتب عن "شعراء الأرض المحتلة". ومع أن بعض النقّاد العرب نظر، في ذاك الزمان، إلى هذا الأدب بتقدير منقوص فقد سجّل، من وجهة نظر وطنية فلسطينية، حقائق كبرى احتشدت فيها التضحية والشهادة والشجاعة ومواجهة عدو متعدد الجنسيات، وحفظت للذاكرة الفلسطينية وقائع مجيدة لا يليق بها النسيان. صوّر يحيى يخلف، وكان أديباً ومقاتلاً، واقع اللاجئين، المطارد والمتمرّد معاً، في متواليات حكايئة: "تلك المرأة الوردة"، "تفاح المجانين"، و "راما ورجل الثلج"..... وإذا كانت هذه الأعمال، على سبيل المثال، تبدو للقارئ غير الفلسطيني مجموعات قصص قصيرة، فهي بالنسبة للقارئ الفلسطيني، المهجوس بتاريخ مأساته، شهادات تاريخية حيّة عن شعب يرى حقه في الحياة وعن الدم الفلسطيني الذي استباحه "عبث الأقدار". وهذا الكفاح المسلّح، الذي أثقل ظهره تفاؤل مديد، حرّض رشاد أبو شاور على استذكار فلسطين ما قبل النكبة في "ايام الحب والموت"، والاقتراب من وجود عاثر مقاتل أقرب إلى الملحمة في "العشّاق". وإذا كانت سميرة عزّام قد آثرت، في قصصها القصيرة، "حقيقة بلا بكاء"، فإن سحر خليفة المجتهدة والمثابرة آثرت تأمل أوضاع الشعب

الفلسطيني في سلبها وإيجابها معاً.

سؤالان لا بد منهما: كيف تظهر علاقة الأدب بالتاريخ؟ تظهر، في كلام مقتصد، في أجناس أدبية جديدة، يفرضها السياق أو تستولد منه. عرف الفلسطينيون الشعر قبل النكبة، ولم يعرفوا من الرواية، بالمعنى الحديث للكلمة، إلا رواية جبرا: "صراخ في ليل طويل". التي كتبها في القدس عام ١٩٤٦ ونشرها بعد اللجوء. ولهذا قلنا: جاءت النكبة بالرواية الفلسطينية، استجابة مبدعة لواقع يفرض تسجيل السيرة الذاتية بصيغة الجمع والمفرد معاً، حال الهوية التي أيقظت الفلسطينيين، بعد تجربة المنفى، ولا تزال تتلمّس مواقعها إلى اليوم. أما السؤال الثاني فهو: كيف يتجلّى التاريخ في النص الأدبي؟ الأرجح أنه يظهر في الشكل الأدبي من حيث هو شكل أيديولوجي متميّز، له صراعاته وله الصراعات الأيديولوجية ـ السياسية التي تحوّله، ويعيّن بداية العمل الأدبي ونهايته ونماذج الشخصيات التي تملأ فضاءه. ذلك أن السياسة، أي الربط بين الهدف والوسيلة، تحيل في المجال الفلسطيني على الوطن والتاريخ والحاضر والماضي وأشكال القتال جميعاً، فبالسياسة يتأنسن الفرد وبالسياسة يمايز بين الممكن والمستحيل وبين المهمات المباشرة والأهداف المؤجلة. سؤال ثالث لا ينفصل عن السؤالين السابقين: ما إمكانية استقلال الذاتي النسبي للنص الأدبي الفلسطيني، طالما أنه يمتد في السياسة وتمتد السياسة فيه، أي ما إمكانية أن يكون أدباً وهو يعكس الحقبة التي يعيشها؟ إذا تركنا جانباً أوهام "النص النقي" يفقد السؤال مبرّره، فما يدعى بالأدب يتعيّن بنثر خاص به، وبسعي إلى بناء تجربة إنسانية مغايرة، عرفها الشرط الفلسطيني ولم يعرفها غيره وهو، في الحالين، سؤال لا يزال يبحث عن إجابة موائمة، متحقّقة ومؤجلة التحقّق!!

اتكاء على مفهوم تمرحل الأدب ـ وللسياسة تمرحلها أيضاً ـ يمكن الحديث، ربما، عن ثلاث مراحل غير قابلة للانغلاق: أولها الأدب كطليعة وطنية، توقظ وتنقد وتسائل، وهو ما أعلن عنه التأسيس الروائي الأول في ستينات القرن الماضي. وثانيها أدب الكفاح المسلّح في مقولاته الوصفية: الفدائي، العدو، البطل المنتصر... وغيرها من المقولات التي توهن أدبية النص وتلحقه بالخطاب السياسي ـ الإيديولوجي. ويمكن أن تدعى ثالث المراحل: الواقعية النقدية الجديدة في الأدب الفلسطيني، التي أعقبت الخروج من بيروت عام ١٩٨٢.

ومع أن في هذا المنظور من التمرحل ما يحذف المسافة بين الأدبي والسياسي، فالخطاب الأدبي الفلسطيني كان متقدماً على الخطاب السياسي، ولم يلتحق به إلا في "فترة التفاؤل المسلّح" التي

لم تعمّر طويلاً (١٩٦٥ – ١٩٨٢). فقد شهد ما قبل هذه الفترة، وإبّانها أيضاً، الطليعة الأدبية في تأسيسها الأول (جبرا وغسّان وإميل ودرويش)، وحتى في هذه الفترة لم يكن المنظور، دائماً، متماثلاً، كان درويش واعياً لأدبيّة نصه، وكذلك غيره، وإن كانت صورة الفدائي تسلّلت إلى جميع نصوص الطليعة الأدبية.

لم يتحرّر النص الأدبي، بعد إخفاق التجربة الكفاحية في لبنان، من "السياسي"، إنما تحرّر من "السلطوي" وأعاد إلى "السياسي" دلالته، من حيث هو منظور نقدي يعاين أحوال الذات قبل "الآخر الصهيوني"، ويجتهد في تحرير الشكل الأدبي من "الخارج غير الأدبي"، ما أطلق إبداعاً أدبياً بصيغة المجموع في الرواية والشعر.

أعطت سحر خليفة، بعد الإخفاق الوطني الفلسطيني المتعدد الأسباب، أفضل أعمالها: رواية الميراث، التي أنزلت بالممارسات الإدارية السلطوية نقداً شديداً، وفتحت نصها على "الشتات"، المقولة الفلسطينية الكبرى القابعة في الظل. استكملت ثنائية الشتات المأساوي وعطب الإدارة سامية عيسى في روايتيها: "حليب التين، وخلسة في كوبنهاجن"، والتحقت بها شابة واعدة مايا أبو الحيات في روايتها "لا أحد يعرف زمرة دمه"، حيث الجوهر الفلسطيني المفترض موزّع على شتات متعدد الأمكنة. وذهب حسين البرغوثي إلى رثاء ما كان في نصه البديع "سأكون بين اللوز".

كان في ملامح النصوص الروائية السابقة ما يشير إلى بدايات حقبة جديدة من تاريخ الأدب الفلسطيني، يتحرر فيها الواقعي المعيش من الإيديولوجي المباشر، في انتظار الإخفاق المدوي "لاتفاق أوسلو ـ ١٩٩٤"، حيث عهد الأدب إلى ذاته إنجاز نقد عجزت عنه المراجع السياسية ـ الإدارية المكرّسة. استبان ذلك في رواية يحيى يخلف "نهر يستحم في البحيرة"، التي رسمت حالماً فلسطينياً نظر إلى السماء وعاد إلى بداياته مقهوراً، ورواية عاطف أبو سيف "حياة معلقة"، إذ الفلسطيني يوغل في الانقسام ويعهد "بوحدة الفلسطيني المقاتل" إلى عبث الأقدار.

ولعل مآسي الشتات المتوالدة، كما استباحة الدم الفلسطيني في لبنان، وخيبة "سلام" كأثر المجازر، هي التي أسهمت في ولادة جيل جديدة من الروائيين الفلسطينيين احتفى "بالذاكرة" وتأسّى على مآل وجوهه الاغتراب لا العودة وشجن الروح لا رايات الانتصار، وبحث عن أدب مقتصد اللغة عميق المساءلة. وآية ذلك عملا أكرم مسلّم "بنت من شاتيلا" و "العقرب الذي يتصبّب عرقاً"، اللذان يفيض فيهما الموضوع على زمنه المباشر، وروايات وليد الشرفا والأخيرة منها بخاصة "ليتني

كنت أعمى"، التي هي مزيج من الأسى والغضب والاتهام ومحاولة في توليد لغة جديدة. ولكن ما معنى "مرحلة" التي يتكئ عليها، نظرياً، مفهوم "تمرحل الأدب الفلسطيني"؟ لن يكون الجواب سهلاً، ذلك أن المرحلة فترة زمنية متميزة قطعت مع حقبة سبقتها محددة الصفات. والقطع التاريخي المفترض غائم ولا يمكن الركون إلى وضوحه، ذلك أن الكفاح الوطني الفلسطيني تتغيّر أشكاله ولا تتبدّل غاياته، وموقف الفلسطينيين منه لا تجانس فيه، فسارد يحيى يخلف في: "نهر يستحم في البحيرة" يصطدم بإسرائيليين يسيطرون على "الأرض المتحرّرة" التي وعد نفسه بها، بينما سارد الشاب سليم البيك في رواياته "تذكرتان إلى صفورية" يرى في العودة حلماً لا يمكن التنازل عنه. وإذا كان طهبوب صاحب رواية "أوراق هارون"، الذي يعيش بعيداً عن المناطق المحتلة، قد قدّم بطلاً فلسطينياً مشبعاً بالتفاؤل، فإن شخصيات أنس إبراهيم، في روايته الصادرة حديثاً: "متسولو الخلود" غائصة في اللايقين، تقاتل متقهقرة في وطن محتل تخشى تفاصيله، كما لو كان الفلسطيني يخاف أن تشي به الأرض التي قاتل من أجلها. ولعل الأرض التي تمتد بالفلسطيني المقاتل المطارد، هي التي تجعله "يتدثّر باللغة"، كما لو كانت، اللغة المتسائلة بديلاً عن السلاح الذي كان يحمله. لذا بذل إبراهيم جهداً متميزاً في لغته وأسلوبه.

أخذ الخطاب الأدبي الفلسطيني، في الحقبة الوليدة المتصاعدة، مكان الخطاب السياسي، واجتهد في تأسيس أدبي جديد، يستأنف التأسيس الطليعي الأول وتطلّع في شرط جديد إلى الهزيمة والنصر المرتقب، واستولد منهما معاً منظوراً جديداً للمقاومة.

يطرح المفهوم الذي طرحه الناقد الإسرائيلي المتحرّر من العماء الصهيوني عدة أسئلة: كيف يمكن الحديث عن أدب فلسطيني موحّد في شرط غياب الدولة الوطنية، على اعتبار أن الأدب ممارسة إيديولوجية، في التحديد الأخير، لا تنفصل عن أجهزة الدولة الإيديولوجية التي تنطوي على "مدرسة حرّة"؟ وإذا كان دور الأدب من دورته الاجتماعية القائمة على الانتاج والاستهلاك، فما وضع أدب انتشر جمهوره الفلسطيني في العالم أجمع؟ وإذا كان لنمط الإنتاج الأدبي، إن صح القول، أزمنته المتعددة، إذ زمن الشعر الشعبي يختلف عن زمن الرواية، فإن تعدد الأزمنة في "الأدب الفلسطيني" يتاخم أبعاداً صارخة، فالنص الأدبي لفلسطيني تعلّم في جامعة القاهرة يختلف عن نص كتبه لاجئ لا يحمل جواز سفر؟

من المحقق، الذي تضيق به البداهة، أن أدب مجتمع مستقر، يغاير في تحوّلاته "أدب" وضع إنساني

شاذ أرهقه الظلم في بداياته وفي مصيره الذي لا يزال معلقاً في الهواء. ولهذا تبدو الصفات التي يمكن أن تلحق بالأدب الفلسطيني متنوعة وقاسية مضطربة: الأدب الوطني، الأدب القومي، الأدب السلطوي، الأدب الإيديولوجي،... طالما أن الشتات، كما المصادرة، مرجع أساسي من مراجع الأدب الفلسطيني. لا غرابة أن تحتل مقولتا: الذاكرة والأمل في الأدب الفلسطيني موقعاً لم تعرفه الآداب الأخرى. رسمت هذا الوضع بشكل مؤثر وجميل ومثير للدهشة ليانة بدر في روايتها الأخيرة "أرض السلحفاة".

ومع أن في مقدمة كتاب لاستيغ، ما يُشير إلى أن العولمة والليبرالية الجديدة أسهمتا في قراءة جديدة للأدب، فإن تحوّلات النص الأدبي الفلسطيني الممتدة من "الخلاص المسيحي" عند جبرا إلى "رثاء الأطلال" عند حسين البرغوثي، تنصاع إلى وضع القضية الوطنية الفلسطينية قبل أي سؤال آخر. فلا يزال النص الأدبي الفلسطيني مسكوناً بقضيّته، باستثناء حالات مرضية تتوسّل الكسب الرخيص تساوي، زوراً، بين الهولوكوست والنكبة. وواقع الأمر أن الأدب الفلسطيني لا يقرأ في "كونيّته" المفترضة، حتى لو كانت ممكنة، بل في "فلسطينيّته" المحتشدة بالنكبة والمخيمات والمجازر والسلام المستحيل.

يمكن القول أيضاً: لا ينطبق التمرحل، وهو مفهوم تاريخي، على الإبداع الشعري المخلص لشعريته، كشعر درويش وعز الدين المناصرة وغسان زقطان، وإن كان له تحوّلات، وهي أكيدة، فمرجعها تجربة الشاعر الذاتية لا تحوّلات الموضوع الشعري. وما ينطبق على الشعر ينطبق على الرواية والنقد الأدبي، ويؤكّد أمرين: فرض الشتات الواسع على الأدب الفلسطيني، على مستوى الوسيلة والنظر، أزمنة متعددة، فشاعرة فلسطينية تعيش في نيويورك تغاير "قصيدتها" ما يكتبه لاجئ يعيش على مقربة من "المخيمات". ويقول الأمر الآخر: إن تمرحل الأدب الفلسطيني على مستوى الموضوع، فرضية زائفة، بسبب ديمومة المأساة واستمرارية الظلم الإسرائيلي، ما يجعل رواية غسان "ما تبقّى لكم" قائمة في روايات لاحقة، وما يعطي حياة أدبية جديدة لبطل جبرا "وليد مسعود" وما يدفع إلى أكرم مسلّم، وهو من جيل أدبي آخر، إلى محاكاة إميل حبيبي...

قدّم كفير كوهن لاستيغ قراءة نزيهة للأدب الفلسطيني متحررة من المصادرات الصهيونية، وأنجز اجتهاداً نظرياً لامعاً والاختلاف مع مقاربته بديهي ومن طبائع الأشياء، فلا اجتهاد جاد إلا ويثير اقتراحات قوامها الخلاف والائتلاف.

وأخيراً يقرأ الأدب الفلسطيني، قبل النكبة وبعدها، في التاريخ الذي أنتجه، ويقرأ تاريخ الكفاح الفلسطيني في النصوص الأدبية التي سجّلته كما لو كان الأدب، في مراحل معينة، مرآة للتاريخ

ومدخلاً إلى قراءة صحيحة له. كتب ألن رودوي في كتابه: "حقائق الحكاية": "يقدّم لنا الأدب مادة أولية للمحاكمة الأخلاقية، ويقدّم لنا مواد تتجاوز كثيراً ما يمكن أن تقدمه حياة واحدة... يقوم الأدب بتوسيع تجاربنا المعنوية...". قدّم الأدب الفلسطيني مادة واسعة تتسع للمحاكاة الأخلاقية والسياسية والتاريخية. برهن، في النهاية، أن فيه وضوحاً وصفاء يقصّر عنهما "الخطاب السياسي" المشغول بقضاياه اليومية.

إشارتان

- KFIR COHEN LUSTIG: makers Israeli and Palestinian of literature worlds, of the readers. Global of contemporary signs, verso, London-New York. 2019.
- ALLAN RODWAY: The truths of fiction. Chatto and windus, London, 1970. P: 101.

المساعي الأميركية والإسرائيلية لشطب قضية اللاجئين

عبد الغني سلامة *

مقدمة

بدأت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٤٨، مع إنشاء دولة إسرائيل، حيث قامت القوات الصهيونية بالإستيلاء على المدن الفلسطينية وطرد أهلها منها، وهدم أكثر من ٥٠٠ قرية، وتشريد التجمعات البدوية، وعلى إثرها تشرد نحو ٩٠٠ ألف فلسطيني (من أصل ١,٣٤٨,٨٤٠ وهم عدد سكان فلسطين) إلى دول الجوار، ومنهم من هام على وجهه في مختلف أنحاء العالم، ومنذ ذلك الحين يتم وصفهم باللاجئين، وتعرف تلك الأحداث المفجعة "بالنكبة"، وهو الاسم المرادف للكارثة والمأساة الإنسانية التي ألمت بالفلسطينيين، والذي يرمز أيضاً إلى التهجير القسري الجماعي الذي نفذته الحركة الصهيونية بحق الفلسطينيين، بدعم من بريطانيا..

على إثر النكبة، صدر عن الأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٤٨ القرار ١٩٤، والذي يقضي بحق هؤلاء اللاجئين بالعودة إلى ديارهم.

ومن ناحية ثانية، تأسست في العام التالي وكالة الغوث UNRWA (ديسمبر ١٩٤٩)، وهي وكالة دولية تتبع الأمم المتحدة، أنشأت خصيصا لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين. أقامت هذه الوكالة نحو ستين مخيما لإيواء اللاجئين، ووضعت لهم برنامجا إغاثيا، يتضمن تقديم معونات مباشرة، إضافة لخدمات التعليم والصحة.

ولفترة طويلة، ظل اللاجئون الفلسطينيون الأكثر تعداداً من مجموع اللاجئين على مستوى

* كاتب وباحث من فلسطين

العالم، إذ بلغ عددهم وفق إحصائيات اللجنة الأميركية للاجئين ٣,٧٥٣ ملايين لاجئ عام ١٩٩٨، وحسب بيانات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، واستنادا لسجلات وكالة الغوث الرسمية، فإن عدد اللاجئين الفلسطينيين بلغ حتى العام ٢٠١٧، نحو ٥,٩ مليون لاجئ مسجل في الوكالة.

وبحسب بيانات المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، فإن اللاجئين الذين فروا من بلادهم هربا من النزاعات والقمع حتى العام ٢٠١٨، يشكلون ٢٤,٥ مليون شخص، من أصل ٦٨,٥ مليون نازح، خمسهم تقريباً من الفلسطينيين، أما الباقون، فغالبيتهم من ٥ دول فقط، هي سوريا وأفغانستان والصومال جنوب السودان وبورما.

وطوال تلك السنين، ظلت قضية اللاجئين العنوان الأبرز لمأساة الفلسطينيين، والرمز الأهم للقضية الفلسطينية، والموضوع الأخطر والأكثر صعوبة من بين قضايا الحل النهائي للصراع العربي الإسرائيلي.

ماذا تعني قضية اللاجئين؟

تُطلق وكالة الغوث «الأنروا» وصف «اللاجئين الفلسطينيين» على: الأشخاص الذين كانت فلسطين مكان إقامتهم الطبيعي في الفترة الواقعة بين يونيو/١٩٤٦ ومايو ١٩٤٨؛ والذين فقدوا أماكن سكنهم ووسائل عيشهم نتيجة الصراع العربي الإسرائيلي عام ١٩٤٨، مما اضطرهم للجوء إلى بلاد مجاورة، ويشمل تعريف الأنروا للاجئين أولئك المنحدرين من أصل لاجئي منطقة ٤٨، الذين ارتفعت أعدادهم من ٩١٤ ألفاً عام ١٩٥٠ إلى أكثر من ٥,٩ مليون عام ٢٠١٧، ويستمر العدد في الارتفاع نتيجة النمو السكاني الطبيعي.

وأهم ما تعنيه قضية اللاجئين، وتداعياتها: إيقاف النمو الطبيعي للمجتمع الفلسطيني منذ النكبة، وتشريد السكان وتشتيتهم، وبالتالي حرمان الإنسان الفلسطيني من أبسط حقوقه الطبيعية، وهي حق المواطنة، والعيش في بلده كسائر بني البشر. مما ينذر بتدمير أركان وحدته المجتمعية والوطنية، وتهديد وجوده الوطني ككل، وتعريضه لخطر الزوال.

هذا الوضع المأساوي سيعمل على تحفيز مراكز التنبه في الإنسان الفلسطيني، ويبقي وعيه متيقظاً على الدوام، وسيجعل الأزمة الحقيقية للإنسان وللمجتمع الفلسطيني هي أزمة الوجود الوطني ككل، بحيث تلتغي أهمية التناقضات الأخرى، ويصبح النقيض المركزي هو

الاحتلال، والهَمّ الأول هو هـمُّ العودة، واستعادة الكينونة والكرامة.

ومن البديهي أن اقتلاع مجتمع بأكمله من جذوره، وطرده من وطنه بقوة السلاح، يعني ضرب البُعد الإنساني والطبيعي لهذا المجتمع، وإلغاء كيانيته السياسية، وتحويله إلى جموع من اللاجئين المشردين. وقد اعتاد المجتمع الدولي التعامل مع قضايا اللاجئين عن طريق تقديم مساعدات إنسانية لا أكثر، وبالفعل كانت استجابة المجتمع الدولي لهذه المشكلة على هذا النحو؛ مما هدد بالقضاء على البُعد السياسي للقضية، وتحويلها من قضية شعب مطرود من وطنه، ويطالب بالعودة إليه إلى قضية لاجئين ينتظرون المساعدات، أي تفريغ قضية اللاجئين من محتواها السياسي.

ومن هنا، فإن قضية اللاجئين تعتبر جوهر القضية الفلسطينية، بوصفها قضية سياسية، تؤرق كل فلسطيني، ويتم توارثها عبر الأجيال، نظراً لما خلفته تداعياتها من معاناة وبؤس لازال اللاجئون يعيشونه حتى الآن، حيث أن البيئة التي يعيش فيها اللاجئون، وما يتعرضون له من ضغوط، أحدثت لديهم آثاراً نفسية وصدمات عنيفة استقرت في عقلهم الجمعي، وأفقدتهم الشعور بالأمن والاستقرار.

لذلك، جعلت الحركة الوطنية الفلسطينية قضية اللاجئين محور اهتمامها، وركيزة أساسية لبرنامجها الكفاحي، وأصبحت المطالبة بحق العودة في مقدمة اهتماماتها.

وفي المقابل، ظلت إسرائيل ترفض رفضا قاطعا تحمُّل أية مسؤولية أخلاقية أو سياسية عن نشوء قضية اللاجئين، وترفض الاعتراف بحقهم في العودة إلى أراضيهم، أو تمكينهم من هذا الحق. فإسرائيل قائمة على الأيديولوجيا الصهيونية (القومية والدينية)، ولذلك، ترفض فكرة الاندماج أو المساواة أو التعايش على أسس ديمقراطية وعلمانية، مع الفلسطينيين المقيمين تحت احتلالها، وترفض بالتالي فكرة حق العودة للاجئين، لأن عودتهم، ولو بأعداد قليلة، ستعمق مخاوفها مما تسميه «القنبلة الديمغرافية»، والتي تعني لها تقويض الطابع اليهودي للدولة الإسرائيلية، ما قد يؤدي ربما، إلى انهيارها من الداخل.

وتستمد إسرائيل قوتها في رفض الاعتراف بالقرار ١٩٤، ورفضها عودة اللاجئين، بل ورفضها تنفيذ قرارات الشرعية الدولية من الدعم الأميركي لها.. وقد بينت التجربة أن تلك المكانة التي

تحظى بها إسرائيل على المستوى الدولي، بدعم من الولايات المتحدة، مكّنتها من التملص من مجمل القرارات الدولية التي تؤكد حق اللاجئين في العودة إلى أرضهم، وصد الجهود التي قد تؤدي إلى ذلك، كما أنها صعّبت على الفلسطينيين نضالهم من أجل هذا الأمر.

ومن الواضح أن الدول الكبرى باتت مقتنعة بضرورة إيجاد حل ما لقضية اللاجئين خارج إسرائيل (فلسطين)، وهي في كل ذلك تتعامل مع إسرائيل باعتبارها دولة ذات سيادة من حقها أن تقبل من تشاء وأن ترفض من تشاء، وبذلك باتت هذه الدول أقرب إلى تفهّم وجهة النظر الإسرائيلية.

وهذا ما يفسر التفاف الغرب الرسمي حول ضمان أمن إسرائيل واستقرارها وتفوقها، في حدود العام ١٩٤٨، والاستعداد للتعامل مع القضية الفلسطينية بجوانبها السياسية والإنسانية في حدود العام ١٩٦٧، فقط.

لذلك، فإن قضية اللاجئين الفلسطينيين، العادلة والمشروعة، لم تجد حلا لها، بعد أكثر من سبعة عقود على نشوئها، بل إنها عوض ذلك، ازدادت صعوبة وتعقيدا، بسبب واقع موازين القوى المختل، والمعطيات العربية والدولية، وبسبب طبيعة المشروع الصهيوني، وأيضا بسبب ضعف الفلسطينيين في إدارة هذه القضية.

تغيرات الموقف الأميركي من قضية اللاجئين

ظل الموقف الأميركي من قضية اللاجئين مزدوجاً وغير واضح المعالم؛ فعند صدور القرار ١٩٤، صوتت لصالحه، وطالبت إسرائيل بالحفاظ على ممتلكات اللاجئين، والسماح بعودتهم. ثم أعلنت عن استيائها من الموقف الإسرائيلي الرافض لتطبيق القرار، بيد أنها واصلت دعمها السياسي والمالي والعسكري لإسرائيل.

وكان الموقف الأميركي من قضية اللاجئين في تلك المرحلة منصباً في اتجاه واحد: تفريغ ذلك القرار من محتواه السياسي، وتوجيهه فقط نحو الجوانب الإنسانية من المشكلة، بدلاً من الالتزام بالقرار وتطبيقة. مع العمل على توطين اللاجئين في البلدان العربية.

وقد طرحت الولايات المتحدة مبادرات عديدة بشأن قضية اللاجئين؛ بدءا من مذكرة وزير الخارجية «جورج ماك» (١٩٤٩)، مرورا بمذكرة لوزان في نفس العام، ومبادرة «جونستون»

(١٩٥٢)، ثم مشروع «دالاس» (١٩٥٥)، ومشروع «إيزنهاور» (١٩٥٧)، ثم خطاب الرئيس «جونسون» أمام الجمعية العامة (١٩٦٧)، ثم مشروع وزير الخارجية «دين راسك» (١٩٦٨)، ومبادرة «سايروس فانس» (١٩٦٩)، وخطة «روجرز» (١٩٧٠)، وحتى مشروع «ريغان» (١٩٨٣).

وقد ظلت المشاريع الأميركية تجاه قضية اللاجئين ضعيفة، وغامضة، ولم ترق إلى المستوى المطلوب، وتراوحت بين أفكاردمج اللاجئين في هياكل سياسية واقتصادية في الشرق الأوسط، على أساس العمل وليس الغوث، أو دعوة إسرائيل للقبول بعودة أعداد معينة من اللاجئين، لا تتجاوز في أقصاها ٢٠٠ ألف لاجئ، وعلى مراحل، وتعويض من لا يرغب بالعودة، على أن تسهم في دفع التعويضات الولايات المتحدة والدول الأوروبية وإسرائيل، ودعوة الدول العربية لتوطين اللاجئين في اراضيها، مقابل إغراءات اقتصادية. وتحويل مسار قضية اللاجئين من قضية سياسية إلى قضية تقنية اقتصادية، أو إنسانية عبر تحسين أوضاع اللاجئين الحياتية والمعيشية، مما يؤدي إلى ترسيخ أقدامهم في بيئة جديدة صالحة ومرغوب فيها، ومن ثم إلغاء تطلعاتهم الوطنية بالعودة. وتجاهل جوهر الصراع العربي الإسرائيلي.

في عهد «ترامب»، تحول الموقف الأميركي تجاه قضية اللاجئين من الإزدواجية والتهرب من القرار ١٩٤، والالتفاف عليه، إلى نكران قضية اللاجئين، والعمل على تصفيتها؛ فبعد خطوتها بنقل السفارة الأميركية إلى القدس، قررت إدارة «ترامب» خطة أميركية جديدة، تتضمن عددا من الخطوات السياسية التي تستهدف في المقام الأول، وكالة الأونروا، وتتضمن الخطة الأميركية وقف الميزانيات وتمويل أنشطة الوكالة.

في البداية، قررت أميركا تخفيض مساهمتها في دعم وكالة الغوث، بنسبة الثلثين، أي من ٣٦٥ مليون دولار، إلى ١٢٥ مليون دولار سنويًا، ولم تقدم منها لعام ٢٠١٨ إلا ٦٠ مليون دولار. وكان التمويل الأميركي للوكالة يمثّل سابقًا ثلث ميزانيتها السنوية والبالغة ١,٢٤ مليار دولار؛ وهو ما يؤثّر جذريًّا في حياة ملايين اللاجئين الفلسطينيين المعتمدين على خدمات الوكالة في الضفة الغربية وقطاع غزة والأردن وسورية ولبنان. الأمر الذي دفع مدير عام الوكالة للإعلان عن تقليص خدماتها، كما عبر المفوض العام للأنروا «بيار كرينبول» عن قلقه ومخاوفه من انهيار الوكالة، داعياً الدول إلى دعمها.

والخطوة التي اتخذتها الولايات المتحدة بتقليص مساهمتها في دعم الأونروا، جاءت في إطار التمهيد للحل الذي تروج له لتصفية القضية الفلسطينية، تحت مسمى «صفقة القرن»، حيث باتت هذه الإدارة لا ترى أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني هو سبب عدم الاستقرار في الشرق الأوسط؛ بل ترى إن استقرار المنطقة يأتي من خلال القضاء على الإرهاب وتجفيف منابعه، ومواجهة الخطر الإيراني. وتأتي هذه الخطوة منسجمة مع توجهات «نتنياهو»، التي تسعى لإنهاء مهمة الوكالة.

وكشفت مجلة «فوربن بوليسي» عن رسائل مسربة، توضح كيف ضغط «كوشنر» على مسؤولين آخرين في الإدارة للانخراط في «جهد جدي للتضييق على الأونروا». وبحسب تقارير إعلامية أميركية، فإن قرار وقف التمويل عن الأونروا اتخذ خلال اجتماع بين «كوشنر» ووزير الخارجية، «مايك بومبيو»، في حين أدّت السفيرة الأميركية السابقة لدى الأمم المتحدة، «نيكي هيلي»، دورًا مهمًّا في تبنّي القرار. وذلك بالرغم من معارضة وزارة الدفاع والمؤسسات الاستخباراتية الأميركية التي حذّرت من انزلاق المنطقة نحو العنف نتيجة انقطاع المساعدات عن الفلسطينيين.

وتقوم الخطة الأميركية على تدابير لا تعترف بمكان تنقل اللاجئين عبر توارث الأجيال، وتحدد الخطة عدد اللاجئين الفلسطينيين بنصف مليون فقط، وليس ٥,٩ مليونا، كما هو مسجل في الوثائق وعلى أرض الواقع. وتتضمن الخطة الأميركية سحب الاعتراف بوكالة الغوث، على أنها وكالة تعنى بشؤون اللاجئين الفلسطينيين، والاكتفاء بالاعتراف بها مفوضية تعنى بشؤون اللاجئين عامة. يعقب ذلك وقف الميزانيات وتمويل فعاليات وأنشطة الوكالة.

ومن جهته، كشف صائب عريقات، أمين سر اللجنة التنفيذية للمنظمة، أن جولة المبعوثين الأميركيين «كوشنر» و»غرينبلات» (يونيو ٢٠١٨)، والتي شملت عدة دول عربية وإسرائيل، هدفت إلى شطب وكالة الأونروا وقضية اللاجئين، وأضاف بأن الجولة حاولت الترويج لتغيير النظام السياسي في الضفة الغربية، وإسقاط القيادة الفلسطينية. واعتبر أن الجولة جاءت بعدما ظنت الإدارة الأميركية أنها أسقطت ملف القدس.

وبيّن عريقات بأن واشنطن تسعى لترتيب صفقة مالية لقطاع غزة بقيمة مليار دولار، لإقامة مشاريع، بمعزل عن الأونروا، تحت ما يسمى حل الأزمة الإنسانية، وهي في الواقع ترمي إلى

تصفية قضية اللاجئين الفلسطينيين، مؤكدا أن التركيز على موضوع غزة والحديث عما يسمى أزمة إنسانية، كلام حق يراد به باطل، ويحمل أهدافا خطيرة في طياته، حيث أن «نتنياهو» أبلغ الموفدين الأميركيين، استعداده لتلبية احتياجات غزة من خلال اقتطاع الأموال اللازمة من العائدات الضريبية للسلطة الوطنية، بهدف إبقاء الانقسام قائما، وفصل غزة عن الضفة تمهيدا لإتمام مشروع دويلة في القطاع، مع إسقاط السلطة الفلسطينية في الضفة.

وكشفت وكالة «أسيوشيتدبرس» الأميركية أن إدارة الرئيس «ترامب» قررت إيقاف مساعدات للفلسطينيين بأكثر من ٢٠٠ مليون دولار.، وذلك في سياق ضغوطاتها على السلطة، ومعاقبتها على موقفها الرافض لما يسمى صفقة القرن.

الجهود الإسرائيلية لإنهاء قضية اللاجئين

في مستهل الاجتماع الأسبوعي للحكومة الإسرائيلية في يناير ٢٠١٨، قال «نتنياهو»: «الأونروا منظمة تخلّد قضية اللاجئين الفلسطينيين، وكذلك تخلد رواية ما يسمى بحق العودة، وذلك بهدف تدمير دولة إسرائيل، ولذا يجب على الأونروا أن تتلاشى وتزول»، كاشفا عن خطة لتحقيق هذا الهدف، ومشيرا إلى أنه طرح الأمر على الإدارة الأميركية، وأوضح قائلاً: «الأونروا هيئة تم إنشاؤها منفردة قبل ٧٠ عاماً، فقط لصالح اللاجئين الفلسطينيين، وذلك رغم وجود المفوضية السامية للأمم المتحدة المعنية بمعالجة قضايا بقية اللاجئين، مما يخلق بطبيعة الحال ذلك الوضع الهزلي، حيث تعالج الأونروا أبناء وأحفاد اللاجئين، الذين هم أنفسهم ليسوا باللاجئين، وهكذا تستمر ٧٠ عاماً أخرى ثم سيعالج أبناء هؤلاء، وبالتالي يجب وقف هذه المهزلة، وقد قدمت اقتراحاً بسيطاً مفاده تحويل أموال الدعم المنقولة حالياً للأونروا إلى المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، وذلك تدريجياً وبشروط ومعايير واضحة بغية دعم اللاجئين الحقيقيين بدلاً من اللاجئين الصوريين الوهميين، كما يحدث اليوم لدى الأونروا، وقد طرحت هذا الموقف أمام الولايات المتحدة. هذه هي الطريقة للقضاء على الأونروا ولمعالجة قضايا اللاجئين الحقيقية إذا ظلت مثلها».

وطبعا، خطة إسرائيل لشطب حق العودة، وتصفية قضية اللاجئين، ليست بالجديدة،

فإسرائيل منذ نشوئها، وهي ترفض الاعتراف بمسؤوليتها عن قضية اللاجئين، وترفض حق العودة، وترفض القرار ١٩٤، وقد رفضت كل المشاريع والمقترحات الدولية، بما فيها المقترحات الأميركية التي سعت لحل قضية اللاجئين، رغم أن هذه المقترحات والمبادرات كانت منحازة لصالح إسرائيل، وكانت تهدف إلى تمييع القضية، أو حلها جزئيا ورمزيا بما لا يؤثر على إسرائيل، وبما يحقق مشاريع التوطين.

الجديد في الموضوع محاولات إنهاء وكالة الغوث، وإعادة تعريف اللاجئ، بحيث يتم اختزاله بالجيل الذي كان في فلسطين إبان النكبة، وما زال على قيد الحياة، أي عدم الاعتراف بالأحفاد والأجيال التي نشأت بعد النكبة بصفتهم لاجئين.

وقد بدأت إسرائيل بمحاولات تشويه سمعة وكالة الغوث، متهمة إياها بأنها تحرض الفلسطينيين على حق العودة، وأنها بذلك تشكل عقبة أمام السلام، إضافة إلى اتهامها بدعم «الإرهاب»، وأن مدارسها ومراكزها تستخدم للأغراض العسكرية، وإطلاق الصواريخ، وأنها صارت ملاذا للإرهابيين، وهذا ما زعمت به إبان حروبها على غزة.. ثم بعد ذلك، انتقلت لمرحلة الإعلان عن ضرورة إنهاء الوكالة، وتحويل ملف اللاجئين إلى المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بدلا من وكالة الغوث.

وهذا الهجوم على الوكالة، ومحاولات تصفيتها تأتي انطلاقا من الرؤية الإسرائيلية لها، بوصفها رمزا لديمومة قضية اللاجئين. وأن إزاحتها من الوجود يسهل الطريق أمامها لإخراج قضية اللاجئين من قضايا الحل النهائي، وتجريد المفاوض الفلسطيني من كل أسلحته القانونية والأخلاقية والسياسية، ومن الدعم الدولي، ومن قرارات الشرعية الدولية المتعلقة بقضية للاجئين حين يتم طرحها على طاولة المفاوضات.

مخطط قديم جديد

يرمز المخيم الفلسطيني لقضية اللاجئين، ويمثل رمزا وطنيا وسياسيا لحق العودة، ويذكّر العالم بالنكبة؛ وطالما ظل المخيم، تظل قضية اللاجئين قائمة، من هنا كانت المحاولات الإسرائيلية المحمومة ضد المخيمات، في محاولة منها لإنهاء وجودها، كلما أمكن لها ذلك، وللأسف تورطت

أنظمة عربية وتنظيمات أصولية في هذا المخطط، سواء أكان ذلك مقصودا، أم غير مقصود.

وقد دمرت إسرائيل مخيم النبطية في الجنوب اللبناني (١٩٧٤)، أما الأطراف الخارجية فساهمت بطريقة أو بأخرى في إنجاح هذا المخطط، حيث دمرت «الكتائب» مخيم تل الزعتر (١٩٧٦)، ونفذت مذبحة صبرا وشاتيلا، بحماية شارون (١٩٨٢)، ثم شنت «حركة أمل» حرب المخيمات لثلاث سنوات متتالية على شاتيلا وبرج البراجنة (١٩٨٥ ~ ١٩٨٨)، صم دمرت منظمة «فتح الإسلام» مخيم نهر البارد (٢٠٠٧)، وأيضا دمّرت الكتائب اللبنانية وحلفاؤها كليا مخيمات ضبية، جسر الباشا، مار الياس في الحرب الأهلية. مع الإشارة إلى تلكؤ، أو رفض الحكومة اللبنانية إعادة إعمار المخيمات المدمرة.

وحيث يدرك الجميع أن مصير ومستقبل الوجود الفلسطيني في لبنان وسورية، وبالتالي ديمومة قضية اللاجئين، إنما يتوقف على بقاء المخيمات؛ وبالنظر إلى هذا التاريخ الملطخ بدمها، من الصعب ألا نقتنع بوجود مؤامرة تستهدف وجودها، وضرب رمزيتها، وما تعنيه لحق العودة، بل تريد تصفيتها نهائيا، وجعلها جزءاً من الذاكرة المنسية. هذه المؤامرة التي تسعى لإخراج اللاجئين من أي تسوية سياسية، وجعلهم مجرد جموع هائمة على وجهها في شتى بقاع الأرض، تبحث عن خلاصها الفردي فقط، تنفذها أطراف متعددة، بدءاً من إسرائيل، وانتهاءً بداعش.

وفي سياق متصل، يمكننا أيضا رؤية ما قام به نظام القذافي سنة ١٩٩٣ حين طرد الفلسطينيين المقيمين في ليبيا وجمعهم في خيام مؤقتة في الصحراء على الحدود المصرية. وأيضا ما قامت الميليشيات الطائفية بعد سقوط النظام العراقي من تنكيل بالفلسطينيين المقيمين في العراق، حتى تقلص عددهم من عشرين ألفا إلى بضعة مئات، جمعوهم في مخيمات بائسة على حدود الأردن وسورية لسنوات طويلة، حتى تم نفيهم إلى أقاصي الأرض. وكذلك تفريغ مخيم اليرموك من سكانه، حتى تراجع من ٢٥٠ ألف إلى بضعة آلاف، سيتم تهجيرهم قريبا على الأرجح.

وحتى لو لم تكن القضية مؤامرة بالمعنى الحرفي للكلمة، أو تدفيع الفلسطينيين أثمان الحروب والصراعات الداخلية في المنطقة، فهي ممارسات ممنهجة تأتي في إطار مخطط لإنهاء كل التجمعات الفلسطينية، وتذويبها وتشتيتها، ودفع اللاجئين للتفكير في الحلول الفردية، والهجرة إلى شتى أصقاع الأرض، تمهيدا لإقفال ملف حق العودة.

فالقضية هي استهداف المخيم بحد ذاته، ولو نظرنا للمخيمات الفلسطينية في لبنان، سنجد أن سكانها يعانون أوضاع البؤس والفقر، وحرمانهم من حقوقهم المدنية والطبيعية، إلى جانب تعرضهم للتهديد والحصار، الأمر الذي أدى إلى تفاقم إحساسهم بالعزلة والضياع، ودفعهم للهجرة، حتى تقلصت أعداد اللاجئين الفلسطينيين في لبنان المقيمين في مخيمات إلى ١١٤ ألف لاجئ فقط، بعد أن كان عددهم ٤٦٩ ألف لاجئ.

الموقف الفلسطيني والعربي

تمثلت ردود الأفعال الفلسطينية على المساعي الأميركية والإسرائيلية لشطب قضية اللاجئين بالرفض والإدانة؛ القيادة الفلسطينية وعلى عدة مستويات أعلنت رفضها لهذا المخطط؛ الرئيس عباس أعلن في خطابه أمام الجمعية العامة عن رفض محاولات تهميش قضية اللاجئين، وأكد أن عدد الفلسطينيين ١٣ مليونا، نصفهم من اللاجئين، رافضا الرقم الهزيل الذي حددته الإدارة الأميركية، ودعا في كلمته لدعم وكالة الغوث، ونجح بتجنيد أموال لهذا الغرض، سدت جزئيا المشكلة، إلى حين.

وفي ذات الإطار، وتعقيبا على تحرك عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي لسن قانون جديد يختزل عدد اللاجئين الفلسطينيين بـ ٤٠ ألف لاجئ فقط؛ قال أحمد أبو هولي، عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة، ورئيس دائرة شؤون اللاجئين: «إن الكونجرس الأميركي لا يملك حق تحديد أعداد اللاجئين الفلسطينيين». مشيرا إلى أن من يحدد أعداد اللاجئين وتسجيلهم هي وكالة الغوث، مؤكدا أن حق العودة يشمل كل الأفراد المنحدرين من نسل اللاجئين، وهذا يشمل اللاجئين المسجلين وغير المسجلين في الوكالة، وهو حق مشروع وثابت لا يسقط بالتقادم.

وأكد على أن المخطط الأميركي للالتفاف على حق العودة، سيفشل أمام صمود اللاجئين الفلسطينيين الممتد منذ سبعين عاما.

أما الموقف العربي، فهو أيضا كان رافضا، على الأقل على المستوى الإعلامي، فمثلا، أكد صائب عريقات، أن الموفدين الأميركيين «كوشنر» و«غرينبلات» استمعا إلى موقف عربي موحد،

مفاده أن الحل هو بإقامة دولة فلسطينية مستقلة على حدود عام ١٩٦٧ بعاصمتها القدس، وحل قضايا الوضع النهائي، بما فيها اللاجئين استنادا إلى قرارات الشرعية الدولية».

مضيفاً، بأن «الجانب العربي لم يغير موقفه، وهذا أمر نثمنه فلسطينيا ونرجو أن تكون الإدارة الأميركية قد فهمت أن القضية الفلسطينية ليست محل مقايضة»، مشيرا إلى أن «القيادة الفلسطينية كانت على اتصال دائم، لتنسيق المواقف مع الدول العربية، الأردن ومصر والسعودية وقطر والإمارات".

صحيح أن التصريحات الإعلامية لقيادات الدول العربية، خاصة تلك التي تستضيف أعدادا كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين، عبرت عن رفضها شطب قضية اللاجئين، وعن رفضها إلغاء وكالة الغوث، وأنها متمسكة بالحقوق الفلسطينية، وملتزمة بما توافق عليه القيادة الفلسطينية؛ إلا أن الأمر في الواقع قد يختلف عما هو ظاهر في الإعلام؛ حيث أن الموقف العربي الرسمي لحد الآن ضعيف وخجول، ولا يرقى للمستوى المطلوب، لا إعلاميا ولا سياسيا، وهذا الموقف شبه الصامت، يثير الشك بأن بعض القيادات العربية إما أنها موافقة ضمنا على التوجهات الأميركية بشأن قضية اللاجئين، أو أنها عاجزة عن اتخاذ موقف صارم وواضح.. كما أن الدول العربية الغنية لم تتقدم بمبادرات حقيقية لتعويض العجز المالي في وكالة الغوث، من أجل إنقاذها.. ومن جهة أخرى، فإن موقف الدول العربية التي حددت «المبادرة العربية للسلام» سقفا لها، والتي تؤكد على «حل متفق عليه» بشأن اللاجئين، يعني أن القرار سيظل بيد إسرائيل، التي بوسعها عدم الاتفاق ببساطة.

وحسب بعض التسريبات الصحافية، فإن بعض الدول العربية قد تقبل بالعروض الأميركية المقدمة، وهي تحويل المبالغ المالية التي كانت تصرف على وكالة الغوث، بحيث تدفع مباشرة لتلك الدول، في هذه الحالة تظل الخدمات المقدمة للاجئين مستمرة، ولكن دون الوكالة، ما يعني إلغاء البعد السياسي والدولي لقضية اللاجئين، وتحويلها إلى مجرد خدمات، وتتوقع تلك الدول أن هذه الحالة ستضمن عدم انفلات الأمن، وعدم حدوث مظاهرات شعبية ساخطة، طالما أن الخدمات لن تتوقف.

خلاصة

في عهد الإدارة الأميركية الجديدة، تعمقت قضية اللاجئين، وصارت أكثر تعقيدا، وأبعد عن أي حل عادل، وصارت مطالب الفلسطينيين بحق العودة أكثر صعوبة، والسبب في ذلك، التغيرات العميقة في الخارطة السياسية الإقليمية والدولية، والتي من أهم عناوينها تنامي معسكر اليمين الصهيوني في إسرائيل، ووجود حكومة يمينية متطرفة، وتنامي اليمين الديني والقومي في أميركا، وتعاظم دور المسيحية الصهيونية، والتي أفضت إلى وصول «ترامب» إلى البيت الأبيض، وهذا يترافق أيضا مع تنامي اليمين الشعبوي في عموم أوروبا.

هذا الوضع، والذي تشكل في مرحلة استفحال حالة الضعف والانقسام الفلسطيني، وفي ظل حالة ضعف عربي غير مسبوقة، شجّع الحكومة الإسرائيلية على استغلال الظرف لإنهاء قضية اللاجئين، إضافة إلى حسم مواضيع أخرى بالغة الأهمية من قضايا الحل النهائي، مثل القدس والمستوطنات.. وهذا التوجه الإسرائيلي لاقى تشجيعا غير معهود من قبل الإدارة الأميركية.

بيد أن نجاح هذا المخطط على أرض الواقع، يتوقف أولاً على الحراك الشعبي الفلسطيني، وعلى موقف القيادة الفلسطينية الصارم والواضح، وعلى تحرك الأطراف الأخرى، وتحديدا الدول العربية، وكذلك الدول الصديقة، ومدى قدرتها على التصدي للمخطط الأميركي، وعلى إنقاذ الأونروا، ودعمها ماديا خاصة بعد وقف أميركا تقديم المخصصات التي كانت تقدمها دائماً.

وأخيرا: مخططات إنهاء قضية اللاجئين قديمة، وقد حاولت إسرائيل وأميركا مرارا وتكرارا تنفيذها، إلا أنها لم تنجح، لأنها قضية راسخة في الوجدان الشعبي الفلسطيني، صحيح أن اللاجئين لم يعودوا إلى وطنهم حتى الآن، لكنهم ظلوا متمسكين بحق العودة، ورافضين لمشاريع التوطين، وكما أفشلت المظاهرات الشعبية في قطاع غزة مخططات التوطين في الخمسينات، ستفشل كل المخططات الأخرى، طالما أن اللاجئين يطالبون بحقهم في العودة. وكما قيل: لا يضيع حق وراءه مُطالِب.

الهوامش:

١. تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم ١٩٤ (الدورة الثالثة) الذي تقرر فيه «وجوب السماح بالعودة، في أقرب وقت ممكن للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم، ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى ديارهم، وكذلك عن كل فقدان أو خسارة أو ضرر للممتلكات بحيث يعود الشيء إلى أصله وفقاً لمبادئ القانون الدولي والعدالة، بحيث يعوّض عن ذلك الفقدان أو الخسارة أو الضرر من قبل الحكومات أو السلطات المسؤولة». المصدر الصفحة الرسمية لوكالة الغوث.

https://www.unrwa.org/ar/content/

٢. الصفحة الرسمية لوكالة الغوث.

https://www.unrwa.org/ar/content/

٣. الجهاز المركزي للإحصاء، فلسطين، ٢٠-٦-٢٠١٨. رام الله.

http://www.pcbs.gov.ps/portals/_pcbs/PressRelease/Press_Ar_202018--6-REF-ar.pdf

٤. هاني الملازي، عدد اللاجئين في العالم يقفز إلى ٥,٦٨ مليون لاجئ، المصدر EURONEWS، ١٩-٦-٢٠١٨.

٥. اللاجئون الفلسطينيون، تعريف وتأريخ، المصدر الجزيرة نت، ٣-١٠-٢٠٠٤.

http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/fe0b51af-a64d-48af-b8f5-c96c6672df0c

٦. محمد أبو حميد، موقف الولايات المتحدة من قضية اللاجئين الفلسطينيين، المكتب الإعلامي الفلسطيني، ٢٢-١-٢٠١٨.
http://fatehmedia.eu/archives/139518

٧ . ماجد كيالي، قضية اللاجئين الفلسطينيين في تعقيداتها وإشكالياتها، الجزيرة نت، ١٢-١١-٢٠١٢.

٨. ماجد كيالي، المصدر السابق.

٩. أكرم عدوان، المواقف الأميركية من قضية اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٨~ ٢٠٠٧، قسم التاريخ/ كلية الآداب/ الجامعة الإسلامية، غزة ٢٠٠٩.

١٠. أكرم عدوان، المصدر السابق.

١١. خطة أميركية لتصفية قضية اللاجئين، موقع عربي، ٢٦-٨-٢٠١٨.

https://arabic.sputniknews.com/world/201808261034866336-

١٢. محمد أبو حميد، موقف الولايات المتحدة من قضية اللاجئين، مصدر سبق ذكره.

١٣. مصادر إسرائيلية: أميركا تستعد لإلغاء حق العودة، المصدر الجزيرة نت، ٢٠١٨/٨/٢٦.

http://www.aljazeera.net/news/arabic/201826/8/

١٤. عريقات يكشف تفاصيل ما حملته الجولة الأميركية، وكالة سما الإخبارية. ٢٣-٧-٢٠١٨.

http://samanews.ps/ar/post/340374

١٥. مصادر إسرائيلية: أميركا تستعد لإلغاء حق العودة، مصدر سبق ذكره.

١٦. خطة إسرائيلية لشطب قضية العودة، العين الإخبارية، ٧-١-٢٠١٨.

https://al-ain.com/article/unrwa-netanyahu-palestine

١٧. رقم مفاجئ لأعداد اللاجئين في لبنان، إحصاء تنفيذ إدارة الإحصاء المركزي اللبناني، والجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. ٢١-١٢-٢٠١٧. العربية نت.

١٨. الكونجرس الأميركي يسعى لتصفية قضية اللاجئين، دنيا الوطن، ٣٠-٧-٢٠١٨.

https://www.alwatanvoice.com/arabic/news/20181162699/30/07/.html

١٩. عريقات يكشف تفاصيل، مصدر سبق ذكره.

٢٠. مصادر إسرائيلية: مصدر سبق ذكره.

المخطوطات هويّات الأمم:
المخطوطات المقدسية أنموذجًا

عزيز العصا*

مقدمة

تتمتع القدس بعمق تاريخي وبمكانة دينية أسهما في احتفاظها بإرث تراكمي من الحضارة والثقافة، التي يشكل العمران أحد مكوناتهما. فهي تتميز عن المدن الفلسطينية الأخرى، باحتوائها على أرشيف الذاكرة الإنسانية عبر آلاف السنين، من خلال مخزونها الثقافي الذي تعبر عنه المؤسسات الثقافية المقدسية. ويمكن رصد المشهد الثقافي المقدسي من خلال عدد من المكونات الحضارية، التي تم «مأسستها» وتأطيرها وتوثيقها، منها: المعالم الأثرية والعمرانية، المكتبات والأرشيفات، المتاحف والآثار والأسواق، والتراث الشعبي والحكايات الشعبية والعادات والتقاليد، المسارح والسينما -لم تعد موجودة للأسف- والفنون والموسيقى، الصحافة والإعلام، التأليف والترجمة والنشر، الحرف التقليدية، المنتديات والاتحادات الثقافية والأندية.

سوف نتطرق في هذا المقال إلى المخطوطات والمكتبات المقدسية، بما تشكله من بعد ثقافي يجمع بين التراث والمعاصرة؛ فالمخطوطات المتوفرة في القدس تعود إلى عمق يناهز الألف عام، كما أن مكتباتها تزخر، إلى جانب المخطوطات، بالكتب طباعة الحجر والكتب المعاصرة وصولًا إلى أحدث تقنيات التوثيق الالكترونية.

* باحث من فلسطين

المخطوطات: المفهوم والتعريف

المخطوط في اللغة هو كل ما كتب بخط اليد سواءً كان كتاباً أم وثيقة أم نقشًا على حجر أم رسالة وسواءً أكان باللغة العربية أم غير العربية(). ولكنه في الاصطلاح يقتصر على الكتاب المكتوب بخط اليد، وبذلك تُستبعد الوثائق والنقوش والكتابة على الجدران والعملات والأنسجة وما في حكمها؛ لأن هذه الأشكال من الكتابة تقع تحت علوم أخرى لعلم الوثائق وعلم الآثار. وظهر هذا المصطلح بعد عصر الطباعة؛ للتفريق بين المطبوع والمخطوط، حيث كان العرب يتداولون مصطلحات: أمهات الكتب، المؤلفات، كتب الأصول().

حدد القدماء لصناعة الكتاب المخطوط أركانًا أربعة، هي: الكاغد (الورق)، والمداد (الحبر)، والقلم (الخط) والتجليد (التَّسفير)(). وتتميز المخطوطات عن المطبوعات بأصالتها وباختلاف كل نسخة منه عن الأخرى زيادة أم نقصا، سواء كان ذلك الاختلاف مقصودا أم غير مقصود، في عملية النسخ اليدوي()، والتي تتم في معظم الأحوال من قبل أكثر من شخص.

المخطوط هو ابن بيئته وعصره؛ إذ كثيراً ما تكون المواد المصنوعة منه كالورق والمِداد والجلد آتية من المكان الذي صنع منه الكتاب، إضافة إلى كون الناسخ الذي قام على كتابته، والمزخرِف الذي أنّقه، والمجلِّد الذي اعتنى بتجليده وتذهيبه، قاموا بفعل ذلك حسب القواعد والأعراف والتقاليد الجارية في عصرهم، لذلك فإن ظهور سِمات العصر الذي تم فيه صْنع المخطوط أمر بدهي، ولا يبقى على الباحث إلا تلمّس ذلك لتقديم تحديد تقريبي لعمر المخطوط ومكان نسخه().

المخطوطات العربية: نظرة عامة

عرف العرب الكتابة مبكرًا، ففي الجاهلية الثانية (تُقدّر بمائة وخمسين عامًا قبل الإسلام) ظهر الشعراء العِظام، مثل: إمرئ القيس وزهير وعنترة وغيرهم، كما أن المعلّقات كانت عبارة عن قصائد تُكتب بماء الذهب وتُعلق على أستار الكعبة()، كما كانت النقوش والمراسلات المختلفة، وكان من العرب من يجيد القراءة والكتابة، حتى أنه كان في قريش بمكة سبعة عشر نفرًا يكتبون، وفي الأوس والخزرج بالمدينة أحد عشر كاتبًا().

وفي العصر الإسلامي كانت أولى مخطوطات العرب نسخ القرآن الكريم، ثم تطورت عمليات

الكتابة والنسخ بعد ذلك لتشمل تأليف وترجمة آثار في علوم الفقه والطب والتفسير واللغة والشعر بجانب علوم الحديث الشريف والسيرة النبوية. ومع اكتشاف الورق الصيني في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي تقدمت عملية الكتابة والنسخ كثيرا، وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حل الورق محل البردي(). ومن الجدير الإشارة إليه أن الترجمة بدأت في العصر الأمويّ، إلا أنها انتعشت وازدهرت في العصر العباسيّ().

لم يتوقف الأمر عند المخطوط العربي الإسلامي، المنسوخ بالحرف العربي كمخطوطات الدول الإسلامية غير العربية، بل كان هناك المخطوط العربي المسيحيّ؛ وهو المخطوط الذي كتبه مسيحي بالعربية تناول فيه موضوعًا عربيًا أو عالج فيه قضايا عقدية مسيحية().

يُعدّ المخطوط العربي أطول مخطوطات العالم عمرًا؛ فجذوره تضرب في أعماق التاريخ، وفروعه تمتد إلى مشارف العصر الحديث (أوائل القرن التاسع عشر)، وما من لغة قديمة أو حديثة امتدت بها الحياة أكثر من ألف عام دون تحريف أو تبديل في مفرداتها وصرفها، بل وإملائها كما قُدِّر للغة العربية التي تكلم بها العرب في العصر الجاهلي ونتكلم بها نحن اليوم().

من الصعب تحديد عدد المخطوطات في العالم الإسلامي، وما يقال في هذا الصدد من أرقام تعد من قبل التخمين، ويُعتقد أن عدد المخطوطات العربية حول العالم تبعًا للعارفين بها بنحو ثلاثة ملايين مخطوطة، بينها النسخ المكررة وغير ذات القيمة والحديثة. أما المخطوطات المعتبرة بين هذا الكم فتصل إلى نحو نصف مليون مخطوطة(). وهناك من يعتقد بأن عدد المخطوطات العربية لا يقل عن أربعة ملايين مخطوطة(). ورغم عدم توفر إحصاءات دقيقة لعدد المخطوطات الاسلامية فإن الخبراء يقدرون أنه يتراوح ما بين مليون وثلاثة ملايين مخطوطة في مختلف أنحاء العالم. وأيًا كان الحجم الحقيقي للمخطوطات العربية، فإنه يفوق، في عدده ومحتواه، كل ما خلفته الأمم الأخرى().

تدلل الأعداد المذكورة أعلاه للمخطوطات العربية على أنها تراث حقبة امتدت لأكثر من أربعة عشر قرنًا، وقام على تأليفها واستنساخها، ألوف من العلماء والأدباء والخطّاطين، طوال هذه القرون المتعاقبة. إذ من المعلوم أن الكتب لا توجد في أمة من الأمم إلا إذا توافرت لها ثلاثة عناصر، هي: وجود كتابة وكُتّاب، ووجود مواد صالحة لتلقي الكتابة وتدوين الكتب، ووجود تراث يحرص الناس على تسجيله واقتنائه().

وبناءً عليه، فإن أمتنا كانت أمة حية وفاعلة بين الأمم على المستوى المعرفي والحضاري، فالكتب بغزارة إنتاجها عبرت عن حضارة نفيسة ومتفوقة، فكانت المخطوطات العربية ذات أهمية قصوى، فانتشرت في أرجاء المعمورة كافة، حتى أنها أصبحت تراث الإنسانية قاطبة؛ ينهل منها العلماء من الأمم كافة. وهي ميزة قلما نجدها لدى الأمم الأخرى ومخطوطاتها، فأقبل أبناء الشرق والغرب على تعلم اللغة العربية().

توجد أهم مجموعات المخطوطات العربية الموجودة خارج الوطن العربي في إستانبول والأناضول بتركيا، ويقدّر عددها بنحو (٢٥٠) ألف مخطوطة، القسم الأكبر منها مصدره مصر والشام واليمن، وما كان منه منتشرًا في خزائن المدارس المنتشرة في القاهرة في العصر المملوكي، ثم إيران ويليها أوروبا (منذ الحروب الصليبية) ثم أمريكا فالهند والدول الإسلامية التي تكوِّن الكومونولث الروسي().

وأما بخصوص هذا الحجم من المخطوطات العربية في تركيا، فقد أحصى هلموت ريتر عدد المخطوطات العربية الموجودة في مكتبات استانبول في مطلع ستينات القرن العشرين فوجدها (١٢٤,٠٠٠) مخطوطة، ثم قال: لا تستطيع أية عاصمة في الشرق أو الغرب أن تتباهى باقتنائها كمية مماثلة من المخطوطات كما هو عليه الحال في استانبول؛ فاستانبول هي المركز الأول للمخطوطات العربية والفارسية والتركية في العالم». وحين سأل ريتر صديقه الفقيه التركي خوجا شرف الدين «كيف استطعتم أن تجمعوا كل هذه الكتب؟»، أجابه بكلمة واحدة: «بالسيف»().

وتعدّ إيران ثاني أهم الدول التي يوجد فيها مخطوطات عربية بعد تركيا، إذ يقدر عدد المخطوطات فيها بحوالي مائتي ألف مخطوطة، ومن أبرز المخطوطات الموجودة فيها نسخة من المصحف الشريف مكتوبة على الرق بالخط الكوفي جاء في آخرها: «كتبه علي بن أبي طالب سنة أربعين من الهجرة»().

سوف نتناول فيما يأتي، بشئ من الاختصار، نشأة وتطور العلوم في القدس التي احتضنت العلماء، وما أنتجه هؤلاء من مخطوطات، منذ العهدة العمريّة عام (٦٣٦م).

القدس حاضنة العلم والعلماء

لقد حظي بيت المقدس بالرعاية الإلهية، بقوله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (**الإسراء: ١**)، فحظي برعاية الحكام والسلاطين، بقدر وضعه في صلب اهتمام العلماء والمفكرين، ومنحه مكانة قصوى على المستويات العقائدية والدينية والتاريخية. فكان هناك إجماع بين الفقهاء حول أهمية هذا المكان ومكانته ودوره في تجميع الأمة. كما أن العار التاريخي لحق بكل من تهاون في حمايته والدفاع عنه وتحريره من أيدي المغتصبين؛ وذلك لأنه قبلتهم الأولى التي لا يمكنهم التنازل عنها، وأن الأرواح ترخص عند الدفاع عنه وحمايته.

فبعد الفتح العمريّ للقدس مباشرة كان بناء المسجد الأقصى المبارك، وأتبع في العهد الأموي وبالتحديد في عهد عبد الملك بن مروان (٢٦هـ/٦٤٦م-٨٦هـ/٧٠٥م) إعادة بناء المسجد كما بنيت قبة الصخرة المشرفة؛ وقد تولى بناءهما «رجاء بن حياة» المتوفى (١١٢هـ/٧٣٠م). ولما ولي «سليمان بن عبد الملك بن مروان» (٥٤هـ/٦٧٤م-٩٩هـ/٧١٧م) الخلافة بعد أخيه «الوليد» سنة (٩٦هـ/٧١٥م)، كان يجلس في «قبة سليمان» عند باب الدويدارية، وقد استخلف عمر بن عبد العزيز (٦١هـ/٦٨١م-١٠١هـ/٧٢٠م)().

كان الأمويون يعظمون العلماء، وعلى مدى القرن الأول الهجري، قدمت إلى بيت المقدس أعداد كبيرة من الزهاد، ومنهم من دخله؛ زائرًا أو مستوطنًا- بعد الفتح العمري وعمارة عبد الملك بن مروان، وذلك قبل استيلاء الفرنجة عليه، للتعبد والاعتكاف في المسجد الأقصى المبارك ().

هكذا، جعل العلماء، عبر العصور والأزمان، من المسجد الأقصى قبلتهم العلمية والبحثية والأكاديمية، وكان الطلبة ومدرسوهم من خيرة العلماء يقيمون في المباني الجميلة المحيطة به، والتي صرفت عليها الخلافات الإسلامية المتتابعة المبالغ الضخمة، من أجل إتقان تصميماتها لما تحمله من دلالات ورمزيات ذات صلة بالصراع الأزلي القائم في هذا المكان بين الحضارات الإنسانية كافة.

لأن هؤلاء العلماء توزعوا على التخصصات العلمية والبحثية المختلفة، واستجابة لجوهر العقيدة الإسلامية القائم على البحث والتفكر والإبداع، واعتبار ذلك جزءًا لا يتجزّأ من العبادة، فإن المسجد الأقصى لم يكن يومًا ما مجرد مكان للصلاة فيه، بل كان مصدراً رئيسًا للعلم والمعرفة في المجالات كافة. وقد ورد في الأثر أن الإمام الغزالي (٤٥٠هـ/١٠٥٨م-٥٠٥هـ/١١١١-١١١٢م) عندما جاء إلى المسجد الأقصى، قبل الغزو الصليبي، ووجد فيه «٣٠٠ حلقة علم»، قال: لقد ضاع العلم في بيت المقدس. ويقال أن الغزالي صنف في القدس «إحياء علوم الدين»، إذ أقام بالزاوية التي على باب

الرحمة شرقي بيت المقدس فسميت بالغزالية نسبة إليه().

وفي القرن الخامس الهجري تعرض بيت المقدس، وفلسطين بشكل عام، إلى مجموعة من الأزمات المتلاحقة، المتمثلة بالكوارث الطبيعية والاقتتال الداخلي التي سبقت الغزو الصليبي، في العام ١٠٩٩م، وبقي بيت المقدس في أيدي الصليبيين لمدة (٩١) سنة هجرية، حتى أذن الله سبحانه وتعالى، وقدر فتحه على يد صلاح الدين الأيوبي (شوال ٥٨٣هـ/كانون الأول ١١٨٧م)(). ثم عادت للقدس مكانتها، وعاد للمسجد الأقصى دوره.

لقد تميز المسجد الأقصى، عبر التاريخ، بتوافر الأجواء الملائمة لتحفيز العلماء على الإقامة فيه؛ من أجل البحث والتمحيص والمتابعة الحثيثة، وشهدت القدس منذ تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي، نموًا كبيرًا في عدد المدارس الإسلامية؛ إذ بلغ عدد المدارس في العهد الأيوبي (١١٨٧م-١٢٥٠م) (٢٣) مدرسة، وأضاف المماليك – خلال الفترة (١٢٥٠م-١٥١٧م) (٤٧) مدرسة أخرى()، أنشئ معظمها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)؛ وهو القرن الذي شهدت فيه القدس قمة ازدهارها العلمي().

القدس صانعة الكتب عبر العصور

تبعًا لما سبق، تنامت الحاجة إلى الكتب، وظهرت مهنة نسخ المخطوطات وتجليدها، وغير ذلك من العمليات الخاصة بها. ثم أصبحت القدس تحت الحكم العثماني (١٥١٧م-١٩١٧م)، الذي شهد زيادة الإقبال على الكتب بفضل اهتمام العثمانيين بتطوير بيت المقدس عمرانيًا وثقافيًا، حتى أصبحت مدينة القدس مركزًا علميًا يؤمه العلماء وطلبة العلم؛ فاشتدت الحاجة إلى استنساخ المزيد من الكتب وتجليدها وترميمها، بالإضافة إلى انتشار ظاهرة جلب المخطوطات من القاهرة ودمشق(). وتطورت صناعة الكتب تطورًا كبيرًا.

لذلك، شهدت القدس حركة دؤوبة في مجال صناعة الكتب، وما يتصل بها من النواحي التقنية والفنية، مثل: استيراد الورق، واستيراد الأقلام، وصناعة الحبر، والنسخ، والتجليد، والترميم، والتوزيع... وغير ذلك من العمليات ذات الصلة. وأما من حيث كتابة المخطوطات المقدسية، فهناك بعض العلماء من كان يكتب مخطوطته بخط يده، تسمى «المخطوط الأم»، وهناك علماء يستأجرون من ينسخ

لهم مخطوطاتهم. كما شهدت القدس نسخ أعداد كبيرة من المخطوطات، وأن مئات من المخطوطات المقدسية تم نقلها إلى خارج فلسطين. كما كان بعض علماء بيت المقدس وطلبتها ينسخون مخطوطات أثناء وجودهم خارج فلسطين، ثم يحملونها معهم إلى مدينتهم (القدس)().

بالنسبة لعملية النسخ، يتبين لنا أنها أكثر العمليات مشقة في صناعة المخطوطات؛ حيث تستغرق وقتًا طويلًا، وتختلف جودة الخط من ناسخ إلى آخر، وقد برز في القدس العديد من الخطاطين الذين يعلمون فن الخط لناسخي المخطوطات وكتّاب المحاكم والدواوين. وأن المقدسيين كانوا يصنعون الحبر الحديدي الأسود والكربوني محليًا؛ بسبب سهولة إعداده وتوفر مواده الخام: الصمغ العربي، والسناج، والخل، والنيلة وغيرها().

وفيما يخص التجليد، فقد كان العرب يستخدمون مواد كثيرة، منها: الجلد، والحرير، والورق، والخشب، والخيط، والغراء(). كما طور المقدسيون التجليد، ليس على مستوى حفظ الورق وحسب، وإنما كفنّ من الفنون الإسلامية، حيث كانت الأغلفة تُزيّن بإطارات مذهّبة وأشكال هندسية ورسوم نباتية. ونتيجة لتكرار استخدام المخطوطات وتعرضها للرطوبة والحشرات، ظهرت مهنة الترميم، وكان بعض العلماء يمارسون هذه المهنة في منازلهم بعد تقاعدهم().

ومن خلال مشاهدتي المباشرة للمخطوطات في المكتبات المقدسية، وبالحوار مع القائمين عليها، تبيّن أن لهذه المخطوطات ملامح خاصة بها، تكاد تتكرر فيها جميعها، منها:

صفحة العنوان، تحتوي على عنوان المخطوط واسم مؤلفه، والاستهلال وهو بداية النص ويبدأ بالبسملة والحمدلة ثم يبين المؤلف هدفه من التأليف ويسرد بيانا بمحتويات الكتاب.

يترك النساخ هوامش حول النص، يُعتقد أنه فسح المجال أمام القراء، بخاصة العلماء منهم، لتدوين ملاحظاتهم، وهي ما يُطلق عليه «الحواشي».

هناك اهتمام واضح بتزيين المخطوطات بزخارف متعددة، وتحظى المصاحف بالقدر الأكبر من هذه التزيينات.

لا شك في أن هذه التزيينات والزخارف تعكس ثقافة وحضارة وإبداعات عصرها، مما يشكل مادة علمية للباحثين عن سمات وخصائص العصور التاريخية التي مرّت بها مدينة القدس خلال نحو ألف عام.

المكتبات المقدسيّة: تدفع ثمن الحروب

أول مخطوطة وضعت في القدس في العصر الإسلامي هي «العهدة العمرية» في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ثم احتضنت القدس المخطوطات والكتب، بشتى أنواعها، المقدسية الصنع أو الواردة إليها من حاضرات الأمة الإسلامية الأخرى، كالقاهرة وبغداد ودمشق وغيرها.

كانت المخطوطات تحفظ في خزائن (خشبية)، اتخذت فيما بعد مسمى «مكتبة»، موزعة على مباني المسجد الأقصى المبارك، كانت تقدم خدماتها للباحثين وفق قوانين صارمة، يتابع تنفيذها «أمين المكتبة»؛ تضمن المحافظة على سلامتها وعدم ضياعها، وكان القاضي يأمر بجردها بين الحين والآخر(). ففي العام (١٠٦٠هـ/١٦٥٠م) كانت هناك وظيفة من وظائف الحرم الشريف تعرف بإسم «أمانة الكتب في الصخرة المشرفة»؛ إذ عندما توفي الشيخ بشير الشهير بإبن الخليلي صاحب هذه الوظيفة، نقلت إلى ولديه: إبراهيم وعبد الرحمن بمقدار أجرة يومية «أربع عثمانية» تقسم بينهما بالتساوي().

يقدر عدد المخطوطات في القدس، في الحقبة العثمانية، بنحو سبع عشرة ألف مخطوطة، وأكثر من نصف المخطوطات في الحقبة العثمانية تعود إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري (السابع عشر والثامن عشر الميلاديين)، وهي نفس الفترة التي شهدت ارتفاع عدد الناسخين، ويعزى ذلك إلى الاستقرار السياسي الذي شهدته القدس بعد إخفاق ثورة الأشراف عام ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م().

وعندما تشكل المجلس الإسلامي الأعلى في القدس، بعيد الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧م، تم نقل ما تبقى من كتب ومصاحف إلى دار كتب المسجد الأقصى التي أنشأها المجلس في العام ١٩٢٢. أضف إلى ذلك المكتبات الصغيرة التي دأب مشايخ المدارس والزوايا (كانت تعرف بالخوانق) والأروقة على تأسيسها، والتي كانت الأمكنة الهادئة للناسخين().

أما حاليًا، فنجد أن هناك تراجعًا مذهلًا في أعداد تلك المخطوطات، التي انخفض عددها من العدد الآنف الذكر -نحو ١٧ ألف مخطوط- إلى أقل من الثلث، كما يظهر في الجدول (١).

الجدول (١):

أعداد العناوين في المخطوطات التي كانت في بيت المقدس

أواخر الحكم العثماني وأعدادها حاليًا حسب القرون الهجرية

	القرن الهجري	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	مجهولة التاريخ	المجموع
إبان الحكم العثماني	مجموع العناوين	١٢٦٦	٥٠٣٨	٤٥٦٥	٢٩٦٢	٣١٥٣	------	١٦٩٨٤
	النسبة المئوية	٪٠٧	٪٣٠	٪٢٧	٪١٧	٪١٩	------	٪١٠٠
حاليًا	مجموع العناوين	٦٥٤	١٢٢٢	١٩١٥	١٠٣٢	١١٥	٤٦١	٥٣٩٩
	النسبة المئوية	١٢٪	٢٣٪	٣٥٪	١٩٪	٪٢	٪٩	١٠٠٪

يتضح من الجدول (١) أن القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين كانا أثرى تلك القرون بالمخطوطات، ويفسر ذلك بسبب الاستقرار السياسي الذي شهدته القدس بعد إخفاق ثورة الأشراف عام ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م(). وعند رصد توزيع عناوين المخطوطات على المكتبات المقدسية، حصل بركات (٢٠١٢) على النتائج كما في الجدول (٢).

الجدول (٢): عدد العناوين() في مخطوطات المكتبات المقدسيّة المعاصرة حسب تواريخ النسخ ()

المكتبة	الخالدية	الشيخ الخليلي	المسجد الأقصى	البديرية	دار إسعاف النشاشيبي	جامعة القدس	الزاوية الأزبكية	إحياء التراث (ميثاق)	المجموع
عدد العناوين	١٩٣١	٤٩٤	٦١٩	١١٧٧	٧٤٤	٢١٤	١٩٧	٦٩٤	٦٠٧١
النسبة المئوية	٪٣٢	٪٨	٪١٠	٪١٩	٪١٢	٪٤	٪٣	٪١١	٪١٠٠

يلاحظ من الجدول (٢)، وفق دراسة بركات (٢٠١٢) أن المكتبة الخالدية تتميز عن باقي المكتبات المقدسية -قيد الدراسة- بحجم المخطوطات المتوفرة فيها. وبالمقارنة بين الجدولين (١ و٢) تظهر فروقات في المجاميع، ويعود ذلك إلى إضافة مخطوطات مكتبة مؤسسة إحياء التراث، التي لم تكن ضمن دراسة بركات (٢٠١٢).

عندما قام كاتب هذا المقال بمتابعة تلك الأعداد ومقارنتها مع الأعداد الحقيقية التي وجدها في الميدان، فتبين ما يلي:

- مكتبة الشيخ الخليلي ليست مكتبة مستقلة، وإنما مخطوطاتها هي جزء من مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى المبارك.

- تضم مكتبة المسجد الأقصى بما فيها مكتبة الشيخ الخليلي (٢٣٠٠) عنوانًا؛ تتوزع على ثلاثة أماكن داخل المسجد الأقصى: مقر المكتبة في مسجد النساء، ومركز ترميم المخطوطات والمتحف الإسلامي.
- عدد عناوين المكتبة الخالدية هو (١٢٧٣) عنوانًا، تتوزع على (١٩٦٨) مخطوطة.

عرفت القدس العديد من المكتبات، بعضها ما زال قائمًا كما ورد في الجدول (٢) أعلاه، وبعضها كان قد أنشئ منذ العصر الأيوبيّ، حتى العصر العثمانيّ، وآلت إلى التفرّق والتشتت، وأصبحت أثرًا بعد عين، مثل(): مكتبة الفخريّة، ومكتبة آل قطّينة، ومكتبة آل المؤقت()، ومكتبة عبد الله مخلص()، ومكتبة آل الخطيب، ومكتبة الرجبي، ومكتبة العجلوني، ومكتبة أبو اسبيتان، وخزانة الشيخ طاهر أبي السعود ومكتبة آل جار الله، ومكتبة آل الترجمان.

الاستنتاجات

تبيّن من هذا المقال أن حجم المخطوطات العربية، التي تقدر بالملايين، كان يؤشر إلى الوضع والمكانة العلميتين اللتين كانت تحتلهما الأمة وهي في أوج تقدمها وانتصاراتها. وعندما حلت بها الهزائم والنكسات تشتت تلك الإنجازات، وأصبحت نهبًا بين الأمم؛ فتوزعت هنا وهناك في أصقاع المعمورة.

وأما بالنسبة للأوقاف المقدسية، فهناك استنتاج بالغ الأهمية، وهو أن الآثار المكتوبة على الورق، بخط يد العلماء أو طلبتهم أو من ينسخ لهم أو ينسخ عنهم، وهو ما يطلق عليه المخطوطات المقدسية، هي تركة وإرث بين أيدينا توثق للأنشطة العلمية وما نجم عنها من اختراعات وابتكارات وإبداعات، إلى جانب الآثار العمرانية والحجرية، التي تشكل، في مجموعها، هوية حضارية وثقافية تتوارثها الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كما وجدنا أنه بالرغم من الكوارث التي ابتلي بها الشعب الفلسطيني، إلا أن هناك من بقي قابضًا على ما ورثه عن الآباء والأجداد كالقابض على الجمر في وجه الخوف والقلق من الاحتلال وإجراءاته القمعية، وما يرافقها من بريق الأموال، بأرقام فلكية، تزجى لكل من "يفرط" في أي شئ من هويته الوطنية! وإنه من دواعي غبطتنا وسرورنا أن نؤكد على أن هناك الآلاف من المخطوطات المصانة من قبل الوارثين لها، والذين بقوا على العهد، هم وأبناؤهم وذريتهم القادمة بإذن الله!

الهوامش

لم يتطرق هذا المقال إلى المخطوطات الموجودة في أديرة القدس أو كنائسها؛ إذ استحال على الباحث الوصول إليها.

الحلوجي، عبد الستار (٢٠٠٤). نحو علم مخطوطات عربي. دار القاهرة. القاهرة. مصر. ص: ٩.

القرني، صالح (٢٠٠٩). المخطوطات تعريفها وأهميتها في التراث الاسلامي. مقال منشور في صحيفة الرياض السعودية، العدد ١٤٩١٤، بتاريخ (٢٤ نيسان، ٢٠٠٩). أنظر الرابط: http://www.alriyadh.com/٤٢٤٥٠٤ (أمكن الوصول إليه بتاريخ: ٢٠١٩/٠٩/٢٦).

القرني (٢٠٠٩). مرجع سابق.

سيّد، أيمن (١٩٩٧). الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات. الجزء الأول. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. مصر. ص: ١٣.

قيل لورّاق وهو في النزع: "ما تشتهي؟ قال: قلمًا مشّاقًا وحبرًا برّاقًا وجلودًا رقاقًا" (عن: السامرّائي، قاسم (٢٠٠١). علم الاكتناه العربي الإسلامي. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض. السعودية. ط١. ص: ٢١.

الطبّاع، إياد (٢٠١١). المخطوط العربي: دراسة أبعاد الزمان والمكان. وزارة الثقافة. الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق. ص: ٦.

الحلوجي (٢٠٠٤). مرجع سابق. ص: ١١.

الحلوجي (٢٠٠٤). مرجع سابق. ص: ٢٤.

انظر موقع وزارة الثقافة والسياحة التركية: https://www.yazmalar.gov.tr/elyazmaciligimiz_ara.php?dill=ara

كليب، فضل، وفؤاد، عبيد (٢٠٠٣). المخطوطات والدليل العلمي والعملي لفهرستها. مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني. القدس. الطبعة الأولى. ص: ٢٧.

بنبين، أحمد شوقي، وطوبي، مصطفى (٢٠٠٥). معجم مصطلحات المخطوط العربي. الخزانة الحسنية. الرباط. المغرب. الطبعة الثالثة. ص: ٣٢١.

الحلوجي (٢٠٠٤). مرجع سابق. ص: ١٢.

سيّد (١٩٩٧). مرجع سابق. ص: ٥٠٩.

ويتفق مع هذا الرقم التقديري: القرني (٢٠٠٩). مرجع سابق.

عوّاد، كوركيس (١٩٨٢). أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم المكتوبة منذ صدر الإسلام حتى سنة ٥٠٠ هـ. وزارة الثقافة والإعلام. دار الرشيد للنشر.بغداد. ص: ٥.

بركات، بشير (٢٠٠١). حماية المخطوطات العربية من ملاكيها ومن عوادي الزمن. مقال منشور في صحيفة القدس الفلسطينية، بتاريخ: ٢٠٠١/٠٩/١٩م.

الحلوجي (٢٠٠٤). مرجع سابق. ص: ٢٣.

عوّاد (١٩٨٢). مرجع سابق. ص: ٥-٦.

سيّد (١٩٩٧). مرجع سابق. ص: ٥٠٩-٥١٠.

سيّد (١٩٩٧). مرجع سابق. ص: ٥١٠-٥١١.

سيّد (١٩٩٧) ج٢. ص: ٥١٠.

rare-arabic-manuscripts-in-foreign-countries/ (Seen at/١٥/٠٧/٢٠١٥/com/culture.http://raseef٢٢ (٢٠١٩/٠٩/٢٦)

الحنبلي، مجير الدين (١٩٧٣). الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. مكتبة المحتسب. عمّان. الأردن. الجزء الأول. ص: ٢٨١-٢٨٢.

لما قدم المهدي يريد بيت المقدس دخل مسجد دمشق ومعه كاتبه أبو عبد الله الأشعري، فقال له: يا أبا عبد الله سبقنا بنو أمية بثلاث. فقال: وهي يا أمير المؤمنين؟ فقال: بهذا البيت –لا أعلم على ظهر الأرض مثله، ونيل الموالي فإن لهم موالي ليس لنا مثلهم، وبعمر بن عبد العزيز لا يكون فينا مثله أبدًا. ثم أتى بيت المقدس ودخل الصخرة، فقال: يا أبا عبد الله وهذه رابعة (الحنبلي (١٩٧٣). ج١. ص: ٢٨٣).

الحنبلي (١٩٧٣). الجزء الأول. مرجع سابق. ص: ٢٨٥-٢٨٢؛ العسلي، كامل (١٩٨١). معاهد العلم في بيت المقدس. الجامعة الأردنية. عمان. ص: ٢٩٨-٢٩٩.

هو "محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي". اسم العائلة: الغزالي. ومشهورٌ بـ: الغزالي. مولده: بالطابران من قرى طوس بإقليم خراسان عام ١٠٤٨م، ووفاته: أيضاً بالطابران: طوس بالقرب من مدينة مشهد في شمال إيران (١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥هـ/١٧ كانون الأول ١١١١م. انظر الموقع الالكتروني: http://www.ghazali.org/site-ar/gz-default-ar.htm

أنظر: الحنبلي (١٩٧٣). الجزء الأول. مرجع سابق. ص: ٢٩٩.

انظر أيضًا: المقدسي، شهاب الدين (١٩٩٤). مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام. تحقيق: أحمد الخطيمي. دار الجيل. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. ص: ٣٦٣.

الحنبلي (١٩٧٣). الجزء الأول. مرجع سابق. ص: ٣٠٤-٣١٠.

الخالدي، سمية محيي الدين (٢٠١٨). مدارس القدس من العهد المملوكي إلى الانتداب البريطاني. جمعية قرية المعلمات. القدس. ص: ١٠.

شهاب (٢٠٠١). مرجع سابق.

بركات، بشير (٢٠١٢). تاريخ المكتبات العربية في بيت المقدس. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض. المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى. ص: ١٣-١٤.

بركات (٢٠١٢). مرجع سابق. ص: ١٥-١٦.

بركات، (٢٠١٢). مرجع سابق. ص: ٢٥-٣٦، ص: ١٤٤.

كليب وعبيد (٢٠٠٣). مرجع سابق. ص: ٢٩.

بركات، (٢٠١٢). مرجع سابق. ص: ٢٥-٣٦، ١٤٤.

بركات (٢٠١٢). مرجع سابق. ص: ٣٣-١٢٤.

العسلي (١٩٨٩). وثائق مقدسية تاريخية - المجلد الثالث. ص: ٨٦.

بركات (٢٠١٢). مرجع سابق. ص: ٣٣-١٢٤.

بركات (٢٠١٢). مرجع سابق. ص: ٣٣-١٢٤.

وفق أعدادها من دراسة (بركات (٢٠١٢). ص: ٥٦)، بالإضافة إلى مخطوطات مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية-بيت المقدس (ميثاق)؛ باعتبارها مكتبة مقدسية -مسجلة في القدس-.

بركات (٢٠١٢). نفس المرجع. ص: ١٩.

دائما يكون عدد المخطوطات أقل من عدد العناوين؛ لأن هناك العديد من المخطوطات التي تضم عنوانين فأكثر.

هذا الجدول مقتبس من (بركات (٢٠١٢)) مضافًا إليه مخطوطات مؤسسة إحياء التراث، التي أنشئت في القدس.

لم يتم استكمال تصنيفها حسب القرون حتى اللحظة، ولكن العدد الإجمالي للمخطوطات الأصلية في هذه المؤسسة هو (٦٥٠) مخطوطة. صرحت بذلك مسؤولة قسم المخطوطات عند مقابلتها بتارخ: ٢٠١٦/٠٩/٠٤م.

الشّنْطِي، عصام (٢٠٠٩). المكتبة الخالديّة في القدس -الحراك التراثي في قلب المدينة. مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد (٥٣)، الجزء الأول. ص: ١٠١-١١٧؛ الأنصاري، فهمي (٢٠١٥). مكتبات القدس شاهد على عروبتها -المكتبات الإسلاميّة-. مجلة اللقاء. السنة الثلاثون. العدد الثاني والثالث. ص: ١١٦-١٢٤.

نُقلت بعض مخطوطاتها إلى المكتبة الخالديّة، وبعضها الآخر إلى دار الكتب في دمشق.

توفي عبد الله مخلص عام ١٩٤٧م، كانت مكتبته تضم ما يزيد على ثلاثة آلاف مجلّد، منها (١١٠) مخطوطات. في أجواء النكبة، نقلت الكتب والمخطوطات إلى دير القربان، الذي تم تدميره من قبل عصابات الصهاينة، قاصدين المكتبة فيه؛ فضاعت عن بكرة أبيها (عن: الشّنْطِي (٢٠٠٩)).

قراءات في المشهد الانتخابي الإسرائيلي

سياسة الفصل العنصري وحزب الجنرالات الستة
«الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة ومسار المفاوضات الفلسطينية»

شذى يحيى*

"تستطيع أن تلغي كل شيء القبعات والأحزمة والألوان، والإفراط في الشرب والأغاني، أما السيف فلا يمكن إلغاؤه، عليكم أن تحتفظوا بالسيف لإن الإقتتال بالسيف ليس أفكاراً ألمانية بل إنه ملك لأجدادنا الأوائل، إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء"

"إن إسرائيل لا تستطيع أن تعيش إلا بالقوة والسلاح"

زئيف فلاديمير جابوتنسكي (١٨٨٠ -١٩٤٠)

في العاشر من أكتوبر أعلنت الأكاديمية السويدية حصول الكاتب النمساوي بيتر هاندكه على جائزة نوبل في الآداب للعام٢٠١٩م الجائزة الأرفع على مستوى العالم، كان الإعلان بمثابة الصدمة لكثير من الأوساط الأدبية والحقوقية بل والسياسية ليس لأن الكاتب هو واحد من القلائل الذين احتضنوا واعتنقوا الفكر القومي للسفاح الصربي "سلوبودان ميلوسيفيتش"، هاندكة أنكر حدوث مذابح سربرنيتشا ودافع عن التطهير العرقي الذي قام به الصرب بل وشبه مصير صربيا بمصير اليهود خلال الهولوكست رغم اعتذاره السابق عما وصفه بزلة لسان، محامو ميلوسيفيتش طلبوا شهادة هاندكة أثناء محاكمته في لاهاي وهو لم يحضر وأكتفى بزيارته في السجن ولكنه فاجئ الجميع بالحضور بعد ذلك في جنازة السفاح، فوز المتطرف

* كاتبة وباحثة من مصر

العنصري بالجائزة والذي رآه هو قراراً شجاعاً جداً ورآه الكثيرون خطوة أخرى في طريق انتكاسة الجائزة التي أصبحت تحوطها الشبهات والتي تعهدت لجنتها بالتخلص من سلبيات التحيز للرجال والعنصرية للأدب الأوروبي وللأفكار المتطرفة بإختيارها لهاندكة ومن قبله الصهيوني العنصري بوب ديلان العام٢٠١٦م الذي غنى للجنود الإسرائيليين وأقام فترة في الكيبوتسات الصهيونية في الأرضي المحتلة تعلن عن إنحيازاتها العنصرية الواضحة ويمينيتها المتطرفة ضد الأطراف الأضعف في العالم وبوجود ترامب على قمة السياسة الأميركية وبوريس جونسون كرئيس لوزراء بريطانيا والكثيرين غيرهما يبدو أن العالم بأكمله يتجه يميناً ومن أكثر فهماً للمتطرف العنصري إلا متطرف عنصري مثله حتى ولو بشكل آخر وبالطبع فإن دولة الإحتلال العنصرية الأخيرة في العالم إسرائيل لن تخرج من هذا النطاق، فالكيان الذي يشهد أزمة في إنتخاب سلطة تنفيذية ويبدو أنه على شفا الانتخابات الثالثة في أقل من عام لاختيار رئيس وزراء جديد يشهد صراعاً بين متنافسين يتسابق كل منهم في تقديم نفسه للمجتمع الإسرائيلي على أنه الأكثر عنصرية وامتهاناً وانتهاكاً لحقوق الفلسطينيين.

في تسعينات القرن الماضي منذ أكثر من عشرين سنة وإتفاقية أوسلو مباشرة كان الناخب الإسرائيلي يعرف أين يقف برنامج اليسار كان يتلخص في "أعطي الفلسطينيين دولتهم المستقلة وفي المقابل هم سيعطون الإسرائيليين أكثر مايرغبون فيه ويسعون إليه أن يكونوا منفصلين ومنعزلين عنهم وان يتركوا وشأنهم فإنتهاء الإحتلال ولو حتى ظاهرياً من الممكن أن يجلب السلام"، بالطبع رواية اليمين كانت مختلفة في أشد نسخها تطرفاً كانت تنص على أن "الأرض التي يطالب بها الفلسطينيون لتكون دولتهم التاريخية هي العمق والمساحة الأصلية لإسرائيل التاريخية كما أنها لازمة لضمان أمن إسرائيل ولذلك فمن غير المطروح التخلي عنها"، على الأخص المرتفعات في الضفة الغربية والتي هي بمثابة الحماية للكتل السكانية في داخل أرض ١٩٤٨م كما أن هذه الدولة الفلسطينية ستكون بمثابة شطر إسرائيل في حالة وقوع أي حرب محتملة وأن مرتفعات الضفة على الأخص لابد أن لاتقع في في أيدي الفلسطينيين قوميين كانوا أو إسلاميين، الجمهور الإسرائيلي كان يتأرجح تقليدياً بين الروايتين على مدار التسعينات فقد تبادل اليمين واليسار مقعد السلطة في انتخابات أعوام ١٩٩٢م، ١٩٩٦م، ١٩٩٩م، و٢٠٠١م.

لكن الأمر تغير مع بداية الألفية الثانية فالأعمال الاستشهادية في الداخل الإسرائيلي وتصاعد حدة

الانتفاضة الثانية وصدمة الانسحاب الإسرائيلي من غزة العام ٢٠٠٥م وقيام حماس بعد ذلك بعامين بالسيطرة على القطاع ورفض إقامة إنتخابات تغيرت قناعات الناخب الإسرائيلي وأزدادت مخاوف الكثير من الناخبين الذين كانوا يؤمنون بعدم جدوى الحل الأمني ويتبنون خطط اليسار في الحل السلمي أصبحوا يرون بأنه لاجدوى من الانسحاب من الأراضي الفلسطينية بل أن هذا الانسحاب يشكل خطراً على إسرائيل فحال النخب السياسية الفلسطينية بوضعها الحالي لا يسمح بالقدرة على تحقيق السلام والأمن وأن الانسحاب معناه افساح المزيد من المجال للإرهاب.

زعيم اليسار الحالي آفي جابي لا يتكلم عن السلام بل عن الفصل بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

الحملة الدعائية لكل من حزبي الليكود وحزب أزرق أبيض الوليد والذي تأسس في فبراير وهما اللاعبان الأساسيان في الانتخابات اليوم تركز على أي من الطرفين هو الأقل تطرفاً وأيهما الأكثر، وأن الحزب غير الممعن في التطرف يشكل خطراً على الأمن القومي لإسرائيل بل على وجودها من أساسه، حملة الليكود بقيادة ناتنياهو وجهت النظر أن منافسه بيني جانتز من أزرق أبيض عسكري ذو ميول يسارية قديمة تعود لزمن التسعينات إضافة إلى مثالية العسكريين التي تفقدهم القدرة على المناورة السياسية والتعامل مع التقلبات والتغيرات الدولية مما يشكل خطراً على مصالح إسرائيل إضافة لذلك فإن نتنياهو اتهم خصمه بالاستعداد للتعاون مع الأحزاب العربية في الكنيست ليتمكن من الوصول للحكم، بيني جانتز وحليفه يائير لابيد يساريان مساندان للعرب هذا هو ملخص خطاب نتنياهو، في المقابل وجهت حملة جانتز نفس الاتهامات لنتنياهو مركزة على سعي نتنياهو الدائم والحثيث لدعم إقتصاد غزة لكي يحول دون سقوط حماس بحجة أن سقوط هذا النظام معناه حلول الفوضى في القطاع والإضرار بأمن إسرائيل كما أن جانتز إتهم نتنياهو بالخضوع للضغوط الدولية والتساهل في المطالب الفلسطينية بسيطرة أكبر على الحرم المقدسي بعد سلسلة من موجات العنف في الأماكن المقدسة كما اتهمه بأنه كان أحد الأسباب في تفاقم مشكلة قطاع غزة بسبب تصويته المؤيد للإنسحاب في الكنيست منذ حوالي الخمسة عشر عاماً، في العموم ركزت حملة أبيض أسود على أن نتنياهو رئيس وزراء ضعيف ويساري متخفي دائماً ما يستسلم مع أول بادرة عنف من الفلسطينيين، على عكس ذلك يقدم أزرق أبيض بيني جانتز مرشحه ومنذ إعلانه التلفزيوني الأول على أنه الرجل الذي سوى غزة بالأرض الإعلان حافل بمشاهد جنائز الشهداء ومنازل

المدنيين المهدمة ثم تجيء الأرقام لتعلن أن الجنرال العتيد مسؤول عن مقتل ١٣٦٤ ممن أسماهم جنود الميليشيات في غزة الإعلان الذي يتحدث عن حرب غزة الثانية العام٢٠١٤م والتي كان جانتز يقود الجيش الإسرائيلي فيها بصفته رئيساً للأركان في عملية استغرقت حوالي الخمسين يوماً وأسفرت عن مقتل ١٤٦٢ مدنياً من ضمن ٢٢٥١ قتيلاً طبقاً لإحصاءات الأمم المتحدة وقد حاولت العديد من المنظمات توجيه تهم جنائية بجرائم حرب لجانتز وغيره من القادة الإسرائيليين ولكن الجيش الإسرائيلي أصر على أن جنوده حاولوا تقليل الإصابات بين المدنيين قدر الإمكان وان حماس هي الملومة لإخفاء مقاتليها وسط الكتل السكانية وقد نال جانتز انتقادات واسعة لفشله في القضاء على الأنفاق التي تستخدمها حماس في القيام بعمليات فدائية في عمق أراضي ١٩٤٨م، جدير بالذكر أن هذه ليست حرب جانتز الأولى على غزة فقد قاد أيضاً حرب العام ٢٠١٢م على القطاع والتي استمرت لبضعة أيام وأسفرت عن مقتل ١٧٤فلسطينياً ١٠١ منهم من المدنيين وهو يحمل لقب أكبر حام لإسرائيل الذي أطلقته عليه وسائل الإعلام كما أنه من الوجوه الأكثر قبولاً لدى الرأي العام الإسرائيلي في المؤسسة العسكرية التي تحظى باحترام مهول في المجتمع وإن شابت سمعتها بعض الشوائب في الفترة الأخيرة، جانتز الذي يبلغ من العمر ٦٠عاماً يحلم على حد قوله بتوحيد الأمة التي فقدت بوصلتها ولد العام ١٩٥٩م في كفار أحيم وهي مزرعة تعاونية من النوع الذي تقوم فلسفته على يد تمسك المحراث والأخرى تمسك البندقية لأبوين أوروبيين هما ناحوم وملكة الناجيان من محرقة الهولوكست، صاحب العقيدة العسكرية الصهيونية المتعصبة يفخر بأنه كان المكلف بحراسة السادات في زيارته للقدس وبأن لديه تاريخ دموي في الحروب الإسرائيلية على لبنان كما انه كان قائد القوات البرية التي أمنت الجسر الجوي الذي نقل يهود الفلاشا من أثيوبيا للأراضي المحتلة في عملية استغرقت ٣٦ساعة في مايو١٩٩٩م، كما أنه قاد فرقة يهوذا التي قمعت مظاهرات الخليل بعد ارتكاب جولد شتاين مذبحة الحرم الإبراهيمي والتي راح ضحيتها ٢٩من المصلين العام ١٩٩٤، وفي العام١٩٩٩م كان الضابط الأعلى رتبة في عملية اجتياح جنوب لبنان وهو يفخر بأنه كان الجندي الأخير الذي يخرج من الجنوب اللبناني على حد زعمه فإنه هو من أغلق البوابة الحدودية بيديه بعد رحيل آخر جندي العام٢٠٠٠م، وفي نفس العام عين القائد العام العسكري لمنطقة يهوذا والسامرة (الضفة الغربية) وبدأ عمله قبل أيام معدودة من اندلاع الانتفاضة الثانية ضد الإحتلال الإسرائيلي وبعد ذلك شغل منصب

قائد القوات الأرضية في حرب٢٠٠٦م ضد ميليشيات حزب الله في جنوب لبنان وهي الحرب التي أشعلت غضب الرأي العام الإسرائيلي من السياسيين والعسكريين على حد سواء واعترف جانتز أنها كانت حافلة بالنجاحات والأخطاء على حد سواء، في العام ٢٠٠٧م شغل جانتز منصب مساعد رئيس الأركان في الجيش الإسرائيلي ليترقى في ٢٠١١ لمنصب رئيس الأركان العشرين لجيش الدفاع بعد خلاف بين ايهود باراك وزير الدفاع في تلك الفترة وبين الجنرال جابي اشكنازي رئيس الأركان دفعت باراك لإقالة اشكنازي وتصعيد جانتز والذي خرج من الخدمة العام٢٠١٥م بعد تكريمه.

حزب أزرق أبيض يضم في عضويته ثلاثة من رؤساء الأركان السابقين هم جابي أشكنازي وموشيه يعالون الذي كان واحداً من أبرز مساعدي نتنياهو وشغل منصب وزير الدفاع وشاؤول موفاز،إلى جانب رئيس المخابرات العسكرية الأسبق عاموس يادلين والحاكم العسكري السابق لقطاع غزة آفي مزراحي من قبل إضافة لجانتز وسكرتير مجلس الوزراء الإسرائيلي الأسبق زيفي هاوزر والمعروف عنه أنه من أكثر السياسيين الإسرائيليين تطرفاً إضافة لمسؤول العلاقات العامة الأسبق لنتنياهو ياووز هندل، كذلك أورنا باربيفاي أول إمرأة تصل لرتبة ماجور جنرال في الجيش الإسرائيلي والتي ظهرت بعد توجيه تهم عديدة للحزب بتجاهل وتهميش النساء، ويائير لابيد وزير الإقتصاد الأسبق وحليف جانتز الرئيسي لابيد هو الوجه الأكثر مدنية في الحزب فالرجل الذي ولد العام١٩٦٣م هو سياسي وصحفي ومقدم برامج تلفيزيونية وأيضاً مؤلف صدر له أحد عشر كتاباً وظل لتسعة عشر عاماً يكتب عموداً ثابتاً ينتقد فيه الأوضاع الإجتماعية للطبقة الوسطى والقضايا الإجتماعية عموماً، هو مؤمن بحل الدولتين مع الحفاظ على الكتل الاستيطانية الكبيرة ضمن الحدود والسيادة الإسرائيلية ولابيد معروف بمواقفه العنصرية ضد المواطنين العرب فعندما كان وزيراً للإقتصاد قدم مشروع قانون لحل أزمة السكن من خلال إعفاء ضريبي وكان إقتراحه يشمل استثناء العرب من الإنتفاع بالقانون كما أنه رفض الجلوس في مقاعد المعارضة في الكنيست بجوار الأعضاء العرب.

وقد أوضح لابيد رؤيته السياسية في بداية دخوله لمعترك السياسة في مقال نشر في الثالث عشر من كانون الثاني ٢٠١٤م في صحيفة يديعوت أحرونوت بعنوان "لماذا قررت دخول معترك السياسة" كتب فيه "أنا وطني إسرائيلي ويهودي وصهيوني كل مواقفي تنبع من هذا الثالوث"،

وأضاف "أنا في الطريق إلى السياسة لأني أعتقد أن نوع الخطاب الجاري في إسرائيل يقود هذه الدولة إلى الضياع وأنا أريد أن أحاول تغييره ربما هذه مهمة طموحة جداً لكن هل كان جديراً بي أن أترك الكرسي المريح في (استوديو الجمعة) من أجل شيء غير طموح".

أستاذ العلوم السياسية داني غوطفاين علق على برنامج لابيد السياسي المعلن في٢٠١٤م بأن "لابيد يدعو لإخلاء المستوطنات التي لاجدوى منها من خلال تعامل نزيه من المستوطنين لكنه يتبنى الفرضيات الأساسية في حكومة نتنياهو وهو يؤيد إقامة دولة فلسطينية ليس هذا سيجلب السلام وإنما لأنه سيكون أسهل بكثير في إدارة الصراع "،لابيد هو الذي حدد شروط حزب أزرق أبيض الأربعة في التفاوض مع السلطة الفلسطينية في مارس ٢٠١٩م وبلورها في الآتي:

بقاء غور الأردن في يد إسرائيل وتحت السيادة الإسرائيلية.

لا توجد حقوق لفلسطينيي الشتات.

القدس غير المقسمة بكل أجزائها هي عاصمة إسرائيل الأبدية.

التفاوض إذاً سيكون على مايشبه الحق في الحياة أو الوجود، أما الشروط فتبدو وكأنها مانفيستو أيدولوجي لحزب صهيوني قومي متطرف لايوجد معتدلون في إسرائيل الكل يعتنق رؤية جابوتنسكي لحد السيف، الخلاف هنا ليس على الأهداف بل على وسائل تحقيقها فيما يختص بالموقف من الفلسطينيين أما الخلافات الجوهرية فتخص الداخل الإسرائيلي.

هذا عن الشخص المدني في الحزب وإن كان لايمكن أن يطلق عليه مدني تماماً فإسرائيل كلها حتى لو قدمت نفسها للعالم على أنها ديمقراطية فإنه يطلق عليها مصطلح ديمقراطية المعسكر، هي كما وصف بن جوريون شعبها "شعب المحاربين"، وقال عنه بيجن "نحن نحارب إذن نحن موجودون"، أما عن الأشخاص ذوي الخلفية العسكرية في أزرق أبيض فهم يستمدون أفكارهم من عقيدة أن المؤسسة العسكرية هي المنظم الأكبر والأشد أهمية في إسرائيل ومن الإحترام الذي يكنه لها المجتمع ولقدراتها التنفيذية العالية ومن المكانة التي تمنحها لها العقيدة والتراث الثقافي اليهودي وفلسفة الصهيونية التي تركز على أهمية القوة والقتال في تحقيق أهداف الدولة ويلقون العبء بالكامل على استخدام القوة وكفاءة النخبة العسكرية

في إدارة أي صراع وحسمه، ولذلك فليس من الغريب أن يرى الجنرالات اليوم أنهم منوط بهم أيضاً إنقاذ المجتمع الإسرائيلي من الإنهيار، المفكر السياسي بيرلميوتر يصنف الجيش الإسرائيلي في خانة الجيش الثوري المحترف مثله مثل الجيش الصيني يعتبر الجندي فيه أنه أداة حركة أيدولوجية هي الصهيونية وجزء من جماعة عسكرية تخدم التوجه الصهيوني لذلك انخرط العديد من جنرالات جيش الدفاع الإسرائيلي في الحياة السياسية وأحرز ١١منهم مقاعد في الكنيست وعشرة تسلموا مقاعد وزارية وأثنين من وزراء الدفاع اسحق رابين وايهود باراك شغلوا منصب رئيس الوزراء.

اليوم يستنفر ضباط الجيش الإسرائيلي ضد رئيس الوزراء وهم الذين يرون أنه يدمر قيم اسرائيل الديمقراطية ويضحي بالحلم الصهيوني بتجاهل حل الدولتين. في العام٢٠١٥م صرح مدير الشين بن الأسبق يوفال ديسكين "إن إسرائيل تتحرك نحو حقيقة مستحيلة دولة متعددة القوميات وإنتهاء الحلم الصهيوني بدولة يهودية ديمقراطية في قلب دولة إسرائيل"، أيضاً رئيس الموساد الأسبق تامير باردو أوضح العام٢٠١٦م "أن الخطر الوجودي على إسرائيل هو في الداخل وليس الخارج، هذا الخطر دفع ٣٠٠ ضابط متقاعد من الجيش الإسرائيلي والبوليس والشين بن حاصلين على رتبة جنرال أو أعلى لتشكيل حركة قادة من أجل إسرائيل Commanders for Israel العام٢٠١٤م بهدف واضح هو الحفاظ على خيار حل الدولتين والحفاظ على هوية إسرائيل كديمقراطية يهودية وأيضاً دفعت إيهود باراك أكثر جنود إسرائيل تقلداً للأوسمة للعودة للساحة السياسية بعد ستة أعوام من الاعتزال وهو في عامه السابع والسبعين رغم ضعف وإنهيار اليسار الإسرائيلي الذي ينتمي إليه رئيس الوزراء الأسبق في الفترة من١٩٩٩م ل٢٠٠١م، حيث رأى أن مستقبل إسرائيل على المحك هو ومستقبل الحركة الصهيونية بسبب الفساد والتراخي ويدعم باراك أيضاً رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق يائير جولان، نتنياهو يواجه اليوم حائطاً حديدياً من جنرالات الجيش الإسرائيلي على اختلاف اتجاهاتهم يحاولون التخلص منه بسبب تهم الفساد التي تحاصره وللحفاظ على نقاء الدولة اليهودية الخالصة التي يرون أنه أصبح خطراً عليها، لكنهم لم ينجحوا حتى الآن في إزاحة نتنياهو الذي توالت إخفاقاته من مايو وحتى الانتخابات الحالية في تشكيل حكومة أو تحقيق الإستقرار لكنه مازال متمسكاً بزعامة الليكود وبرئاسة الوزراء لأن الكثيرين مازالوا يعتبرونه

الورقة الرابحة في تحقيق أمن إسرائيل كما أنه يقدم نفسه للناخب على أنه خبير في العلاقات الدولية وليس أدل على ذلك من أن مبنى الليكود يغطيه من الجانبين ملصقين دعائيين أحدهما لنتنياهو وهو يصافح بوتن والآخر وهو يصافح ترامب ومحاولته مقابلة الإثنين أثناء فترة الدعاية الانتخابية واعتذارهما، نتنياهو أيضاً أطلق هو ووزير خارجيته يسرائيل كاتس في بداية أكتوبر مبادرة وصفها بالتاريخية لعدم الاقتتال بين إسرائيل ودول الخليج في خطوة لتطبيع العلاقات فيما أسمته وزارة الخارجية الإسرائيلية في بيانها بمبادرة تاريخية تنهي الصراع وتمهد الطريق لتعاون مدني حتى التوقيع على اتفاقية السلام، وذكرت هيئة البث الإسرائيلية أنها علمت أنه قد تم الإتفاق مع دول الخليج على تشكيل طواقم مشتركة لدفع المبادرة قدماً في إطار يتمحور حول المصلحة المشتركة لدول الخليج وإسرائيل في لجم إيران والتصدي لنفوذها في المنطقة وحشد هذه المصلحة من أجل تطبيع العلاقات في مجالي مكافحة الإرهاب وتحسين الاقتصاد وذلك من خلال إدراك أنه من المستحيل في هذه المرحلة إبرام اتفاقية سلام كاملة بسبب النزاع الفلسطيني الإسرائيلي، نتنياهو يقدم نفسه بهذه المبادرة للناخب الإسرائيلي كرجل سياسة محنك قادر على تحجيم الخطر الإيراني الذي يتخوف منه العسكريون وأيضاً على تحقيق رخاء اقتصادي تحلم به الأجيال الجديدة من المجتمع الإسرائيلي لم تعد الحرب تهمهم واصبح لديهم يقين أن مسألة الوجود لم تعد محلاً للخوف أو للشك واحتلال الأراضي الفلسطينية أصبح بمثابة المسألة العادية بالنسبة للمواطن الإسرائيلي ووجود ملايين الفلسطينيين محتجزين في رقعة صغيرة من الأرض تحت الهيمنة والسيطرة اليهودية هي بمثابة الشيء الطبيعي بالنسبة لهم فهذه الحقيقة مخفية وراء الأسوار العازلة لا تمس حياتهم بصلة مباشرة مجرد مشاهدات على شاشات التلفاز مثل بقية العالم الذي يشاهده، ما يشغل المواطن الصهيوني هو اتهامات الفساد التي وجهها النائب العام لنتنياهو ومسائل الحياة اليومية الإقتصادية والإجتماعية كالغلاء وارتفاع أسعار السكن والتعليم والضرائب، وامتيازات الحريديم التي يدفع ثمنها العلمانيون، وسيطرة الجهات الدينية أكثر بكثير من مسألة الحل مع الفلسطينيين، المجتمع الإسرائيلي يبدو وللوهلة الأولى مجتمعاً عادياً تشغله قضايا عادية وليس مجتمعاً من المحاربين أو مجتمعاً تحت الخطر وبالتأكيد لا يشغل باله على الإطلاق كونه كياناً مستعمراً من الممكن أن يواجه بمقاومة.

في استطلاع أجرته صحيفة تايمز أوف إسرائيل Times of Israel في أوائل العام الحالي٢٠١٩م أجمع ٤٦٪ من الإسرائيليين أن ما يهمهم من الحكومة الجديدة هي كيفية تعاملها مع قضايا الاقتصاد وتكاليف المعيشة والسكن والوظائف والبطالة، ١٧٪ فقط إختار قضايا الفساد رغم الاتهامات المعلقة على رأس نتنياهو، و١١٪ اختاروا العلاقة مع الفلسطينيين والأمور الخارجية وعملية السلام التي تتجاهل الأحزاب الإسرائيلية في عمومها الحديث المباشر والصريح عنها منذ أكثر من عقد من الزمان فالضفة الغربية وغزة تحولتا لشيء تجريدي بالنسبة للإسرائيليين، فأغلبيتهم تدرك أن هناك شيئاً ما يحدث له علاقة بعيدة بهم في مكان يكاد يكون خيالياً والقنابل والعمليات الفدائية اختفت من الشارع الإسرائيلي منذ زمن بعيد، الحياة بشكل عام جيدة بالنسبة للاسرائيليين وتقارير الأمم المتحدة تؤكد أن اليهود في إسرائيل هم من أسعد وأكثر الناس صحة في العالم على العكس من الجيران في غزة الذين هم الأكثر فقراً والأعلى كثافة في الكيلومتر المربع والأقل تلقياً للرعاية والخدمات الصحية بالطبع فإن سؤال على حساب من نحن سعداء وأصحاء ؟!! لايكاد يخطر أو يمر على ذهن المواطن والجدر العازلة والطرقات السريعة المعزولة التي تمر فوق القرى العربية هي بمثابة المحددات للبلد نفسه وفي مدن كبرى مثل تل أبيب وهي المدينة التي يسكنها أربعة من بين كل عشرة إسرائيليين فإن الاحتلال والآخر الفلسطيني يبقى غير مرئي، التهميش والجهل واللامبالاة هو عنوان المواطن الإسرائيلي فيما يختص بالظروف التي يعيش فيها الفلسطينيون، والحكومات المتتابعة ووسائل الإعلام تتحكم في الرأي العام وتتعمد إغفال كل ما يختص بالفلسطينيين، على سبيل المثال فإن المدن الفلسطينية كأم الفحم والناصرة محذوفة تماماً من خريطة الطقس في نشرات الأخبار وبالرغم من الحرص الإسرائيلي على محو كل علامات ما كان يعرف بالخط الأخضر أو حدود١٩٤٨م ومحو كل أثر للبلدات الفلسطينية التي هجرت وهدمت وذلك بزعم التشجير وزراعة الغابات بدعوى أن إسرائيل هي ديمقراطية خضراء تهتم بالبيئة على الرغم من ان المصانع الإسرائيلية المقامة على مرتفعات الضفة الغربية تصرف مخلفاتها في الأودية الفلسطينية وأيضاً تقوم بالإستخدام الجائر للمياه الجوفية وتحرم الفلسطينيين من حصتهم من المياه وكذلك منع الإسرائيليين تماماً من النزول إلى المدن الفلسطينية بدعوى الحفاظ على سلامتهم الشخصية حتى أن إثنين من كل خمسة إسرائيليين من سن ١٨ل٢٩سنة لديهم قناعة أن إسرائيل قد ضمت الضفة الغربية بالفعل فإن ثلاثة فئات تبقى مدركة وقلقة من

أن هناك وجوداً فلسطينياً يشكل خطراً من وجهة نظرهم على وجود إسرائيل وأنه يجب إزالة هذا الوجود مع اعتبار ان واحداً من كل اثني عشر إسرائيلياً وواحداً من كل تسعة يهود يعيشون اليوم في المستوطنات المقامة في الضفة الغربية وحول القدس في مقابل واحد من كل ثلاثمئة يهودي يعيش في المستوطنات العام١٩٧٢م، رغم ذلك فإن بيني جانتز رئيس أزرق أبيض يرى أن الفلسطينيين الذين يعيشون في الضفة الغربية تحت الاحتلال الإسرائيلي (جانتز كان الحاكم العسكري للضفة الغربية لفترة من الوقت) يجب أن يعتبروا أنفسهم محظوظين فأفضل مكان لك لتعيش فيه عندما تكون عربياً في الشرق الأوسط هو في الضفة الغربية التي تدخل هذا العام عامها الثاني والخمسين تحت الحكم الإسرائيلي وكذلك الأمر بالنسبة لقطاع غزة والقدس، وهو العام السادس والعشرين لفشل اتفاقية أوسلو والثاني عشر لفرض الحصار على غزة، اليوم مع وجود الجدار العازل الذي يعزل اغلب التجمعات الفلسطينية عن أراضي ١٩٤٨م ووصول عدد المستوطنين ل٦٠٠ألف مستوطن يعيشون في مئتي مستوطنة غير قانونية تكاد تلتهم مساحة الضفة الغربية والقدس الشرقية، ومع نقل دونالد ترامب سفارة الولايات المتحدة للقدس دون رفع إصبع احتجاج، ومع الإقرار الضمني من العديد من القوى الدولية بالهيمنة الإسرائيلية على غور الأردن ووعد نتنياهو بالضم النهائي للأراضي الفلسطينية وتأكيد جانتز على أنه ضرورة استراتيجية استقرت اسرائيل في وضع مريح لها تماماً كدولة فصل عنصري متجاهل على المستوى الدولي.

ومع وجود ستة ملايين ونصف المليون يهودي في المستوطنات وداخل أراضي ١٩٤٨م والقدس المحتلة لهم حق التصويت يصوت أغلبهم لليمين وواحد ونصف المليون عربي في أراضي ١٩٤٨م يحق لهم التصويت بينما يمنع أربعة ملايين وثمانمئة وثمانين ألف آخرين في الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية من التصويت ضمنت إسرائيل وضعاً مريحاً في رعاية مصالحها دون أثر يذكر للفلسطينيين قادر على تغيير الموقف واقتصرت آمال فلسطينيي الداخل على تحسين أحوالهم المعيشية والاعتراف بحقوقهم التي ترفضها اسرائيل ولهذا كانت الدولة الواحدة هي بمثابة الكارثة بالنسبة للعسكريين لأن معناها إمكانية الإخلال بهذا التوازن في إطار إعطاء الفلسطينيين حق المواطنة، وقد حذر جانتس بوضوح بأننا "لن نسمح لملايين الفلسطينيين الذين يعيشون في الجهة الأخرى لجدار الفصل بتهديد أمتنا وهويتنا كدولة يهودية"، صحيفة

هآرتز ذكرت تعقيباً على تصريح جانتز بقولها "انتخبوني أنا أكثر شراً من نتنياهو لكنني نظيف " واصفة إياه بأنه مرشح اليمين البائد وحذرت صحيفة الجيروزاليم بوست في نفس الإطار من وصف الحزب الجديد بالتقدمي فقد يكون تقدمياً فيما يختص بدور الدين في الحياة الاجتماعية وفي القضايا العلمانية وحقوق الشواذ لكن فيما يختص بهوية الدولة والنزاع العربي الفلسطيني فالليكود وأزرق أبيض وجهان لعملة واحدة، والناخب الإسرائيلي الذي عادة ما يتعاطف مع اليسار فيما يختص بالمسائل الاجتماعية والرعاية الصحية عندما يتعلق الأمر بالأمن فإنه يصوت يميناً لذلك كان أمل تحالف لابيد المهتم بالقضايا الاجتماعية أنه بتحالفه مع جنرالات الجيش الأكثر تشدداً وحرصاً على الأمن فإنه سيتسنى له إزاحة نتنياهو من الصورة عن طريق تقديم طرح لحكومة علمانية وتأييد الزواج المدني وفتح المصالح التجارية وتسيير المواصلات العامة وتجنيد الحريديين في الجيش، أما في مسألة السلام والقدس واللاجئين ويهودية الدولة فالرأي هو الذي قاله جانتز إن الفلسطينيين يحصلون على حقوق أكثر من التي يحصلون عليها هم أو أي مواطن عربي آخر في أية بقعة من الشرق الأوسط رغم أنه هو نفسه من أعلن بكل فخر أنه الرجل الذي أرسل غزة لغياهب العصر الحجري واعتبر أن دعم نتنياهو لوجود حماس هو بمثابة دفع الأموال للمافيا، جانتز يرى أن الفلسطينيين حصلوا على حقوق أكثر مما يستحقون في ظل الحكم الإسرائيلي سواء فلسطينيو ١٩٤٨م الذين يشكلون حوالي ثلث تعداد الفلسطينيين الذين يعيشون فعلياً تحت الحكم الإسرائيلي وهم الوحيدون الذين لهم بعض حقوق المواطنة كحق الانتخاب والتمثيل في الكنيست، أو الفلسطينيون في مناطق السلطة وحماس الذين هم بالفعل حتى هذه اللحظة تحت مظلة السيادة الإسرائيلية الفعلية في الضفة والقطاع فإسرائيل هي من تتحكم بالحدود وجمع الضرائب والعملة والبنك المركزي وحتى مقايسات الكهرباء والماء وتملك حرية العمل العسكري في الأراضي الفلسطينية وحرية تحديد حق الحركة والتنقل داخل وخارج مناطق الضفة والقطاع، على سبيل المثال في العام٢٠١٨م رفضت سلطة الاحتلال ٥٤٪ من طلبات مغادرة القطاع حتى ولو لغرض العلاج وبعض الأسباب التي بررت بها الرفض كانت في غاية التعسف والغرابة من نوعية أن أحد أقارب طالب المغادرة قد انتقل للضفة من القطاع ورفض العودة مرة أخرى، أيضاً تسيطر إسرائيل على كميات الوقود ومواد البناء الداخلة للأراضي المحتلة بل وتتحكم في كميات المواد الغذائية الداخلة لقطاع غزة وتقننها طبقاً للسعرات الحرارية اللازمة لإستهلاك سكانه

وكانهم في سجن وذلك لتحافظ دائماً على الحالة الإقتصادية المتردية في القطاع، الحال في الضفة الغربية أسوأ فمجلس المستوطنات يسيطر على حوالي ٤٠٪ من مساحة الضفة ويحتفظ الجيش الإسرائيلي لنفسه بحق اقتحام المدن في أي وقت حتى في المناطق التي من المفترض أن السلطة تسيطر عليها بالكامل مثل رام الله مقر السلطة وأيضاً يخضع المواطنون في هذه المناطق للقانون العسكري الإسرائيلي رغم وجود آلية قضائية وتشريعية تخص السلطة، أي أن المواطن الفلسطيني يخضع لقانونين في نفس الوقت قانون السلطة وأحكام القانون العسكري١٠١ الإسرائيلي، على سبيل المثال في الفترة من العام١٩٦٧م للعام ٢٠١٣م فان حوالي ثمانمائة ألف مواطن فلسطيني يشكلون ٢٠٪ من سكان القطاع و٤٠٪ من نسبة الذكور البالغين فيه خضعوا للاعتقال ولو لمرة واحدة من قبل السلطات الإسرائيلية أما بالنسبة للأطفال فيتم اعتقال من خمسمائة إلى سبعمائة طفل سنوياً لا يتجاوز سن بعضهم الإثنى عشر عاماً وهم يغمون ويضربون ويقبعون في الحبس الإنفرادي ويخضعون لعقوبات توقعها ما يعرف باسم محكمة الأحداث العسكرية وهي الوحيدة من نوعها في العالم، كذلك يوقع النظام الإسرائيلي عقوبة الإقامة الجبرية دون لائحة إتهام ودون محاكمات، إسرائيل تحتجز أكثر من أربعمائة وأربعة وخمسين فلسطينياً في الضفة والقطاع تحت الإقامة الجبرية ورغم أن المواطنين الفلسطينيين يحاكمون أمام المحاكم العسكرية الإسرائيلية ويمضون فترات الاحتجاز في سجون اسرائيلية إلا أن السلطة الفلسطينية ليس لديها أدنى حق في تقرير أي شيء يخص القوة ولا السلطة الإسرائيلية التي تمارس على ما يفترض أنه أراضيها ولا على أي شيء يخص النظام القضائي العسكري الإسرائيلي، أما فيما يختص بالقدس الشرقية التي احتلتها إسرائيل العام١٩٦٧م وتعرف في القانون الدولي بأنها جزء من الضفة الغربية على الرغم أنها ومنذ بناء جدار عزل يحيطها منذ العام١٩٨٠م فإنها شبه قد ضمت فعلياً لإسرائيل وأعطت السلطات الإسرائيلية سكان المدينة البالغ عددهم حوالي الثلاثمائة وسبعين ألف هويات كمقيمين دائمين في دولة إسرائيل مما يمكنهم من التصويت في الانتخابات المحلية البلدية وليس الانتخابات الوطنية، الشكل العام في الظاهر يوحي بأن إسرائيل تحاول فعل الصواب في الالتزام بعدم الضم الكلي للمدينة لكن الحقيقة بان ما تفعله هو نوع من الغش الذي يتيح التلاعب بحيث تحافظ دائماً على التفوق الديمغرافي في تعداد السكان اليهود بالمدينة ليظل دائماً يشكل سبعين في المائة أو أكثر من تعداد السكان وثلاثين في المائة عرب، وهذه السياسة تتطلب من العرب المقدسيين إثبات تواجدهم

الدائم في القدس إضافة لرفض السلطات الإسرائيلية الضم العائلي بكل أشكاله منذ العام١٩٦٧م وتذهب الإحصاءات إلى أن إسرائيل استطاعت التخلص من أكثر من أربعة عشر ألف مواطن مقدسي على مر الأعوام، الكنيست الإسرائيلي الذي ليس للمقدسيين أي تمثيل فيه أمضى العام٢٠١٨م بأكمله في صياغة بنية قانونية لتسهيل إقامة مستوطنتين ضخمتين تطوقان القدس مصممتان لاستيعاب مئة وأربعين ألف يهودي لتطويق المدينة وزيادة التلاعب الجغرافي بها مايؤكد عدم وجود أية نية لأية جهة في إسرائيل سواء الجيش أو الحكومة أو الكنيست لإنهاء الاحتلال أو لإحداث تغيير في المواقف، فالجيش الإسرائيلي الذي ينتمي إليه جنرالات أزرق أبيض هو من كان ينفذ سياسات الحكومات الإسرائيلية المتتابعة في الضفة والقطاع وأعضاء منه شغلوا منصب الحاكم العسكري الذي كان منوطاً به تنفيذ هذه السياسات، ولذلك ففي رأي محللة الرأي العام وخبيرة الانتخابات الإسرائيلية داليا شيندلين فإنه فيما يتعلق بالمسار الفلسطيني الإسرائيلي فإنه لا يوجد اختلاف كبير بين الحزبين الرئيسيين الليكود وأبيض أزرق على العكس فإن التشابه بينهما صادم.

فالمعادلة الإسرائيلية الخاصة باليسار واليمين والوسط لم تتغير منذ عقود فقط اليسار شبه خرج من المعادلة، ولذلك وفي إطار أن الاتجاه العام بالكامل يميل يميناً فإن حدوث تغيير في السياسة الإسرائيلية غير متوقع الخيارات محدودة في ظل أن الإحتمالية الوحيدة هي تشكيل حكومة من تحالفات يمين الوسط وإلا الدعوة للانتخابات للمرة الثالثة.

ولكن كل هذا لن يحدث أي فرق في الموقف الفلسطيني فطرفي التحالف الرئيسيين الليكود وأزرق أبيض، فيما يختص بالليكود وخلال عقد كامل من الحكم منذ٢٠٠٩م له اتجاه واضح من الشأن الفلسطيني رغم عدم التصريح به رسمياً، فخلال العقد الأخير ارتفع عدد المستوطنين في الضفة لحوالي ٤١٣٠٠٠ وأصبحت كل النقاط والمواقع الحيوية وعلى الأخص أغلب المرتفعات مغطاه بالمستوطنات، نتنياهو أعلن صراحة في أكثر من مناسبة أنه سيوسع من سلطاته في مناطق الضفة لحماية المستوطنات حتى الموجود منها في المنطقة ج ليلتهم بذلك حوالي ستين في المائة من مساحة الضفة الغربية كما أنه تعهد أمام حشد من المستوطنين المتطرفين في الخليل بالعمل على تهويد المدينة بأكملها والتخلص من الكتلة العربية كما تعهد بعدم إخلاء مستوطنة واحدة، بل وبالغ لدرجة نشر منشور عنصري على صفحته الرسمية على الفيسبوك يتحدث فيه

عن "العرب الذين يريدون القضاء علينا وتدميرنا جميعاً" حذفته إدارة بوك لعنصريته المفرطة واضطر المشرفون على الحملة لتبريره بان رئيس الوزراء لم يكن يعلم به وأنه قد تم محاسبة المسؤول عنه، هذا هو موقف الليكود أما موقف القادم الجديد أزرق أبيض فيأتي متواءماً تماماً مع خلفية مؤسسية فبداية موقف حزب أزرق أبيض ينبع من أن أعضاءه مصرون على أنهم دخلوا معترك السياسة مجبرين لإنقاذ إسرائيل، هم يقولون لقد شهد العقدان الأخيران استقطاباً متزايداً داخل المجتمع الإسرائيلي والرأي العام استقطاباً شديداً والأحزاب السياسية تمر بأسوأ حالاتها لذلك لابد من تدخل الجيش للإنقاذ.

اليوم جانتز كقائد لتحالف أزرق أبيض يعد بانه حال رئاسته للوزراء سيغير مسار سفينة الديمقراطية في دولة إسرائيل وينقذ البلاد من الإنقسام وفقدان البوصلة، وبالطبع فقد هدد جانتز إيران وأنذر القادة في قطاع غزة بأن لايختبروه مرة أخرى ولكنه وعد بالسعي للسلام وعدم تضييع فرصة لتحقيقه في ظل ثوابت إسرائيل وأهمها الأمن، كما تعهد جانتز بتحقيق الإنفصال الكامل عن الفلسطينيين ولكن ليس بشكل متهور ولاغير مسؤول أيضاً تعهد ببقاء أمن إسرائيل الأولوية الأولى في أية مفاوضات، كما تعهد أنه إذا قادت الولايات المتحدة أي مفاوضات نحو الحل النهائي فإنه سيحرص على ضمان حقوق وأمن إسرائيل، في العموم البيان العام لحزب أزرق أبيض يذكر باستراتيجية وزير الدفاع الأسبق موشية ديان في التعامل مع الفلسطينيين والتي تتلخص في ثلاثة نقاط :-

السلام الذي يمكن صنعه للآن هو سلام على المدى القصير .

لا يجب السماح للعرب بتعيين حدود إسرائيل .

من أجل قيام دولة يهودية لابد من إحلال سيادة محل سيادة ويهود محل عرب .

هو كحزب الليكود لا يصرح بالكثير لكن زعماءه واضحون في ضرورة الفصل الواضح بين اليهود والفلسطينيين ويتعهد الميثاق بالتالي :

"سندعم أحياء المستوطنين لنسمح بالحياة الطبيعية في كل مكان يعيش فيه إسرائيلي، غور الأردن سيكون الحدود الشرقية الطبيعية لدولة إسرائيل، نحن سندعم التطور الإقتصادي في أراضي السلطة الفلسطينية لإفساح المجال أمام مفاوضات مستقبلية مع وضوح أن القدس

الموحدة هي العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل ". مثله مثل الليكود لايوجد ذكر واضح لدولة فلسطينية أو لحل الدولتين كما أن جملة ضمان حياة طبيعية في كل مكان يعيش فيه إسرائيلي هو تصريح غامض ولا سابقة له، إنه يعني أن حدود سيادة إسرائيل يمتد ليس داخل حدودها الجغرافية ولكن في أي مكان يتواجد فيه إسرائيلي، الواضح أنها إشارة إلى أن الحزب سيسعى لمد مظلة القانون المدني الإسرائيلي إلى أماكن تواجد المستوطنين حتى خارج التجمعات الكبيرة، توسيع للكتل الإستيطانية وتطبيع الحياة في المستوطنات حتى خارج الكتل الكبرى مع التأكيد على التواجد في منطقة غور الأردن بل وضمه يترجم بأن الحزب يقدم نفسه للناخب على أنه يريد أن يوسع نطاق السيادة الاسرائيلية للمنطقة ج وتكوين حواجز واطواق سميكة حول ما سيتبقى من مدن وقرى فلسطينية في الضفة الغربية، تضييق الخناق وتعليب وخندقة بقية الفلسطينيين فيها.

الليكود وأبيض أزرق يتشاركان في رغبتهما في تعزيز وليس تقليص السيادة الإسرائيلية على المناطق الفلسطينية وكلاهما لا يطرح أية تصورات لدولة فلسطينية ولا يعتبر ذلك من أولوياته، أبيض أزرق بالذات لا يتعامل مع المسألة الفلسطينية كأولوية بل مع الخطر الإيراني، فأول دولة جاء ذكرها في ميثاق الحزب بعد إسرائيل كانت إيران في رؤية قادة أبيض أزرق فإنه وكنتيجة لسياسات نتنياهو الخاطئة فإن الكيان الذي يشكل الخطورة الأكبر على إسرائيل هو إيران التي دعمت ومازالت تدعم كل مناهض للدولة على حد قولهم على طول الحدود الإسرائيلية، والحل من وجهة نظر قيادات الحزب هو الحد ومحاولة إزالة تواجد إيران بالوكالة على ما أسموه بالحدود الشمالية، منع تسليح حزب الله، التحضر الدائم لإمكانية الحرب في أية لحظة، تصعيد الإجراءات باستمرار ضد إيران وحزب الله والتنسيق والتفاوض المستمر مع الروس للقضاء على التواجد الإيراني في الأراضي السورية التي نالها من البيان التأكيد القاطع على أن مرتفعات الجولان هي أراض إسرائيلية لاتقبل التفاوض عليها .

الحزب والحملة الانتخابية لم تركز على المشاريع السياسية بقدر ما ركزت على إعادة اللحمة للبلاد المنقسمة وإنعاش المسار الديمقراطي والأهم العودة للمسار الصحيح فمن وجهة نظر مؤسسيه فإن المجتمع الإسرائيلي بدأ يفقد عقيدة الآباء الأوائل ومبادئ المحراث والبندقية وإعمار الصحراء وإزدهار المدنية والأمة المقاتلة لصالح قيم الثراء ومجتمع الطبقة البرجوازية

والرخاء الاقتصادي، على حد قول أحد أعضاء الحزب لم يعد من يعمل أو من أنجز للدولة هو الذي يحظى باوفر قدر من الاحترام بل من حقق نجاحاً مادياً ولديه جواز سفر عليه أكبر عدد ممكن من أختام بلدان العالم، أما المتدينين الحريديم فهم أيضاً قد انشغلوا بتهويد المجتمع والحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب من العلمانيين ولم يعد وجود الدولة يهمهم في كثير أو قليل، أبيض أزرق همه الأساسي أن لا تفقد الدولة طابعها العسكري وأن لا تنسى هدفها الأساسي ولهذا فليس بالغريب أن يتخذ إسمه من لوني العلم الإسرائيلي اللذين جرى استخدامهما للمرة الأولى ١٩١٨م تحت اسم هارشون ليهودا أو الجيش الأول ليهودا والتي جعلت شعارها ألوان علم داوود الأزرق والأبيض وكانت تتشكل من الكتيبتين ٣٨ -٣٩ من الجيش البريطاني وأفرادها من يهود فلسطين والكتيبة ٤٠ والتي كانت تتكون من اليهود الأميركيين وكان قائدها هو الكولونيل مرجولين، هذه الكتيبة التي نفيت فيما بعد لرفح كانت النواة الأولى للهاجاناة وتحولت بحلول الحرب العالمية الثانية لثلاث كتائب من البالماخ شكلت فيما بعد جزءاً من الجيش الإسرائيلي الذي تأسس رسمياً في ٢٦مايو ١٩٤٨م بعد إثنى عشر يوماً من قيام الدولة، قيم أبيض أزرق مستمدة من هذا التاريخ ومن هذه الفلسفة أعضاؤه صهاينة متعصبون يتخذون من الآباء الأوائل قدوة لهم يفخر زعيمه بأنه أعاد غزة للعصر الحجري وأنه أكثر جندي إسرائيلي زار الدول العربية دون جواز سفر مصطلح إسرائيلي شهير يعني أن صاحبه شارك في اجتياح وغزو أراضي الجيران.

فيما يختص بالفلسطينيين سواء من يحملون الجنسية الإسرائيلية أو من هم وراء السور لا تختلف وجهة نظر نتنياهو عن وجهة نظر جانتز عن وجهة نظر متطرف متعصب ومستوطن من الجيل الثاني وابن لحاخام شديد التعصب ولد في مستوطنة في الجولان ويعيش في مستوطنة أخرى هي كيدوميم ويشغل رئيس حزب الاتحاد القومي المتطرف ويشغل منصب وزير المواصلات في حكومة نتنياهو بيزازيل سموريتخ (٣٨عاماً) والذي يعده الكثيرون من الشباب الحريديم أنموذجاً لليهودي الملتزم في أن العرب هم ضيوف في الدولة اليهودية للوقت الحالي وعليهم أن لا يستغلوا كرم الضيافة الإسرائيلي بشكل مبالغ فيه، الرجل لخص قناعاته بشكل أكثر صراحة من جانتز ونتنياهو في التالي "إن الله وعد جميع اليهود بإسرائيل وهو وعد محفوظ نحن فقط أكثر شعوب الأرض كرماً وضيافة منذ زمن إبراهيم (النبي) ولذلك فأنتم

مازلتم هنا للآن على الأقل".

أما عن الأحزاب العربية فالموقف متخبط يبدو ممثلوها كالمستجير من الرمضاء بالنار، بعض ممثلي التحالف العربي (القائمة العربية الموحدة) يرون أن حياة مواطنيهم وفرصهم من الممكن أن تتحسن برحيل نتنياهو أياً كان بديله على حد قول أحد عضوات التحالف سماح سلايمة "خلال حكم نتنياهو رأينا ما يكفي من التمييز والكراهية ضد العرب "، وكذلك أيمن عودة رئيس القائمة أعلن أنه لن ينضم رسمياً لتحالف أزرق أبيض لرفض جانتز الاعتراف بحقوق متساوية للعرب في إسرائيل ولكن سيدعمه في حال تشكيل الحكومة لأن التخلص من نتنياهو في حد ذاته يفتح باباً من الأمل أمام تحسن أحوال المواطنين العرب، المحلل السياسي آريك رودينتسكي يرى أن كل ما يطمح إليه النواب العرب في الكنيست وهو بالفعل ما يستطيعون تحقيقه هو دفع الحكومة الإسرائيلية لضخ مزيد من الاستثمارات والرعاية الصحية والتوظيف في المناطق العربية، كلها أهداف تتلخص في تحسين شروط الحياة اليومية ومع الظروف التي يعيش فيها مواطنو ١٩٤٨م ومع فقدان الدعم العربي لهم بل والتعاون المستتر والمعلن مع إسرائيل لا يمكن أن يطلب منهم أكثر من ذلك واقعياً، مع ذلك فإن النخب العربية كالكاتب سراج عاصي في مقاله في العربي الجديد اللندنية حذر من هذه التصرفات السياسية وكتب يقول "لا ينبغي أن يصبح إسقاط نتنياهو مبرراً للتحالف مع مرشح لايقل عداء للفلسطينيين عن خلفه فهدفنا هو مناهضة عقيدة يهودية الدولة وقانون الدولة العنصرية في الداخل ومشروع الاحتلال والمستوطنات وحصار غزة".

الثابت أنه سواء اتبعت الكتلة العربية نصيحة عاصي أو لم تتبعها فإن نظام الانتخاب الإسرائيلي لن يعطيهم أبداً الفرصة لكي يكون لهم وزن مؤثر لهذه الدرجة في السياسة الإسرائيلية والثابت أيضاً أن إسرائيل في حالة أمان تهتم فيها بمشاكلها الداخلية وترتيب البيت من الداخل وتأمين حدودها والحصول على مكاسب على الأرض وليست في عجلة لدخول أية مفاوضات على الأخص مع استعداد دول الخليج مع التغيرات التي طرأت على سياساتها للتعاون الإقتصادي معها ولإهتمامها بالخلافات المذهبية التي جعلتها تقف مع إسرائيل في خندق واحد ضد إيران ولذلك فأياً كان الحزب الذي سيشكل الحكومة الإسرائيلية سيظل الموقف الفلسطيني بدون تغير كبير على الأرض.

انتخابات الكنيست الثّانيّة والعشرون
لا نستطيع وحدنا ولا يستطيعون بدوننا

محمّد علي طه *

ركنت سيّارتي في موقف السّيّارات المجّانيّ في بطن سور عكّا التّاريخي ودخلت الى المدينة مشياً على قدميّ من البوّابة القديمة في الجهة الجنوبيّة، جارة البحر. ما زالت البوّابة الحديديّة الضّخمة يعلوها الصّدأ وما زال البحر يلاطفها ويغازلها.

كنت في السّادسة من عمري عندما زرت مدينة عكّا للمرّة الأولى في حياتي وكانت المدينة الأولى الّتي أزورها فأدهشني السّور الكبير والبوّابة الضّخمة مثلما أدهشتني السّوق المزدحمة بالنّاس.

رافقت يومئذٍ والديّ، رحمهما الله، في موكب كسوة خالي ناجي وعروسه فاطمة، رحمهما الله، واشترى لي والدي طابة صغيرة ملوّنة وكانت الطّابة الوحيدة الّتي امتلكتها في طفولتي وسرقتها النّكبة منّي!

مرّ ٧١ عامًا على تلك السّفرة وما زال السّور يسخر من الغزاة والجنرالات منذ نابليون حتّى ديّان.

عبر ملايين النّاس من هذه البوّابة، شيوخًا وشبّانًا وأطفالًا، رجالًا ونساءً، سودًا وبيضًا وشقرًا وصفرًا، مدنيّين وعساكر، حضرًا وفلاحين وبدواً وما زالت باقية ذابلة العينين.

اليوم هو التّاسع عشر من أيلول من العام ٢٠١٩ وعكّا تنهض من نومها بعد معركة انتخابات شرسّة للكنيست الاسرائيليّ جرت أمس الأوّل.

---

* كاتب من فلسطين

أسير في شارع صلاح الدّين الّذي يؤدّي الى مسجد الجّزار الجميل وأعبر ساحة اللومان، هكذا كان اسمها الأصلي الّذي صار ساحة فرحي على اسم اليهوديّ حاييم فرحي وزير ماليّة أحمد باشا الجزّار.

كان الفرح والرّاحة يبدوان على وجوه النّاس من أهلنا العرب. يقابلني البعض مبتسمًا ومحيّياً: «زرعتم فحصدتم. يعطيكم ألف عافية. خيراً فعلتم. شعبنا يريد الوحدة. شعبنا يريد القائمة المشتركة. قوّتنا في وحدتنا. أهلين أستاذ، أنتم وفّقتم ونحن لبّينا النّداء». ويعترضني رجل ثلاثينيّ ويصافحني قائلًا: الحقيقة أنّني لم أمارس حقّي الانتخابيّ في حياتي فقد كنت لا مباليًا ولكنّني سمعته في نهار الانتخابات يحرّض علينا ويقول: «أهل كفر مندا يتدّفقون الى صناديق الاقتراع ليسرقوا الحكومة من اليمين» فتدّفق الدّم في شراييني وأخذت أمّي وزوجتي الى الصّندوق. والحمدلله لقد سقط وارتحنا منه.

يعتقد المواطنون العرب أنّ عهد نتنياهو قد انتهى ويشعرون بفخر أنّهم ساهموا في التخلّص من رئيس حكومة القوانين العنصريّة ومن المحرّض الكبير عليهم وعلى وجودهم.

الله لا يردّه!.

قالها أكثر من شخص.

رائحة البهارات ورائحة القهوة مع الهال وصناديق السّمك البحريّ ورائحة الفلافل والحمص والفول وطابور الرّجال والنّساء أمام مطعم حمص سعيد الشّهير وصوت الاذان من مساجد المدينة تقول: يا خوف عكّا من هدير البحر، ويا خوف شعب عكّا من العنصريّين والمحرّضين.

للمرّة الأولى منذ تأسيس إسرائيل في أيّار ١٩٤٨ تجري معركتان انتخابيّتان للبرلمان (الكنيست) في عامٍ واحد فقد جرت انتخابات الكنيست الحادية والعشرون في ٩ نيسان ٢٠١٩ ثمّ انتخابات الكنيست الثّانية والعشرون في ١٧ أيلول ٢٠١٩ وهذا دليل واضح على المأزقين السيّاسيّ والاجتماعيّ اللذين تعاني منهما دولة إسرائيل بعامّة والنخب السّياسيّة بخاصّة.

امتازت هذه المعركة الانتخابيّة بالأمور التاليّة:

أولًا: الافتقار للبرنامج السّياسيّ عند الحزبين الكبيرين المتنافسين على تولّي الحكم وهما حزب

الليكود برئاسة بنيامين نتنياهو وحزب أزرق أبيض أي حزب الجنرالات في حين أن بعض الأحزاب اليهوديّة الصّغيرة طرحت برنامجًا سياسيًّا مثل يسرائيل بتينو برئاسة أفيغدور ليبرمان وحزب «يمينا» أي اليمين برئاسة وزيرة القضاء السّابقة أييلت شكيد وحزب العمل – غيشر برئاسة عمير بيرتس وحزب المعسكر الديمقراطيّ برئاسة نتسان هوروفيتش وأمّا القائمة المشتركة فهي ذات برنامج سياسيّ اجتماعيّ واضح.

ومن الغرابة الّتي كانت محصّلة لفترة حكم نتنياهو ١١ عامًا الابتعاد عن ذكر القضّية الفلسطينيّة والحل السّلميّ واختفاء كلمات من القاموس السياسيّ مثل «الاحتلال» و « الانسحاب» و «دولتين لشعبين» و «الشّعب الفلسطينيّ» وكأن دولة إسرائيل تعيش في جزءٍ آخر من العالم.

ثانيًا: فرضت نتائج الانتخابات السّابقة في نيسان إقامة تحالفات جديدة فحزب «كولانو- اليمين العاقل» برئاسة موشيه كحلون وزير الماليّة اندمج مع حزب الليكود كما اندمج أيضًا حزب «زهوت» برئاسة الفاشّيّ موشيه فايغلين مع الليكود أيضًا مقابل وعده بوزارة اذا ما شكّل الليكود الحكومة بعد الانتخابات، وأمّا حزب العمل برئاسة وزير الدّفاع السّابق عمير بيرتس فقد ضمّ اليه حزب غيشر اليمينيّ برئاسة أورلي ليفي أبوكسيس (ابنة دافيد ليفي وزير الخارجيّة الأسبق ومن قادة الليكود سابقًا) في حين اندمج حزب اليمين الجديد برئاسة أييلت شكيد وبانيت الّذي فشل في اجتياز نسبة الحسّم في نيسان مع اتّحاد أحزاب اليمين والبيت اليهوديّ وكان واضحًا أن سبب اتحاد هذه الأحزاب هي نسبة الحسم أولًا وتشكيل قوة برلمانيّة مؤثّرة على الليكود، وأمّا الأحزاب العربيّة الّتي شكلّت قائمتين في انتخابات نيسان بعد تفكيك المشتركة وهما الجبهة الديمقراطيّة للسّلام والمساواة والحركة العربيّة للتغيير من جّهة والقائمة العربيّة الموّحدة (الإسلامية) من جهةٍ ثانية وتراجع نتيجة ذلك التمثيل العربيّ من ١٣ نائبًا الى ١٠ نوّاب وكان هناك خطر حقيقيّ ألا تجتاز القائمة الثّانيّة نسبة الحسّم، فقد نجحت لجنة الوفاق الوطنيّ بعد جهود كبيرة من إعادة بناء القائمة المشتركة.

ومن الجدّير ذكره أن اليمين الجدّيد برئاسة شكيد وبانيت كان قد حصل على ١٣٨,٥٩٨ صوتًا (٣,٢٢٪) ولم يعبر نسبة الحسم وحصل حزب زهوت برئاسة فايغلن على ١١٨,٠٣١ صوتًا (٢,٧٤٪) ولم يعبر نسبة الحسم أيضًا وحصل حزب غيشر برئاسة أورلي ليفي أبو كسيس على

٧٤,٧٠١ (١,٧٣٪) ولم يعبر نسبة الحسم أيضًا.

ثالثًا: تسابقت أحزاب اليمين مثل الليكود ويسرائيل بتينو ويمينا وشاس بالوعود بضّم مناطق فلسطينيّة للسّيادة الاسرائيليّة وفي التنّكر لاتفاق أوسلو بل الإعلان عن وفاته وطرح الوعود بالقضاء التّام على حركة حماس وأمّا حزب الجنرالات، أزرق أبيض، الّذي تفاخر رئيسه في انتخابات نيسان السّابقة بأنّه قتل آلاف الفلسطينيّين في غزّة فقد اكتفى بالإعلان بأنّ إسرائيل لن تتنازل عن غور الأردن في أيّ حلّ سياسيّ.

رابعًا: قاد حزب الليكود ورئيسه نتنياهو حملة تحريض شرسة ضدّ حزب أزرق أبيض ورئيسه بني غانتس بلغت أوجها بالتّشكيك بقدراته العقليّة وعدم قدرته المحافظة على أسرار الدّولة وأمنها (لم يحافظ على هاتفه النّقال) وأنّه يساريّ وسوف يفرّط بأرض إسرائيل كما أنّه سيعتمد بحكومته على النوّاب العرب الّذين يسعون الى تدمير دولة إسرائيل وسوف يعيّن النّائبين العربيّين أيمن عودة وأحمد الطّيبي وزيرين في حكومته كما أنّه أبرز قضّية التناوب على رئاسة الحكومة بين بني غانتس ويائير لبيد مؤكدًا أن لبيد يساريّ متطرّف ولا يستطيع قيادة الدّولة.

ويبدو انّ كلمة يساريّ «سمول» أصبحت التّهمة الكبيرة والشّتيمة الكبرى فقد وصف نتنياهو بها كل معارض له.

كانت حملة التّحريض الشّرسة الهوجاء ضدّ المواطنين العرب في الدّولة وضد نوّابهم وضدّ القائمة المشتركة هي الأبرز فبعد أن كتب نتنياهو في صفحته الإلكترونية في انتخابات الكنيست العشرين أن العرب يتدّفقون بالحافلات الى صناديق الاقتراع وتعرّض الى نقد شديد من الاعلام الاسرائيليّ والعالميّ واعتذر أمام ثلّة من المخاتير والليكوديّين العرب عن كلامه العنصريّ عاد في هذه الانتخابات بحملة دمويّة فقد أعلن أنّ العرب يرغبون بالسّيطرة على الدّولة وسرقة الحكم من اليمين ثّم قال اذا وصل العرب الى الحكم فسوف يقتلون الرّجال والنّساء والأطفال اليهود ويستولون على مدنهم وبيوتهم، ولم يكتفِ بذلك ففي ظهيرة يوم الانتخابات ١٧ أيلول كتب أنّ أهل قرية كفر مندا يتدفقون بالآلاف الى صناديق الاقتراع ليقضوا على حكم اليمين وانجاح اليسار والقائمة المشتركة.

خامسًا: حاول نتنياهو تجنيد الرّئيس الأميركيّ والرّئيس الرّوسيّ والرّئيس الهنديّ لصالحه في المعركة الانتخابيّة وصرّح بأنّ الرّئيس الاميركيّ دونالد ترامب صديقه العزيز سيعلن عن صفقة القرن قريبًا وأنّه هو الشّخص الوحيد الّذي يستطيع أن يتفاهم مع ترامب لمصلحة دولة إسرائيل كما كرّر أنّه أقنع الرّئيس الأميركيّ بإلغاء الاتفاق مع ايران ثم تفاخر بنقل ترامب للسّفارة الاميركيّة الى القدس وبعدئذ الاعتراف بضمّ الجولان السوريّ الى إسرائيل وأكّد أن ترامب سوف يعترف بضم غور الأردن وشمال البحر الميّت والمستوطنات جميعها الى دولة إسرائيل ولم يكتف بكل ذلك بل أعلن أنّ الرّئيس الأميركيّ ترامب وافق على توقيع معاهدة دفاع مشترك مع دولة إسرائيل. وقام نتنياهو بزيارة الى روسيا والتقى بالرّئيس بوتين ولم ينجح هذه المرة بمكسب ماديّ كما حدث في نيسان حيث عاد مع حاجات الجندي زكريا باومل الّذي فقد مع جنديّين آخرين في معركة السلطان يعقوب في العام ١٩٨٢.

يطلق كثير من الاعلاميّين الإسرائيليين نعت « السّاحر» على رئيس حزب الليكود ورئيس الوزراء نتنياهو لأنّه يستطيع أن يغيرّ الرأي العام بين عشيّة وضحاها وهو فنان ماهر في التّخويف، والمواطن الاسرائيليّ بطبيعته خائف ولا يخجل أن يقول بأنّه خائف، ولا بدّ أن نشير الى أنّه من المضحك المبكي في أثناء الحرب الأخيرة على غزّة فيما كان طائرات سلاح الجّو الاسرائيليّ ودبّاباته تقصف القطاع بالصّواريخ والقذائف وتدّمر البيوت وتقتل الرّجال والنّساء والأطفال شاهدنا أهلنا هناك يحاولون أن يعيشوا حياتهم ولم نسمع كلمة خوف من فلسطينيّ واحد بينما سمعنا الكثيرين من سكّان المدن الاسرائيليّة حتى من تل أبيب يعربون عن خوفهم وقلقهم لأنّ قذيفة انطلقت من غزّة ووصلت الى أسدود أو عسقلان.

استغلّ نتنياهو هذا الضّعف عند المواطنين فخوّف النّاس من حماس أحيانًا ومن حزب الله أحيانًا ومن تنظيم فتح أحيانًا ومن إيران وقنابلها النّوويّة.

فاز نتنياهو للمرّة الأولى في الانتخابات في العام ١٩٩٦ بفضل تفجير الحافلات في المدن الاسرائيليّة والعمليّات الاستشهاديّة ومنذ ذلك الحين اتّخذّ التّخويف برنامجًا انتخابيًّا له ولم يقتصر التّخويف من ايران وحزب الله وحماس وأبي مازن والفلسطينيّين عمومًا بل بدأ يخيف الشّعب من النّواب العرب في الكنيست «الّذين لا يعترفون بدولة إسرائيل يهوديّة ديمقراطيّة

ويريدون تغيير النّشيد القوميّ هتكفا والعلم الاسرائيليّ» ونعتهم بالطّابور الخامس وأعداء الدّولة وحينما رفع المواطنون العرب أعلامًا سوداء حدادًا على ضحاياهم وقف على منصّة الكنيست واتّهمهم بأنّهم يسيرون تحت أعلام داعش الّتي تريد إبادة اليهود وإقامة دولة الخلافة. والمواطن الإسرائيلي يصدّق الإعلام الاسرائيليّ ويثق به ال حدٍ كبير وبخاصة فيما يتعلّق بالعرب.

وبعد أن نجح نتنياهو وزملاؤه من اليمين بإلغاء كلمات سلام واحتلال ومسيرة سلميّة ومناطق محتلّة ودولتين لشعبين ومحا جميع بنود اتفاق أوسلو وما تبعه من اتفاقات سعى في هذه الانتخابات الى أن يحوّل النّقاش الى الدّفاع عن دولة إسرائيل وحمايتها وبقائها وحماية مواطنيها وكأنّ هناك خطرًا وجوديًّا عليها وفي الوقت نفسه تفاخر بأنّ لحكومته علاقات سياسيّة متينة مع دول عربيّة عديدة مثل سلطنة عمّان والبحرين وقطر والامارات العربيّة والسّعوديّة كما أنّ الطائرات المدنيّة الاسرائيليّة صارت تحلّق في سماء السّعوديّة في طريقها الى الهند.

اجتهد نتنياهو أيضًا، وهذا همّه الأكبر، ان يبعد حملة الانتخابات عن ملفّاته في الشّرطة والقضاء حيث تعرّض الى تحقيق مطوّل عدّة مرّات في العامين الماضيين في ثلاثة ملّفات وهي حسب أرقامها ملف ١٠٠٠ وملف ٢٠٠٠ وملف ٤٠٠٠ وهي قضايا فساد ورشاوى وخيانة الأمانة وهي أكثر ما يقلقه في الفترة الأخيرة وبخاصّة أنّ الأحزاب الأخرى وأعني حزب الجنرالات أزرق أبيض وحزب العمل غيشر أعلنوا بأنّهم لن يجلسوا في حكومة واحدة مع نتنياهو المتّهم بقضايا فساد.

استطاع نتنياهو أن يقيم تكتلًا حزبيًا يصّر على أن يكون نتنياهو رئيسًا لحكومة اليمين القادمة من الأحزاب اليمينّيّة والدّينيّة وهي الليكود وشاس ويهدوت هتوراة وأغودات يسرائيل ويمينا وألزم قادة هذه الأحزاب أن يوّقعوا على وثيقة تنصّ على ذلك.

سعى نتنياهو في حملته الانتخابيّة لكي يكون القائمة الكبرى أو الأولى من حيث عدد الأصوات وعدد النّواب في البرلمان وقد صرّح أكثر من مرة لوسائل الأعلام وفي صفحته الخّاصّة بأنّ رئيس الدّولة روبين ريفلين (علاقتهما ليست وديّة) سوف يكلّف رئيس القائمة الكبرى بتشكيل الحكومة ولذلك انضّم حزب كولانو برئاسة كحلون الى الليكود ومنحه أربعة مقاعد مضمونة بالرّغم من أنّ هذا الحزب كان مهدّدًا بعدم اجتياز نسبة الحسم وقد أثار هذا الأمر تململاً بين

مرّشحي قائمة الليكود ولكن لا احد منهم يجرؤ على معارضته لأنّ السّنوات الماضية برهنت أنّ أيّ وزيرٍ من الليكود أو أيّ نائب في البرلمان يعارضه سوف يطير من السّاحة السياسيّة وكما ذكرنا فقد اقنع خصمه السّابق رئيس حزب زهوت أن يسحب قائمته من السّباق الانتخابيّ ويدعم الليكود مقابل أن يعيّنه وزيرًا وأن يسمح لليهود في الصّلاة بالمجسد الأقصى خطوة أولى لبناء الهيكل.

حصل حزب الليكود في انتخابات نيسان على ١,١٤٠,٣٧٠ صوتًا وحصل حزب كولانو على ١٥٢,٧٥٦ صوتًا وحصل حزب زيهوت على ١١٨,٠٣١ صوتًا وهذا يعني أن قائمة الليكود للانتخابات الأخيرة تخوض الانتخابات برصيد ١,٤١١,١٥٧ صوتًا الّا أنه حصل في هذه الانتخابات على ١,١١٣,٦١٧ أي تراجع بحواليّ ٣٠٠ ألف صوت وتراجع في عدد المقاعد من ٣٩ عضوًا الى ٣٢ عضوًا وهذا مؤشّر على تراجع قوّته وهذا يعني أيضًا أن حزب الليكود جاء في المرتبة الثّانية في عدد الأصوات وعدد المقاعد بعد حزب الجنرالات الّذي حصل على ٣٣ مقعدًا و١,١٥١,٢١٤ صوتًا.

ولكنّ الظّاهرة التّراجيديّة هي ما حدث لحزب العمل، هذا الحزب الّذي كان اسمه حزب الماباي ثم المعراخ فالعمل وهو حزب مؤسّسي دولة إسرائيل وقد ترّأسه دافيد بن غوريون ثّم ليفي إشكول ثم جولدا مئير ثم إسحاق رابين ثم شمعون بيرس وغيرهم وقد وصل الذّروة في قوّته في القرن الماضي عندما حصل على ٤٩ نائبًا وقد حصل حزب العمل برئاسة إسحاق رابين في العام ١٩٩٢ على ٤٤ نائبًا ولكنّ هذا الحزب بدأ يتراجع بعد مقتل رابين ففي انتخابات الكنيست العشرين في العام ٢٠١٥ وكان برئاسة إسحاق هرتسوغ حصل على ٢٤ مقعدًا فقط وأمّا في انتخابات نيسان ٢٠١٩ وبرئاسة آفي غبّاي فحصل على ٦ مقاعد فقط (حصل على ١٩٠,٨٧٠ صوتًا في حين حصلت قائمة الجبهة والعربيّة للتغيير على ١٩٣,٤٤٢ صوتًا) وأما في الانتخابات للكنيسيت الثّانية والعشرين وبرئاسة عمير بيرتس وبالتّحالف مع أورلي ليفي أبوكسيس فحصل على ٦ مقاعد فقط (٢١٢,٧٨٢ صوتًا) وهذا يدّل على أنّه ما كان يستطيع أن يجتاز نسبة الحسّم لولا هذا التحالف الغريب.

تنازل حزب العمل عن برنامجه السياسيّ بإقامة دولتين للشّعبين وحاول أن يبرز برنامجًا

اجتماعيًّا فقط ظنًّا منهم أنّ هذا الأمر يعيد النّاخبين اليه.

هذا الحزب العريق في طريقه الى الزّوال من السّاحة السياسيّة ولولا بقيّة من النّاخبين المسنين الّذين ما زالوا متمسّكين به ومن بعض أعضاء الكيبوتسات ومن موظّفي بعض المؤسّسات الاقتصاديّة لانتهى في الانتخابات الّاخيرة.

حصل حزب يسرائيل بتينو بقيادة الفاشيّ أفغدور ليبرمان على ٢١٤,٩٠٦ صوتًا و ستة مقاعد في انتخابات الكنيست العشرين وحصل على ١٧٣,٠٠٤ صوتًا وخمس مقاعد في انتخابات الكنيست الحاديّة والعشرين في نيسان الّا أنّه حصل في الانتخابات الأخيرة على ٣١٠,١٥٤ صوتًا وثمانيّة مقاعد وتعود أسباب هذا الارتفاع لمعارضته لسياسة نتنياهو الاجتماعيّة ومعارضته للأحزاب الدينيّة وبخاصّة قانون التّجنيد وقانون الزّواج كما أنّه كان الحجر العثرة أمام نتنياهو لتشكيل حكومة بعد انتخابات نيسان الماضي وقد وضع شروطًا لم يستطع نتنياهو الاستجابة لها لأن ذلك يعني تخلّيه عن الأحزاب الدينيّة.

القائمة المشتركة

كان تأسيس القائمة المشتركة في انتخابات العام ٢٠١٥ حدثًا سياسيًا هامًّا ويمكن اعتباره الحدث السياسيّ الأهّم في تاريخ الأقليّة العربيّة الفلسطينيّة في إسرائيل بينما يوم الأرض هو الحدث الوطنيّ الأهمّ.

كان نجاحًا كبيرًا وملفتًا للنظر أن يتوحد الشيوعيّ والجبهويّ والاسلاميّ والقوميّ والعروبيّ في قائمة واحدة في زمن ساد فيه الانقسام في الشّعب الفلسطينيّ (فتح وحماس) وفي عالمنا العربي (ما حدث ويحدث في سوريا والعراق واليمن وليبيا وغيرها) وكانت هذه الوحدة نقطة ضوء في الليل العربيّ وأعطت أملًا أخضر للعديدين من أبناء الشّعب العربيّ وكان للجنة الوفاق الوطني الدّور الكبير والبارز في تشكيل القائمة وقد اعترفت مركّباتها أنّه لولا لجنة الوفاق لما كانت القائمة المشتركة.

رحّب أبناء شعبنا في الجليل والمثلث والنقب بهذه الوحدة ودعموها بالتصويت لها فارتفعت

نسبة المشاركة في الانتخابات الى حواليّ ٦٣٪ وحصلت القائمة المشتركة على ٤٤٦,٥٨٣ صوتًا وعلى ١٣ نائبًا في البرلمان وأصبحت الكتلة الثّالثة بعد الليكود والمعسكر الصّهيونيّ، وهذا الواقع الجديد ألزم رئيس الحكومة والوزراء والدّوائر الرّسميّة والاتّحاد الاوروبيّ وهيئة الأمم المتحّدة والدّول الأجنبيّة أن تتعامل مع القائمة المشتركة ممثلة للعرب الفلسطينيّين في إسرائيل الّذين هم ٢٠٪ من سكّان دولة إسرائيل.

لم يَرُق هذا النّجاح لقوى اسرائيليّة عديدة مثل نتنياهو وأحزاب اليمين كما أنّه أقلق بعض الجّهات في العالم العربيّ فبدأ التآمر على تفكيك المشتركة منذ نجاحها في الانتخابات وبدأت محاولة التفكيك علانيّةً عند استحقاق عمليّة التناوب المتّفق عليها خطيًّا وكان من الطبيعيّ أن يبدأ هذا الهجوم الشّرس على لجنة الوفاق الوطنّيّ واتهامها بالانحياز لطرف ما وبظلم طرف آخر ثّم القول بأنّها أنهت مهمتها منذ يوم الانتخابات، وقادت هذا الهجوم الحركة العربيّة للتغيير برئاسة د.أحمد طيبي وأعلنت مقاطعتها للجنة الوفاق ومن المؤسف أنّ الأحزاب الثّلاثة الأخرى بالرّغم من تقديرها واحترامها العلنّيّ للجنة الوفاق لم تدافع عنها ولم ترد على هذا الهجوم.

وعندما أُعلن عن حلّ الكنيست العشرين وتعيين يوم التّاسع من نيسان موعدًا للانتخابات القادمة أعلن د. طيبي رسميًّا انسحابه من القائمة المشتركة وأنّ حركته ستخوض الانتخابات وحدها وأخذت وسائل الاعلام في إسرائيل ترّوج لذلك وتوالت استطلاعات الرّأي الّتي تعطي قائمة يترّأسها الطيبي ٨-١٠ نوّاب بينما تحصل الأحزاب الثّلاث الأخرى على ٤-٥ نوّاب. وبالرّغم من هذا الانشقاق الخطير طالبت الحركة الاسلاميّة برئاسة القائمة المشتركة مبرّرة ذلك بأنّها القوّة الانتخابيّة الأكبر في السّاحة العربيّة المحليّة ثّم أعلنت الحركة الاسلاميّة والتّجمع الوطنّي عن تشكيل قائمة واحدة لخوض الانتخابات، وفي اللحظات الأخيرة لتقديم قوائم المرشّحين للكنيست ال ٢١ اتّفقت الجّبهة الديمقراطيّة للسّلام والمساواة والحركة العربيّة للتغيير على خوض الانتخابات بقائمة واحدة.

اشمأزّ المواطنون العرب من هذا الانقسام السيّئ الّذي طعن وحدتهم وحلمهم. وجرت الانتخابات للكنيست الحاديّة والعشرين فحصلت قائمة الجّبهة والعربية للتغيير على ١٩٣,٤٤٢

صوتًا وعلى ستّة مقاعد وأمّا القائمة الثّانية للحركة الاسلاميّة والتّجمع فقد ترّنّحت بين العبور وبين الفشل وحصلت أخيرًا على ١٤٣,٦٦٦ صوتًا وأربعة مقاعد وقد تراجعت نسبة المشّاركة في الانتخابات عند المواطنين العرب من ٦٣٪ الى ٤٩٪ وتراجع عدد النّواب من ١٣ نائبًا الى عشرة نوّاب لأنّ النّاخبين العرب عاقبوا الأحزاب على تفكيك المشتركة وخرجت الأحزاب محبطةً من هذه المعركة كما ساد الشّارع العربيّ حال من الإحباط وأدرك الجميع أنّ الهجوم على لجنة الوفاق كان الخطوة الأولى لتفكيك المشتركة وأنّه لا مشتركة بدون لجنة الوفاق.

وحدث أن فشل نتنياهو في تشكيل الحكومة بعد انتخابات نيسان وحلّت الكنيست نفسها وتقرّر إجراء انتخابات للمرّة الثّانية في العام نفسه في ١٧ أيلول.

لا تكرهوا شيئًا لعلّه خيرٌ لكم، فقد تعلّمت الأحزاب درسًا قاسيًا وبدأت تبحث عن أسلوبٍ جديد لكسب ثقة الجماهير وأدركت جميع الأحزاب قيمة الوحدة كما أنّ كل حزب عرف قوّته الانتخابيّة من هذه الانتخابات.

بادرت لجنة الوفاق الى الإعلان أنّها على استعداد تام لأن تقوم بواجبها بتشكيل المشتركة من جديد الى أنّها تدعو الأحزاب الأربعة للتشّاور بينها ومحاولة تشكيل القائمة فاذا لم تستطِع فلجنة الوفاق ستقدّم خدماتها.

تشاورت المكّونات الأربعة (الجّبهة، الإسلامية، التّجمع، التّغيير) فيما بينها وعقدت اجتماعات ثنائيّة وثلاثيّة ورباعيّة وعندما لم تتّفق على تشكيل القائمة اتفقّت على تفويض لجنة الوفاق بتشكيل القائمة المشتركة من المقعد الأول حتى المقعد السّادس عشر ووقّع مندوبو الأحزاب على وثيقة التّفويض أمام الإعلام.

رتّبت لجنة الوفاق الوطنيّ القائمة ووقفتُ في مساء ٢٩ حزيران وأعلنتُ التّركيبة في بيت الأخ منصور دهامشة سكرتير الجبهة كما تّم الاتفاق بين الجميع.

ومرّ شهرٌ كامل في طحن الهواء والماء ثّم عاد الجميع الى الموافقة على ما أعلنته في مؤتمر صحافيّ في مدينة النّاصرة باسم لجنة الوفاق وبقي ترتيب القائمة كما هو.

وجرت الانتخابات وارتفعت نسبة التّصويت الى ٦٠٪ تقريبًا وحصلت المشتركة على ٤٧٠,٢١١

صوتًا أي بزيادة ١٣٣,١٠٣ صوتًا ونالت ثلاثة عشر مقعدًا.

لقد حدث شيء هام بين انتخابات ٩ نيسان وبين انتخابات ١٧ أيلول في توّجه عدد كبير من الإعلاميين العبريّين وصنّاع الرّأي وقادة الأحزاب الصّهيونيّة (باستثناء اليمين) وهو اعترافهم بأنّهم لا يستطيعون تغيير حكومة الليكود واليمين بدون المواطنين العرب وهذا يقتضي تشجيع المواطنين العرب على المشاركة في العمليّة الانتخابيّة والتّنسيق مع القائمة المشتركة. وكان رئيس القائمة المشتركة النّائب أيمن عودة قد أعلن أكثر من مرّة بأنّنا نحن العرب في البلاد لا نستطيع وحدنا أن نغيّر الحكومة كما أنّكم لا تستطيعون تغيير الحكومة بدوننا.

ومن الجدير ذكره أنّنا ما زلنا في كلّ جولة انتخابيّة نعاني من قوائم صغيرة تخوض معركة الانتخابات وتحرق آلاف الأصوات العربيّة وهي تخدم بذلك اليمين الاسرائيليّ وفي الانتخابات الأخيرة هذه خاضت قائمة الوحدّة الشعبيّة برئاسة أ.د.أسعد غانم الانتخابات مع حملة إعلامية كبيرة وهجوم شرس على القائمة المشتركة وطرحت نفسها بديلًا عنها وحرقت ٥٩٦٤ صوتًا كما خاضت الانتخابات أيضًا قائمة كرامة ومساواة برئاسة محمّد السّيد وحرقت ١٥٤٥ صوتًا.

كانت نتائج القائمتين بائسة جدًّا وهذا دليل على أنّ شعبنا يصّر على الوحدة ولا ينخدع بالشّعارات.

ولا بُدّ لي من الإشارة أنّ الصّحافة العبريّة والرّأي العام اليهوديّ والعربيّ قد أعلن مرارًا عن ولادة قائد جديد للأقليّة العربيّة في البلاد في هذه المعركة الانتخابيّة وهو رئيس القائمة المشتركة أيمن عودة الّذي كان حضوره بارزًا في هذه المعركة.

*****

تابعت سيري في سوق مدينة عكّا ووصلت الى بوابّة مطعم ومقهى البيزانيّ الّذي تغسل أمواج البحر قدميه وساقيه ليل نهار في حين يغمز الكرمل الجميل بعينيه سور عكّا القديم فشاهدت صيّاد سمك عجوزًا يداعب الصنارة بأنامله ويحدّق بي ويقول: أهلًا أستاذ مبروك إنجازكم!

أجبته: بارك الله بك. من أين أنت؟

فاجئني قائلًا: جئت زيارة الى حيفا وعكّا. وأنا أعرفك فقد شاهدتك مرّات عديدة في تلفزيون

مساواة فأنت رئيس لجنة الوفاق الوطنيّ. يعطيكم ألف عافيّة. أنا ولدت في حيفا في العام ١٩٤٦ وبيتنا في شارع الكنائس وأعيش اليوم في عمّان وأقول لك بصراحة أنا لا أكره النّاس، ولا أكره اليهود ولكنّي أكره الظلم والاحتلال. عمري ٧٣ عامًا فلماذا لا يسمحون لي أن أقضي بقيّة عمري في مدينة حيفا، مدينتي الجميلة الّتي أحبّها؟

اخترت مقعدًا على سيف البحر وجلست أراقب أولاد عكّا الصّغار الّذين يقفزون من على قمّة السّور العاليّة ويغوصون في مياه البحر... الصّورة الشّهيرة لأطفال عكّا.

طلبت فنجان شاي مع النّعنع... وعكّا على يميني وحيفا على يساري والبحر الأزرق أمامي وأطفال عكّا يقفزون ويعومون فرحين وكأنّي أسمعهم يغنّون: بيبي طار... بيبي طار... والحبل على الجّرار... ونحن باقون هنا.

كان شابٌ يهودي في الثلاثينات من عمره يجلس على مقربة منّي ويشرب عصير الرّمان وقد أصغى لكلمات صيّاد السّمك فسألته: هل تعرف اللغة العربيّة؟

كلمات قليلة فقط.

ما رأيك بنتائج الانتخابات؟

أنا ليكوديّ، وكنت ناشطًا في الحزب لسنوات عديدة ولكنّ نشاطي تراجع بسبب عملي. لقد درست في التخنيون في مدينة حيفا ودرس معي طلاب عرب وكانت علاقاتنا مقبولة على الرّغم من النّقاشات السّاخنة بيننا. نتائج هذه الانتخابات تقود الى المجهول فقد حصل نتنياهو أي الليكود على ٣٢ مقعدًا وحصلت شاس على ٩ مقاعد وحصل يهدوت هتوراة والأغوداة نعلى ٧ مقاعد وحصلت يمينا على ٧ مقاعد يعني أنّ نتنياهو يملك كتلة يمين من ٥٥ نائبًا وهو لا يستطيع تشكيل حكومة بدون ليبرمان الّذي حصل على ٨ مقاعد، وليبرمان كما تعلم يعادي نتنياهو ويصّر على حكومة وحدة وطنيّة بين الليكود وأزرق وأبيض وحزبه، والليكود لن يتنازل عن حلفائه. وأمام نتنياهو عدّة اختيارات أولّها أن يكسب قائمة حزب العمل غيشر بإعطائها ٣ وزارات هامّة وأن يعد عميد بيرتس برئاسة الدّولة في المستقبل أو أن يحاول شّق قائمة أزرق أبيض وكلا الأمرين صعب. وأعتقد أن بني غانتس لا يستطيع تشكيل حكومة لأنه يريد

حكومة وحدة قوميّة مع الليكود بدون نتنياهو. هذا لن يتحقّق. هل تستطيع أن تطلب من فريق برشلونة أن يلعب بدون ميسي؟ الوضع صعب. هل ستقوم حكومة أقليّة تعتمد على أيمن عودة؟ لا يجرؤ بني غانتس على ذلك. نحن في طريقٍ مجهول قد يقودنا الى انتخابات قادمة في آذار ٢٠٢٠.

هل حقًّا نحن ننتظر معركة انتخابات ثالثّة في شهر آذار المقبل؟

قراءة في الانتخابات الإسرائيلية

عليان الهندي *

انتهت الجولة الثانية من الانتخابات الإسرائيلية، خلال العام، في الثامن عشر من شهر سبتمبر عام ٢٠١٩، بعدم قدرة أكبر حزبين في "دولة إسرائيل"، على تشكيل حكومة، وبتراجع ما يسمى بمعسكر اليمين واليمين المتطرف فيها، بحصوله على ٥٥ مقعداً، مقابل حصول ما يسمى ظلما بمعسكر اليسار الذي يقوده حزب أزرق-أبيض على ٤٤ مقعداً، في حين حصل حزب «إسرائيل بيتنا» على ٨ مقاعد أهلته ليكون «قبة الميزان» في تشكيل أي حكومة إسرائيلية قادمة، والفائز الأكبر في الانتخابات الحالية، بعد أن شارف على السقوط في الجولة السابقة. أما الأحزاب العربية، التي دخلت الانتخابات في أربعة أحزاب، لم ينجح منها سوى القائمة العربية بـ ١٣ مقعداً، وبالتالي كان لها مساهمة في المأزق السياسي الذي تعيشه إسرائيل اليوم، وبإمكانية إخراج بنيامين نتنياهو من الحياة السياسية.

تجري الانتخابات في إسرائيل، وفق قانون النسبية، وسن الكنسيت قانوناً خاصاً عام ٢٠١٤ حدد فيه نسبة الحسم بـ ٣,٧٥٪ من الأصوات، لحصول أي حزب على ٤ مقاعد في الكنيست بأي انتخابات. وقد سن القانون المذكور، الذي كان حزب يسرائيل بيتنا بقيادة أفيغدور ليبرمان من المبادرين له، خصيصا للعرب بهدف إخراجهم في أي انتخابات قادمة بطريقة ديمقرطية، أو تقليص عدد أعضاء الكنيست العرب لأقل عدد وبالتالي أقل تأثير !؟. ونتيجة ذلك، اتفقت الأحزاب العربية على خوض الانتخابات في قائمة موحدة أسمتها القائمة المشتركة عام ٢٠١٥.

* باحث في الشؤون الاسرائيلية من فلسطين

وكان هدف الانتخابات النسبية، كما طمح مشرعوا قانون النسبية مع بداية تكوين إسرائيل، هو مشاركة جميع فئات المجتمع الإسرائيلي من علمانيين ومتدينين ويسار ويمين، وغير ذلك من التسميات. لكن استمرار طريقة الانتخابات تلك، حولها إلى انتخابات قطاعية، مثل فيها كل حزب، قطاعاً معيناً من المجتمع الإسرائيلي في الكنيست. ونتيجة لاستمرار الانتخابات النسبية، تمأسست في المجتمع الإسرائيلي أربعة قطاعات مهمة، ليس فقط من الناحية الانتخابية، بل قطاعات سياسية واجتماعية واقتصادية، نجحت في خلق نوع من التعايش فيما بينها، باستثناء العرب الذين حرموا من المشاركة السياسية والاجتماعية في إسرائيل. القطاعات المذكورة والممثلة بالكنيست الحالية هم:

- اليهود الروس - الذين قدموا لـإسرائيل بعد عام ١٩٩٠، ويشكلون اليوم أكثر من ٢٠٪ من اليهود في الدولة، وهذا القطاع من السكان منقسم إلى ثلاثة أقسام هم: الجيل القديم، الذي ولد وترعرع في روسيا، وظل حتى هذا اليوم من المصوتين للأحزاب الممثلة لليهود الروس. الجيل الثاني، الذي ولد في إسرائيل واندمج، بشكل أو بآخر، في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل إسرائيل، وبالتالي انقسم صوته بين الأحزاب الصهيونية خاصة بين الليكود وبين حزب أزرق-أبيض. والثالث، من يصنفون أنفسهم بلا دين، معظمهم من المسيحيين الذين قدموا مع الهجرة الروسية في بداية التسعينات، وتقدر نسبتهم بـ ٥٪ من مجموع اليهود الروس.
- المتدينون المتزمتون على مختلف أنواعهم والمستوطنون، وهم مجتمعين يشكلون ما يقارب من ٢١٪ من سكان إسرائيل.
- بقية اليهود - الذين يصنفون انفسهم من علماني حتى متدين وهم يشكلون ٣٢٪ من اليهود، وهم مع اليهود الروس يشكلون ٥٢٪ من سكان إسرائيل، وهم الذين جرت بينهم المنافسة الحقيقية في الانتخابات الحالية.
- الفلسطينيون العرب - الذين يشكلون أكثر بقليل من ١٧٪ من مجموع سكان إسرائيل، وهم المفروضة عليهم المقاطعة السياسية منذ تشكيل إسرائيل حتى اليوم.

تحاول المقالة الحالية، البحث في نتائج الانتخابات، ودراسة انعاكساتها المختلفة، خاصة في الشق الفلسطيني، الذي احتل حيزا مهما في الانتخابات، من خلال الدعوة التي أطلقها رئيس حكومة

إسرائيل بنيامين نتنياهو، الداعية لضم مناطق الأغوار الشمالية وشمال البحر الميت، وغيرها من المستوطنات للدولة العبرية.

الحملة الانتخابية والبرامج

باستثناء حزبي أزرق-أبيض وإسرائيل بيتنا، لم تطرح الأحزاب الإسرائيلية أي برامج انتخابية، بما فيها الحزب الحاكم (الليكود) الذي يقوده رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو، الذي حاول من دون نجاح تحويل الانتخابات، من انتخابات حول استمرار شرعية وجوده في الحياة السياسية الإسرائيلية، خاصة بعد التهم المختلفة بالفساد والرشوة، له ولعائلته والمقربين منه، الذين قدمت بحق بعضهم لوائح اتهام مختلفة، إلى انتخابات لمواجهة ما يسمى بالتهديدات والمشاكل الأمنية التي تواجه إسرائيل، وبمحاولته رسم حدود جديدة بواسطة ضم غور الأردن وشمال البحر الميت لإسرائيل[٢].

وفي المقابل، ومنذ عدة سنوات، تحاول النخب الإسرائيلية ،السياسية والاجتماعية والثقافية، إزاحة بنيامين نتنياهو عن سدة الحكم، وإخراجه من الحياة السياسية، معتقدين أنه لم يعد يملك شيئا جديدا يقدمه لدولة إسرائيل، سوى تعميق الانقسام بين العلمانيين والمتدينين والمستوطنين، الذين عقد معهم تحالفا عميقا، زاد من خلاله قوتهم ونفوذهم داخل المجتمع الإسرائيلي، بشكل وطريقة لا تتناسب ونسبتهم بين السكان، وفسادا مستشريا عنده وعند أفراد عائلته والمقربين منه، ادت إلى تقديم لوائح اتهام مختلفة بحق بعضهم، ومن المقرر أن توجه لوائح اتهام بحق بنيامين نتنياهو نفسه. وفي الشق الفلسطيني، اتهم من قبل جزء كبير من القطاع الذي يمثله هو، بأنه يعمل على تدمير ومسح الطابع اليهودي لدولة إسرائيل من خلال، رضوخه لأحزاب اليمين المتطرف العاملة على ضم الضفة الغربية لدولة إسرائيل.

وأخيرا وجدت النخب المذكورة، ضالتها في حزب أزرق-أبيض -اسم مستوحى من علم إسرائيل، الذي يعني باللغة العبرية الفصحى والعامية بأنه منتوج إسرائيلي- الذي يمثل النخب العسكرية والعلمانية، وغيرهم، من الذين حاول بنيامين نتنياهو إخراجهم من الحياة السياسية في دولة إسرائيل، خلال العقد المنصرم، بواسطة توجيه اتهامات لهم بأنهم أحزاب وشخصيات يسارية.

واليسارية هنا وفق مفهوم بنيامين نتنياهو، هو يسارية معادية للدين وللمتدينين المتزمتين في الدولة، وبالتالي لا يمكن الاتفاق معهم في أية حكومة قادمة. ويسارية بالمفهوم السياسي، المتمثل باستعداد هذه الشخصيات والأحزاب، تقديم تنازلات للفسطينيين، تقسم من خلالها «إسرائيل التاريخية» ومن ضمنها مدينة القدس.

إجمالا يمكن القول، أن الانتخابات الأخيرة (سبتمبر ٢٠١٩) والتي سبقتها بخمسة أشهر، تمحورت بالأساس حول شخصية واحدة هي بنيامين نتنياهو، أتى بعدها الخلاف على تجنيد طلاب المدارس الدينية، وبصورة أدق حول الصراع المتنامي بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل، الذي يطالبون بالمساواة في تحمل الأعباء.

عوامل الفشل

على مدار العقد المنصرم من رئاسته لوزراء حكومة إسرائيل، وضع بنيامين نتنياهو ثلاثة أهداف مركزية له هي: الأول، إنهاء اتفاق أوسلو، وايجاد تسوية جديدة مع الشعب الفلسطيني قائمة على التخلص من حكم الفلسطينيين مع المحافظة على أراضيهم تحت السيادة الإسرائيلية. والثاني، تغيير النخب الإسرائيلية القديمة واستبدالها بنخب غير تقليدية. والثالث، البقاء لأطول فترة ممكنة في الحكم.

ونتيجة لجهوده في تحقيق الأهداف الثلاثة، خرجت النخب المختلفة، خاصة العسكرية منها، التي عمل على عدم إدخالها في المعترك السياسي، لقدرتها على تشكيل تهديد حقيقي له، منذ الانتخابات التي جرت عام ١٩٩٦ حين دخل في مواجهة مباشرة مع الجيش عندما كشف عن الرواتب الهائلة التي يتلقاها كبار ضباط الجيش، وهي أكبر من الرواتب التي يتلقاها رئيس الوزراء ووزراء حكومته، ودخل في مفاوضات سرية مع النظام السوري، كشفها جهاز الاستخبارات فيما بعد، وتسببت مع غيرها من العوامل في إسقاط بنيامين نتنياهو من الحكم، الذي اعتبر في أوساطهم غير ناضج لتسلمه[٣].

لذلك، عمل مع غيره من الأحزاب عام ٢٠٠٧ على سن قانون يمنع بموجبه من خدم في الأجهزة الأمنية الإسرائيلية من دخول المعترك السياسي لمدة ٣ أعوام. ما أثار حفيظة جنرالات الجيش

المتقاعدين حديثا وقديما معتبرين إياها محاولة من الليكود ومن يقف على رأسه، بنيامين نتنياهو، منعهم من دخول المعترك السياسي[٤].

واصطف إلى من يصنف بأعداء بنيامين نتنياهو، أفيغدور ليبرمان رئيس حزب إسرائيل بيتنا الذي تولى خلال حكم الليكود العديد من المناصب الوزارية، كان من أهمها حقيبتي الخارجية والدفاع، التي عاني فيها الأمرين نتيجة تدخل نتنياهو في عمله وصلاحياته. ففي وزارة الخارجية حُرم ليبرمان من العمل في أهم ملفين خارجيين هما، العلاقات مع الولايات المتحدة ،التي اعتقدت لفترة ما أن ليبرمان هو جاسوس لروسيا، حيث تولى نتنياهو بنفسه ملف هذه العلاقات، في حين أوكل ملف التهديد الإيراني والعلاقات مع الدول العربية إلى رئيس الموساد يوسي كوهين، أحد أقرب الشخصيات من نتنياهو، في حين اوكلت القضايا الثانوية مثل العلاقات مع أوروبا إلى ليبرمان. أما في وزارة الدفاع، لم يدرك ليبرمان أنه ليس القائد الأعلى للجيش، وبالتالي لا يحق له إصدار الأوامر أو إعطاء التعليمات، وأن مهتمه الأساسية وفق القانون تنحصر في التنسيق بين الجيش والحكومة فقط، ما أثار خلافات مريرة مع نتنياهو متهما إياه بمنع حسم المعركة مع حركتي حماس والجهاد الإسلامي في قطاع غزة.

أما الأحزاب العربية، التي أدرك بنيامين نتنياهو، أن بقاءه في سدة الحكم يتطلب تراجع تمثيلها في الكنيست، دفعته للتحريض عليها، وعلى ما يمثلون. وفي الانتخابات السابقة، ولدفع الجمهور اليهودي للتصويت له، اتهم العرب بأنهم يغزون الصناديق لإسقاطه.

أهمية الصوت العربي التقطتها القيادات العربية التي ذهبت باتجاه العودة إلى القائمة المشتركة. والأهم من ذلك، هو دغدغة مشاعر نسبة كبيرة من الجمهور العربي، خاصة في أوساط الشباب منهم، في الاندماج بدولة إسرائيل بحكم الأمر الواقع، حين صرح رئيس القائمة العربية ايمن عودة، أن مهمة القائمة ليس فقط إسقاط بنيامين نتنياهو، بل المشاركة في الحياة السياسية والبرلمانية في إسرائيل بشكل يتناسب مع قوتها الانتخابية، وأعرب عن دعمه لبنيامين غانتس لتشكيل الحكومة، وتوفير شبكة أمان له إذا طلب ذلك، ما ساهم برفع نسبة التصويت في صفوف العرب ١٠٪ إضافية[٥].

إضافة لذلك، مر المجتمع الفلسطيني في دولة إسرائيل بتغييرات مهمة خلال العقد الماضي، تمثلت بانتشار الاكاديميات التعليمية والتعليم في صفوفهم، وبرغبة إسرائيلية رسمية بمنح هؤلاء

الخريجين الاندماج في سوق العمل الإسرائيلي بشكل فردي، وليس بشكل جماعي، خاصة في الصحة والتعليم ورجال الأعمال والتكنولوجيا المتقدمة، وغيرها من المجالات التي ليس لها علاقة بالأمن. كما أن توقيع منظمة التحرير الفلسطينية اتفاقية أوسلو دفع الكثير من الفلسطينيين في إسرائيل، خاصة جيل الشباب منهم إلى البحث عن الذات، بعد أن ربط مصيره بمصيرهم منذ النكبة حتى اليوم[٦].

نتائج الانتخابات

نتيجة للوضع المذكور، جاءت نتائج الانتخابات معبرة، بشكل أو بآخر عن التقسيمات التي فرضها قانون النسبية، ما دفع كل الأطراف إلى المطالبة بحصتها من «الكعكة الإسرائيلية»، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بعد أن كانت محصورة في أحزاب المتدينين المتزمتين والمستوطنين، التي تشير الاحصائيات فيها، أن المبالغ التي حصل عليها المتدينون المتزمتون، لصالح المدارس الدينية وطلابها فقط، الذين يصل عددهم اليوم إلى ١٣٠ ألف طالب يدرسون التوراة، تصل إلى ما يقارب من ٤٠٠ مليون دولار عام ٢٠١٨ زيادة عما هو مخصص للإسرائيلي العادي، من دون العرب[٧].

وعلى نفس السياق، سار اليهود الروس، الذين يطالبون بأمرين أساسيين هما: الأول، المساواة في تحمل الاعباء مع الأحزاب الدينية، وبدرجة أدق سن قانون التجنيد لطلاب المدارس الدينية، الذين سيصبح عددهم في السنوات القادمة مساويا لعدد الجيش النظامي في إسرائيل. والثاني، عدم سن قوانين تقيد جمهور اليهود الروس العلمانيين، والتراجع عن بعض القوانين التي سنت في الأعوام الماضية مثل المحافظة على قدسية يوم السبت، من خلال عدم تشغيل وسائل المواصلات الخاصة وفتح المراكز التجارية وغيرها.

ونتيجة للمطالب العلمانية ،التي تقدم بها رئيس حزب إسرائيل بيتنا، دخلت مؤسسات الحكم في إسرائيل في مأزق، يبدو من خلاله أن المخرج الوحيد له، هو إخراج بنيامين نتنياهو من الحكم، وايجاد طريقة ما لتجنيد طلاب المدارس الدينية في الجيش الإسرائيلي.

وكان العرب هم الطرف الثاني، الذي بدأ البحث عن مكانة سياسية، وعن امتيازات لصالح

القطاع الذي يمثله، خاصة أن مساهمة العرب في الاقتصاد الإسرائيلي تصل إلى ٤٠ مليار شيكل سنويا[٨]، لا يتلقون مقابلها خدمات تذكر. وهنا أيضا يبدو أن المخرج من هذه المشاكل هو بخروج بنيامين نتنياهو من سدة الحكم، خاصة أن منافسه الأساسي بنيامين غانتس قدم وعودا علنية بإنشاء مدينة عربية جديدة، وبتقديم ميزانيات مختلفة، وتعديل قانون القومية، مقابل توفير القائمة المشتركة شبكة أمان لحزب أزرق أبيض في الكنيست ؟.

أما الطرف الأخير، الذي عاد بقوة كبيرة إلى الساحة السياسية، والذين حاول بنيامين نتنياهو إقصاءهم، من دون المس بمصالحهم الاقتصادية، هم أبناء النخب العسكرية، الذين يقودون مع يئير لبيد حزب أزرق-أبيض، الذين أسسوا ما يشبه انتفاضة ضد حكم بنيامين نتنياهو، المتهم من قبلهم بمحاولة شق «الشعب الإسرائيلي» وبمحاولة القضاء على يهودية الدولة اليهودية من خلال ضم الضفة الغربية، وقضايا الفساد والرشاوى المتهم بها هو وعائلته والمقربون. ووفق المعطيات يعتبر هذا الحزب هو الفائز الأكبر في هذه الانتخابات الذي يضم في صفوفه الأولى ٥ جنرالات، بمن فيهم رئيس الحزب بنيامين غانتس.

أما رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، الذي بدأت الدوائر تضيق حوله، فقد أصبح ولأول مرة منذ عشرة أعوام، أسيرا لشخصين هما أفيغدور ليبرمان، الذي يستطيع انقاذه من المأزق الذي دخل فيه، وأدخل معه الدولة كاملة ليستكمل مشواره السياسي، وهو لن يفعل ذلك نظرا لشروطه التي يعتبرها نتنياهو مجحفة بحقه خاصة فك التحالف مع الأحزاب المتزمتة دينيا (الحريديم) التي تملك سويا ١٦ مقعداً في الكنيست، والذهاب نحو حكومة وحدة وطنية علمانية ليبرالية، يتم من خلالها تبادل منصب رئيس الوزراء مع بنيامين غانتس بعد عامين[٩].

أما الشخص الثاني، الذي بإمكانه تخليص نتنياهو من المأزق الذي يمر به، وإعادته للحياة السياسية، هو المستشار القضائي للحكومة، آفيحاي مندلبليت، الذي يعتبر من أكثر الأشخاص الذين تعاملوا بحذر شديد جدا مع ملفات رئيس الوزراء، لدرجة أنه استدعى كل المستشارين القضائيين السابقين للحكومات المختلفة، للتشاور معهم قبل أن يُعلِم نتنياهو أنه ينوي توجيه لائحة اتهام له، التي إذا تضمنت بندين هما: خيانة الأمانة وتلقي الرشاوي، فإن نتنياهو سينهي حياته السياسية إلى الأبد، وربما تفضي هذه التهم إلى السجن كسابقه إيهود أولمرط.

وفي حالة إصرار أي من الشخصين المذكورين أعلاه على مواقفه، لن يبقى أمام نتنياهو سوى

خيار أخير، وهو التوجه نحو انتخابات جديدة وثالثة خلال عام، وهو رئيس وزراء، كي يكسب المزيد من الوقت، تحت شعار لا يوجد ما يخسره. وهي انتخابات أشارت كل الاستطلاعات التي أجريت أنها لن تغير في المعادلة السياسية شيء، ويبدو هنا أن الأمور تسير نحو ذلك.

ويبقى هناك سيناريو أخير لإزاحة نتنياهو من منصب رئيس الوزراء، وهو تشكيل حكومة أقلية برئاسة بنيامين غانتس، لفترة قصيرة جدا –لشهرين أو ثلاثة- تعتمد في تشكيلتها على دعم ٥٢ عضو كنيست، فيما توفر القائمة العربية المشتركة شبكة أمان، ومن ثم تتجه لانتخابات جديدة من دون بنيامين نتنياهو رئيسا للوزراء.

انعكاسات على الفلسطينيين

بداية لا بد من الإشارة أن الانتخابات الإسرائيلية، أسقطت، وبشكل كبير، تيار اليمين المتطرف الذي يقوده بنيامين نتنياهو، المطالب بضم ٤٠٪ من الضفة الغربية لإسرائيل، مع إعطاء الفلسطينيين نظام حكم مختلف عن النظام الموجود في إسرائيل، بمعنى أن الانتخابات أسقطت التيار الإسرائيلي الداعي لإقامة دولة واحدة بنظامين، من دون موافقة فلسطينية.

وكان مقرراً لهذا النظام أن يسري بعد أن يرفض الفلسطينيون، المبادرة الأميركية (صفقة القرن) للحل، ما يدفع الحكومة الإسرائيلية في البداية إلى ضم غور الأردن والكتل الاستيطانية الكبيرة، بموافقة أميركية أو بعدم تعليقها على هذه الخطوة[١٠].

الحل المذكور، اعتبرته بقية الأحزاب الصهيونية، خاصة حزب أزرق-أبيض مبادرة للقضاء على دولة إسرائيل، كدولة يهودية وديمقراطية، وفي نفس الوقت لا تنهي الصراع مع الفلسطينيين، الذين أصبحوا يشكلون أغلبية في المنطقة الواقعة بين البحر والنهر –فلسطين الانتدابية. ما يعني أن إسرائيل ستظل تحتاج لشرعية اعتراف الفلسطينيين ومن خلفهم العرب والمسلمين بالوجود والرواية الصهيونية في فلسطين التاريخية، بدلا من المحافظة عليها بالقوة المسلحة.

ويعتقد أن الحكومة القادمة، خاصة إذا شكلت من قبل حزب أزرق-أبيض، التي تضم من بين أول أربعة من قادتها، ثلاثة رؤساء أركان ساهموا بشكل هائل في رسم السياسة الإسرائيلية، اتجاه الفلسطينيين خلال العقدين الماضيين، ستذهب باتجاه المحافظة على استمرار الانفصال بين

الضفة الغربية وقطاع غزة، وإلى تبني السياسة الرسمية المرسومة من قبل المؤسسة العسكرية الحارسة للاستقرار السياسي في إسرائيل، الداعية لعدم ضم أية مناطق من الضفة الغربية من دون موافقة فلسطينية، وإقامة كيان مستقل يسميه الفلسطينيون ما يشاؤون. بمعنى أخر سيعود الفلسطينيون مرة أخرى إلى حلقة المفاوضات المفرغة نتيجة رفض إسرائيل منحهم الحد الأدنى من حقوقهم.

كما يرفض الحزب وفق البرنامج المنشور، أية خطوات أحادية الجانب في الضفة الغربية، لكنه سيدفع باتجاه تخفيف الكثير من القيود المفروضة عليها، وسيسمح لها بهامش تحرك معين في مناطق C. وعليه، يبدو أن العنوان القادم للسياسة الإسرائيلية القادمة استمرار إدارة الصراع مع الفلسطينيين، الذين لا يعتقد أن هذا الخيار سيء بالنسبة لهم في ظل الظروف الحالية المحلية والأقليمية والدولية التي لا تسير في صالحهم بالوقت الحاضر.

وفيما يتعلق بقطاع غزة، وفي حال تشكيل حزب أزرق-أبيض الحكومة، ووفق ما صرح به قادته، يُعتقد أن المرحلة القادمة، ستشهد ،في حال وقع تصعيد معين تسبب بتعطيل الحياة العامة في إسرائيل أو قتل عددا من الإسرائيليين، ستشهد حربا مدمرة، وضعت لها المخططات قبل عدة أشهر. ولولا التدخلات المصرية والدولية، وتهديد بعض الدول المانحة، بعدم إعمار قطاع غزة في أي حرب قادمة، لكنا اليوم أمام واقع مختلف لقطاع غزة.

وفيما يتعلق بالفلسطينيين العرب في فلسطين الانتدابية، يبدو أن عدم تحقيق السلام سيشكل حجر الأساس بوجه أي محاولة من قبلهم للدخول في المعترك السياسي الإسرائيلي، لأنهم لا يستطيعون، بأي حال من الأحوال، المشاركة أو الصمت، على أي قرار قد يتخذ ضد الفلسطينيين. وجل ما سيحصل عليه الفلسطينيون العرب هو بعض الامتيازات القائمة على استمرار الفصل بين اليهود والعرب داخل إسرائيل، مثل إقامة مدينة جديدة لهم، بدلا من استمرار السكن في المدن المشتركة مثل نتسيرت عيليت (نوف هغليل حاليا) سابقا.

الأمر الأخر المهم في كل ما يتعلق بالفلسطينيين العرب في إسرائيل، هو باستمرار نضالهم من أجل الحصول على حقوق وطنية وثقافية جماعية، وهو ما ترفضه دولة إسرائيل حتى بعد الانتخابات الأخيرة.

خلاصة

خرجت النخب الإسرائيلية تدافع عن مكانتها ومصالحها وعما تمثله في المجتمع الإسرائيلي، أمام خضوع رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو والليكود، للأحزاب المتزمتة دينيا، التي استحوذت على امتيازات كثيرة ومتنوعة، أكثر من تلك الممنوحة لليهودي العادي في إسرائيل.

وتطالب النخب الجديدة بتغيير اتفاقية الوضع القائم الموقعة عام ١٩٤٧، التي تنظم العلاقة بين المتدينين والعلمانيين، أو بصورة أدق علاقة الدين بالدولة، التي أصبحت تشكل عبئا كبيرا على إسرائيل اقتصاديا وفي مجال تحمل الأعباء إسوة بكل اليهود في الدولة.

واعتقدت النخب المذكورة أن حربها الأساسية، ليست موجهة ضد المتزمتين دينيا، بل ضد من يدعمهم، ويقف إلى جانبهم، الذي ترك مصالح الآخرين في مهب الريح، ما تطلب منهم العمل على إسقاطه.

لكن النتائج الحالية، لا تشير إلى حسم المسائل المختلف عليها بين المعسكرين، ومن دون حدوث أي مفاجئة، يبدو أن عدم قدرة أيّ من الحزبين على حسم الأمور لصالحه، ستدفع باتجاه انتخابات ثالثة في أقل من عام.

من جهتهم، ونتيجة لزيادة أعدادهم، وبالتالي ازدياد احتياجاتهم ومطالبهم، ونتيجة للمشاكل المختلفة التي يمرون بها، أصبحت الدولة، بغض النظر عمن يقودها أداة يحتاجها الفلسطينيون العرب، لحل مشاكلهم المستعصية، التي خلقتها دولة إسرائيل وعززتها وحافظت عليها، في مجالات البناء والأراضي والأمن الشخصي، وربما المشاركة في الحياة السياسية الإسرائيلية، بعدما تمكنوا من ترسيخ مكانة لهم في الكنيست (البرلمان) الإسرائيلي.

وفي الشق الفلسطيني، سيكون عنوان المرحلة المقبلة في الضفة الغربية، العودة إلى المفاوضات من دون تحقيق أية نتائج، أي إدارة صراع. وفيما يتعلق بقطاع غزة لا يتوقع له أن يشهد وقتا مريحا، كما هو عليه الحال منذ عقدين، وربما تتحول المعارك الموسمية إلى عدوان شامل على قطاع غزة، الذي نجح خلال جولات القتال السابقة في فرض وقائع جديدة على الأرض، لا تسمح إسرائيل باستمرارها.

الهوامش :

٢. طال شاليف، اسبوع على الانتخابات- بنيامين نتنياهو يعلن عن نيته ضم غور الأردن لدولة إسرائيل، الموقع الالكتروني

walla.co.il

٣. مناظرة تلفزيونية بين وزير الدفاع الإسرائيلي السابق إسحاق مردخاي وبنيامين نتنياهو حول الأخطاء التي ارتكبها الأخير، القناة الإسرائيلية العاشرة، ١٩٩٨\١٢\١١.

٤. إيلان مرسيانو، فترة التجميد بين الخدمة العسكرية وبين الدخول في المعترك السياسي، ٣ أعوام، ٢٠٠٧\١٥\١٠، الموقع الاليكتروني لصحيفة يديعوت أحرنوت www.ynet.co.il .

٥. ستيوارت وينر وآدم راسغون، أيمن عودة، القائمة المشتركة قد توصي بغانتس رئيسا للوزراء، الموقع الاليكتروني لتايم اوف يسرائيل،

timesofisrael.com،18 \10\2019

٦. حلقة نقاش عقدت في المركز الفلسطيني لأبحاث الأمن القومي- رام الله، شارك فيها إضافة للكاتب الدكتور عزيز حيدر الاستاذ محمد دراوشة وغيرهم، ٢٠١٩\١٠\١٠.

٧. نحشوني كوبي، معطيات جديدة: ارتفاع هائل في عدد طلاب المدارس الدينية أكثر من أي وقت مضى، الموقع الاليكتروني لصحيفة يديعوت احرنوت

ynet.co.il، 19\12\2019

٨. شاحر إيلان، ثمن الخنوع للمتزمتين دينيا، ٢٠١٩\٤\١٤، الموقع الاليكتروني لمجلة كلكليست

www.calcalist.co.il

٩. طوفاه تسيموقي، المستشار القضائي للحكومة حول التحقيق مع نتنياهو: لا يوجد إعادة توجيه أو مطاردة أو تلفيق تهم، الموقع الاليكتروني لصحيفة يديعوت أحرنوت، ٢٠١٩\٤\٢٩.

١٠. هرئيل عاموس، قرار ترامب التخلي عن حلفائه في سوريا، بشرى سيئة لنتنياهو، ٢٠١٩\١٠\١٨، الموقع الاليكتروني لصحيفة هأرتس.

www.haaretz.co.il

أوراق ثقافية

سيرة ماري روزنتال
ورسالتها الطويلة الى حفيدها الفلسطيني

محمود الورداني

قبل أن تنتهي نايلة كامل المولودة باسم ماري روزنتال من جداريتها الضخمة» المولودة» - ٥١٥ صفحة قطع كبير والصادرة عن دار الكرمة المصرية، تتوجه بالكلام لحفيدها نبيل الفلسطيني الذي لم يكن قد تجاوز السابعة من عمره آنذاك، وتتمنى ألا تسبب له معرفته عندما يكبر، بأن جدته التي طالما دللته وأعدّت له" البيتزا" التي يحبها، من أصل يهودي صدمة، بسبب ما فعله الإسرائيليون بالفلسطينيين، والاستيلاء على وطنهم وطردهم منه. وجدته لا تتنكر لأصلها اليهودي، لكنها لم تكن أبدا إلا امرأة مصرية يسارية أمضت سنوات عمرها تدافع عن حقوق الشعب الذي انتمت له ولم تعرف سواه وطنا لها، وتحملت في سبيل ذلك سنوات من السجن والتشريد منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها.

والواقع أن جدارية نايلة كامل المولودة باسم ماري روزنتال نالت ما تستحقه من اهتمام وتعليقات وعروض غزيرة لها في الصحف والمجلات، إلى جانب إعادة طبعها وحصولها على جائزة ساويرس للرواية في العام الماضي.

جدارية نايلة كامل ليست هي الأكبر حجما والأوسع والأشمل من نظيراتها من كتب السيرة الذاتية فقط، بل هي أيضا الأكثر صدقا، وبالتالي الأكثر تأثيرا، وربما لم يحظ خلال العامين الأخيرين كتاب بكل تلك الحفاوة والاستقبال الحسن والدافئ مثلما حظي كتاب نايلة كامل.

من جانب آخر، لم تكتب السيدة كامل الكتاب بنفسها، بل حكت حكايتها على مدى عدة سنوات لابنتها المخرجة السينمائية نادية كامل، وقامت الأخيرة بصياغتها باللهجة العامية البسيطة، لذلك بدت قريبة من القارئ وقادرة على الاستحواذ عليه.

وكانت جلسات الإعداد للسيرة الذاتية وتسجيلها قد بدأت عام ٢٠٠١ عندما كان عمر نايلة سبعين عاما، بينما نادية في الأربعين.

تحكي السيدة كامل عن بلد كانت بريطانيا العظمى قد احتلته بعد غزوه عسكريا عام ١٨٨٢ ، وعن مناطق شاسعة تضم بلدانا كانت مجرد ولايات عثمانية، ثم احتلت أغلبها القوتان العظميان آنذاك بريطانيا وفرنسا، خصوصا بعد ان سكتت مدافع الحرب العالمية الأولى(١٩١٤ – ١٩١٨) وانتهت بانتصار بريطانيا العظمى التي بات إسمها الإمبراطورية التي لا تغرب الشمس عن أملاكها!

تستعيد كامل في حكايتها مصر أخرى وقاهرة مختلفة من العسير استعادتها الآن. مصر غنية رغم الاحتلال، اشتهرت بين بلدان المنطقة بالثراء وتوافر فرص العمل ومتسامحة، ليس فقط تجاه من يحملون جنسيات شتى، بل أيضا تجاه من يدينون بالمسيحية واليهودية إلى جانب الغالبية المسلمة. ومثلما كانت هناك أغلبية مصرية مسلمة، كانت هناك أقلية مسيحية مصرية، تتلوها من حيث الحجم أقلية يهودية مصرية.

على أي حال ولدت صاحبة السيرة عام ١٩٣١ في القاهرة لأم مسيحية إيطالية ، غادرت إيطاليا على ظهر سفينة بصحبة شاب أحبته، ليبدءا حياتهما معا في بلد كان مشهورا بتوافر فرص الحياة الكريمة والسهلة فيه، لكنها سرعان ما اكتشفت قبل أن تغادر السفينه أن الشاب لا يليق بها ولم يكف عن ملاحقة النساء، وعملت مربية لدى إحدى الأسر الفرنسية الموسرة بعد وصولها بوقت وجيز من خلال إحدى معارفها الإيطاليات. وفي ثلاثينات القرن الماضي كانت القاهرة مدينة كوزموبوليتانية بامتياز، وتعج بجاليات كبيرة العدد ومؤثرة مثل الجالية اليونانية والإيطالية والفرنسية والأرمنية ..إلخ إلخ ، بل إن الباعة المصريين في شوارع وحواري القاهرة كانوا يتحدثون بعدة لغات مع أولئك الخواجات والمتمصرين.

أما الأب فهو يهودي مصري ولد في القاهرة لأبوين يهوديين ترجع أصولهما إلى أوديسا، وهاجر جده الأكبر إلى اسطنبول حيث تزوج من تركية يهودية، كانت عائلتها قد هربت من الاضطهاد في إسبانيا . وشأن عائلة أم نايلة الإيطالية، هاجرت الأسرة اليهودية إلى القاهرة واستقرت في حارة اليهود .

أود أن أؤكد على أن التاريخ الذي تحكيه السيدة كامل هو تاريخ لا نجده في سائر المؤلفات التاريخية. ليس تاريخا سياسيا ولا حتى تاريخا اجتماعيا. إنه التاريخ الذي يتعرض عادة للإهمال والتجاهل، وربما نجده فقط في الأعمال الأدبية. هو تاريخ الناس والمباني التي يعيشون فيها والأعمال التي يلتحقون بها، والنوادي التي يقضون فيها ساعات لهوهم، والعلاقات الشخصية التي تربط بينهم. الحب والسياسة والسجون والتجمعات والندوات الثقافية وعالم المنظمات السرية اليسارية والكفاح السياسي والصحافة والمشتغلون والمشتغلات بالإنتاج الفكري والأدبي..

عالم لن يجده القارئ في أي من المصادر المتاحة، فهو تاريخ الناس بكل ما تحمله تلك الكلمة من المعنى، ويتم الحكي عنه من داخله ومن خلال واحدة من صنّاعه، كما سأحاول أن أبيّن في السطور التالية.

تحكي مثلا كيف تعرف أبوها بامها.. كانت الأم تعمل مربية ومعتادة على أن تصحب طفلة مخدومها في نزهة إلى حديقة الأزبكية، وبالمصادفة كان الشاب إيليا يعمل في تركيب اللمبات الكهربائية في الحديقة نفسها، وبعد أن التقيا عدة مرات على هذا النحو، وقع كل منهما في غرام الآخر. كان الأب ماهرا وشأنه شأن كثير من الشباب اليهودي التحق مبكرا بالعمل الحرفي، لكنه استطاع أن يتعلم بالمراسلة ويحصل على شهادة من مدرسة إنجليزية لإصلاح الأجهزة الكهربائية.

كانا يريدان الزواج، وبسبب اختلاف الديانة رفض في البداية أهل إيليا زواج ابنهما من مسيحية، لكن الأخير استطاع في النهاية إقناعهم وتزوجا أولا زواجا يهوديا، وبعد أكثر من عشر سنوات من زواجهما وإنجابهما ماري (وهي نايلة فيما بعد) وشقيقها برتو، فاجأ الأب زوجته بعقد زواجهما للمرة الثانية زواجا مسيحيا في كنيسة كهدية للأم في عيد ميلادها. وهنا فقط انتبهت ماري إلى أن هناك أكثر من ديانة، وهي تشاهد أمها تتزوج.

إلى هذا الحد كان التسامح والعلاقات السهلة المريحة بين أصحاب الديانات المختلفة، وبين المنتمين لأصول أو جنسيات متباينة. والمثير للانتباه أن الأسرة سكنت في حيين شعبيين فقيرين على التوالي: الأول بالقرب من حي عابدين والثاني في قلب حي بولاق، وحسبما أشارت فإن ذلك كان معتادا ، والباعة يتحدثون أكثر من لغة وليست هناك مشكلة. وإذا كان الأب يجيد الحديث بالعربية دون لكنة، فإن الأم واجهت صعوبات عديدة حيث ولدت في إحدى قرى الريف الإيطالي، ولم تسافر إلى مصر إلا بعد ان تجاوزت العشرين.

تعلمت ماري في مدرسة إيطالية، وكان هناك آنذاك عدد كبير من المدارس العريقة للجاليات الأوروبية المختلفة، وحصلت على شهادة متوسطة ، وتقرر أن تنزل لسوق العمل لتدخر ما يمكّنها من السفر لاستكمال تعليمها في إيطاليا. عملت أولا كسكرتيرة في مدرسة لتعليم اللغات، وبدأت منذ عام ١٩٤٦ في التردد على ناد اجتماعي وثقافي إيطالي لشباب الجالية الإيطالية ، وهو الأمر الذي أدى إلى التغيير الحاسم والأشد والذي انقلبت حياتها تماما بعده.

أود أن أشير هنا أولا إلى الدور الذي لعبه الأجانب وشباب العائلات الميسورة من طلاب المدارس الأجنبية في بناء المنظمات اليسارية السرية والعمل على نشر الفكر اليساري. كان الأخيرون قد تعرفوا على الماركسية من خلال اللغات الأجنبية التي يتقنونها، وكان الصراع قد بدأ بين الشباب المنتمين للفاشية والمتأثرين بالماركسية، وامتد تأثيره إلى نوادي الشباب، كما تأسست منظمات علنية للشباب اليهودي المعادي للصهيونية.

وحتى يمكن فهم مثل تلك الأجواء الغريبة، فإن من بين مؤسسي منظمات الحلقة الثانية من الحركة الشيوعية المصرية كان هناك كثير من اليهود والأجانب المعادين للصهيونية قبل حرب ١٩٤٨ وتأسيس الدولة العبرية. صحيح أن التداعيات التاريخية العديدة قد أدت إلى هجرة الكثيرين منهم إلى خارج البلاد، وليس إلى فلسطين تحديدا، بل إلى دول أوروبية، كما طرح فيما بعد شعار التمصير لإزاحة القيادات الأجنبية في القيادة وإحلال المصريين بدلا منهم، وظل هناك قسم للأجانب داخل بعض المنظمات، ومن هنا عرفت ماري روزنتال طريقها للارتباط بالحركة الشيوعية في مصر قبل أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها.

كان النادي الثقافي الذي ترددت عليه أول الأمر للرقص والرحلات والندوات والرياضة، ومن يغشاه هم الأجانب الذين يعيشون في مصر. أمضت ماري روزنتال التي كانت في بدايات سنوات مراهقتها آنذاك، أمضت أمسياتها بين الرقص وحضور الندوات والمناقشات. وعندما اجتاح وباء الكوليرا مصر عام ١٩٤٧، شاركت مع أصدقائها في النادي في مقاومة الوباء من خلال التردد على المناطق الشعبية وتوصيل المطهرات وإعطاء التعليمات الصحية وما إلى ذلك.

لم تكن تعلم أن وراء ذلك العمل منظمة يسارية سرية يقودها اليهودي هنري كورييل هي الحركة المصرية للتحرر الوطني، وتابعها رفاقها في المنظمة ووجدوا فيها خامة طيبة، ووثّقوا علاقتهم بها حتى تم مفاتحتها في الانضمام للحركة التي اندمجت آنذاك مع منظمة أخرى هي الشرارة، وأصبح إسمها الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني(حدتو) كبرى المنظمات اليسارية وأكثرها تأثيرا.

بعد تجنيد ماري روزنتال، عملت على الفور في الجهاز الفني، حيث تتسلم المنشورات في حقيبة معدة لحمل الخضراوات وتنتقل بها لبيت أخر تسلّم فيه المنشورات، وكانت تقوم بدور فتاة صغيرة تعطي دروس اللغة الفرنسية في البيوت الي تدخلها. وبعد تعرّض الجهاز الفني لمشاكل أمنية، اضطرت للزواج العُرفي من زميلها عبد الستار الطويلة(فيما بعد سيكون الطويلة واحدا من أشهر الصحافيين ورئيسا لتحرير إحدى الصحف) وذلك لتأمين المسكن الملائم لمركز من مراكز توزيع المنشورات.

وبعد شهور، وهي في الثامنة عشرة ، وأثناء حضورها اجتماعاً لخلية حزبية، تم ضبطها متلبسة، وأمضت عاما كاملا خلف القضبان. وعلى الرغم من أنها المرة الأولى التي تعرضت فيها للحبس، إلا أنها شاركت زملائها في السجن في إضراب عن الطعام استمر أسبوعا لتحسين شروط السجن، ثم شاركت هي وزميلاتها زملاءهن الرجال الذين كانوا في سجن مجاور لسجن النساء في إضراب طويل استمر ستة عشر يوما لتقديمهم للمحاكمة، وهو بالفعل إضراب تكلل بالنجاح، وقُدّمت القضية بكاملها للمحكمة ونالوا إفراجا بمجرد تولي حزب الوفد تشكيل الحكومة.

وبعد خروجها تعرفت على عدد كبير من الشعراء والكتاب والفنانين اليساريين مثل فؤاد

حداد وكمال عبد الحليم وانشغلت معهم بقراءة وترجمة قصائد لبابلو نرودا وإيلوار وناظم حكمت وأراجون. هنا لابد أن أشير إلى أن قيمة أساسية من قيم سيرة ماري روزنتال عكوفها على التفاصيل الإنسانية البسيطة، ووصفها للأماكن التي تذهب إليها والحياة في السجن وطبيعة علاقاتها بأصدقائها ورفاقها في المنظمة، وهي الفتاة الأجنبية التي لم تكن قد أجادت بعد اللغة العربية.

وفي عام ١٩٥٣ تعرفت على الرجل الذي ارتبطت به طوال عمرها وهو الكاتب والصحافي المعروف جدا آنذاك سعد كامل، والذي لعب الدور الأكبر والأهم في تأسيس الفرع المصري لحركة أنصار السلام. الأخيرة كانت منظمة شعبية دولية ذات توجه يساري، وتكمن قيمتها في أنها تسعى للوقوف ضد الحروب والأحلاف والتكتلات ، وتقيم الصلات والأواصر بين الشعوب . نجحت الحركة نجاحا لامثيل له، ورسم بيكاسو شعارها وانضم لها العشرات من فناني العالم وشخصياته العامة ومفكريه وممثليه وكتابه وشعرائه.

وعندما تراجعت حكومة الضباط الأحرار في مصر عن موافقتها على نشاط حركة أنصار السلام، واعتقلت كثيرا من أعضائها كان من بينهم هي وسعد كامل. وبعد خروجهما من السجن تزوجا مرتين مثلما حدث مع أمها التي تزوجت للمرة الأولى زواجا يهوديا ، وفي المرة الثانية زواجا مسيحيا. لم تكن هناك مشكلة في أن تتزوج ماري من سعد كامل زواجا إسلاميا وهو ما قاما به بالفعل، لكن أسرة ماري وأمها بالتحديد كانت تتمنى زواج ابنتها زواجا مسيحيا، وهو ما كان يستلزم الحصول على إذن من الفاتيكان ولا أقل! واستغرق الحصول عليه وقتا وجهدا، لكنهما كانا يرغبان في تحقيقه أمنية الأم، وتزوجا في نهاية الأمر زواجا ثانيا في الكنيسة.

وسُجنت ماري مرة ثالثة . كان قرار القبض عليها يشملها ويشمل زوجها والعشرات ممن اتهموا بالانضمام لجبهة وطنية تشكلت بين الشيوعيين والوفديين والكثير من أعضاء حركة أنصار السلام والعاطفين عليها. طالت مدة السجن هذه المرة واستمرت خمس سنوات، ولم تترك ماري شاردة أو واردة إلا ووصفتها بالتفصيل عن حياتها داخل السجن، الذي استضاف على القضية نفسها فنانين مثل الراقصة تحية كاريوكا إحدى عضوات حركة أنصار السلام . كما تحكي عن سيدة فلسطينية إسمها آمال زايد قابلتها داخل السجن، وكان مقررا ترحيلها خارج البلاد.

قصة آمال زايد مهمة وكاشفة وتلقي الضوء على تفاصيل مثيرة للانتباه. قالت آمال إنها وأسرتها هربوا إلى مصر من فلسطين عام ١٩٤٨ . كان أبوها عمدة لإحدى المدن في فلسطين. وكانت تقف مع أفراد أسرتها على الشاطئ، يشاهدون السفن الكبيرة والمئات يهبطون منها في مراكب صغيرة ويتعرضون للغرق. كان هؤلاء يهوداً لاجئين من أوروبا ولا يحملون أوراقا من أي نوع بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان الفلسطينيون يهرعون إليهم ويساعدونهم ويستضيفونهم . وبعد إعلان نهاية الانتداب واندلاع الحرب بين الفلسطينيين وآلة الحرب الإسرائيلية، بدأت موجات هروب الفلسطينيين لأن عصابات شتيرن والأرجون بدأت في ارتكاب عمليات قتل وإرهاب الفلسطينيين لطرد الأهالي . وحسبما حكت آمال زايد فإن أباها مات، فقررت أمها أن تهرب بأطفالها الخمسة إلى مصر برا.

وصلت أسرة آمال إلى مصر واستقرت، ودخلت آمال وأشقاؤها مدارس مصرية، بل والتحقت آمال بكلية الفنون الجميلة، حيث تعرفت بزملائها اليساريين وانضمت للحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، وقُبض عليها لهذا السبب، وأخشى ما تخشاه أن يتم ترحيلها، فهي بلا جنسية ولا أوراق ثبوتية.

أما سعد كامل ونايلة-فقد أُفرج عنهما معا بعد خمس سنوات ، ولكن ألقي القبض عليها وحدها مرة أخرى بعد عشرة أيام فقط لترحيلها خارج مصر لأنها لا تملك جنسية مصرية. كان ذلك أقسى ما تعرّضت له على الإطلاق . كيف يقال لها إنها ليست مصرية ؟ وما معنى أنها بلا جنسية؟ وأين تذهب ؟ إنها لا تعرف لها بلدا آخر وأمضت عمرها هنا وأبوها مصري مولود هنا وأمها أمضت عمرها هنا.

بعد سبعة شهور واللجوء إلى كل المعارف والمتنفذين في الدولة، فشل الجميع مما اضطر الكاتب فتحي رضوان خال سعد كامل وأحد الوزراء القريبين من الضباط الأحرار لعرض الأمر على الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا الذي أمر بإبقائها وإعادة بحث وضعها.

في الوقت نفسه، كان حكم الإفراج عنها بعد سنوات خمس يتضمن وضعهما خمس سنوات أخرى تحت المراقبة، وهو ما يعني أن يمر عليهما في منزلهما أحد أفراد الشرطة في أي وقت بعد السادسة مساء ليتأكد من وجودهما ويدوّن ذلك في دفتر مخصوص. وإذا أضفنا إلى ذلك

عدم توافر مصدر دخل منتظم، لعرفنا إلى أي مدى كانت الحياة بالغة الصعوبة.

ربما خفف عنهما اصدقاؤهما من الكتاب اليساريين مثل يوسف إدريس وصلاح حافظ وعبد الرحمن الشرقاوي وغيرهم وغيرهم ممن كانت العلاقة بهم علاقة عائلية حميمة. لا أظن أن هناك كتابا آخر صدر بالعربية ، واستطاع أن يصوّر بكل ذلك الدفء والصدق الأجواء الثقافية والفكرية والصحافية والفنية في مصر، على مدى العقود الثلاثة التي تبدأ من الخمسينات، فقد كانت نايلة كامل آّنذاك واحدة من أبناء ذلك الجيل وتقضي أيامها وتلازم أبناء تلك المرحلة.

فعلى سبيل المثال تحكي نايلة لابنتها عن رحلة شاركت فيها زوجها وابنتها إلى إيطاليا لزيارة أهلها الذين كانوا قد عادوا إلى قرية الأم هناك، ومن هناك استقلوا قطارا إلى باريس حيث كان في انتظارهم هنري كورييل شخصيا، وهو- كما سلف الذكر- أحد القادة الكبار في الحركة الشيوعية المصرية، وتم طرده بقرار من الحكومة واستقر في باريس. ومع ذلك أبقى على علاقة ما، وكان هو الذي أبلغ ثروت عكاشة سفير مصر في باريس آنذاك تفاصيل مهمة من مصادره الخاصة تتعلق باشتراك فرنسا في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، وسارع عكاشة بإبلاغها لعبد الناصر. أما زيارة سعد كامل لباريس واستقبال كورييل له، فهي تتعلق بالواقع الجديد الذي انتهى إليه جمال عبد الناصر، بعد قبوله لمبادرة روجرز عام١٩٦٨ في أعقاب هزيمة يونيو. وكما هو معروف كانت تلك المبادرة التي حملت إسم وزير الخارجية الأميركي هي المرة الأولى التي يُشار فيها لقبول مصر لحل سلمي بكل تداعيات مثل ذلك الحل. وجاءت زيارة سعد كامل لكورييل في ذلك السياق، سياق اتصالات ما سرية للبدء في ترتيبات حل سلمي.

تواصل نايلة حكاياتها بالتفصيل حتى تعرفت ابنتها نادية على رندا شعث ابنة الأستاذ نبيل شعث المقيمة في القاهرة عام ١٩٨٢ أثناء اشتراكهما مع مئات الشباب في الفعاليات المقاومة للغزو الإسرائيلي لبيروت. وبدأت علاقة قوية تجمع بين الأسرتين انتهت بزواج ابنتها دينا وعلي شعث وأنجبا نبيل الذي توجه له نايلة رسالتها في نهاية الكتاب ، خائفة عليه من صدمة قد يشعر بها عندما يعلم بعد سنوات أن جدته هي ماري روزنتال ذات الأصول اليهودية، وتطلب منه أن يفرّق بين الأصول اليهودية وبين الوقوف مع هؤلاء الغزاة

الذين طردوا الفلسطينيين من أرضهم، وتؤكد له أنها لم تتوقف يوما عن الدفاع عن حق الفلسطينيين.

تلك باختصار الخطوط العريضة لسيرة نايلة كامل المولودة باسم ماري روزنتال.

التركيب ونسق التعبير في رواية وحيد الطويلة: «جنازة جديدة لعماد حمدي»

أحمد المديني

في مطلع صيف هذا العام غذّى الروائي الكاتب المصري وحيد الطويلة رصيده الروائي بعمل جديد» جنازة جديدة لعماد حمدي» (دار الشروق، القاهرة،٢٠١٩).سبق للطويلة أن أصدر الروايات التالية :»ألعاب الهوى»(ميريت، القاهرة،٢٠٠٤)؛ «أحمر خفيف» (الدار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨)؛ «باب الليل» (منشورات الاختلاف ودار الأمان، الجزائر ـ الرباط، ٢٠١٣) و«حذاء فلليني»(دار المتوسط. ميلانو، ٢٠١٧). كما صدرت له مجاميع قصصية، أولاها: «كما يليق برجل قصير» (الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠).

برواياته وقصصه ينتظم الطويلة في رعيل الكتاب المصريين والعرب عامة المجددين، ورثة نجيب محفوظ، والخلف الذي يفتح للسرد التخييلي العربي آفاق تطوير وكشف تزيد من تأصيله، وتقوّي تعبيره عن الحياة والإنسان بأدوات فنية محنكة وتجريبية ، ومن منظورات ثقافية اجتماعية لصيقة بمعضلات واقعها، وبرؤية مستنبطة لمشاعر الفرد وأسباب قلقه. في هذه الرواية نزعم أن وحيد الطويلة ينقل كتابته ومعها الرواية العربية إلى حقل خصب، ليضعها في نسق تعبير لغوي وأسلوبي وتمثيلي مبتكر وواعد بمزيد.

* * *

في حوار جرى بين فيليب روث(١٩٣٣ـ ٢٠١٨) وميلان كونديرا(١٩٢٩ـ) سأل الروائي الأميركي زميله التشيكي متحيِّرًا كيف يجنِّس تأليفه :» كتاب الضحك والنسيان»(١٩٧٩)، إنك لم تضع

على غلافه نوع(رواية) لكنك في مجرى النص دوّنت: « هذا الكتاب رواية في شكل تنويعات»؛ فهل هو رواية أم لا؟. أجاب كونديرا بأنه انطلاقا من اقتناع شخصي مبنيٍّ على حكم إستطيقي، فكتابُه رواية، من غير أن يلزم أحدا بهذا الرأي. الرأي عنده أن:» الشكل الروائي يسمح بحرية فسيحة، ومن الخطل اعتبار بنية نمطية ما بمثابة جوهر للرواية لا يُخرق». لا يقتنع روث، هو الروائي الكلاسيكي والواقعي إلى حد بعيد، فيعترض، دأبُه، بمنطق المتشبث بالقواعد الفنية:» ومع هذا، ثمّة بالتأكيد ما يجعل من الرواية روايةً [حقا] ويحُدّ من حريتها». ما يجيب عليه كونديرا، قائلا:» إن الرواية هي نثر طويل مركّب ينهض على لعبة بشخصيات مختلقة، هذه هي الحدود الوحيدة. وأعني بالتركيب، أن الروائيَّ يقبض على موضوعه من كل الزوايا، بشكل كامل، ما أمكنه ذلك. هكذا فهو يقدم مبحثا ساخرا، محكيا روائيا، مقطعا سير ذاتيا، حدثا تاريخيا، خيالات طائرة، والقوة التركيبية للرواية تجمع بين هذا كله كما لو أنها أصوات بوليفونية[تعدد أصوات]. إن وحدة الكتاب لا تتولد بالضرورة من القصة محبوكة، يمكنها أن تتأتى من التيمة». (أنظر: روث. فيليب، « لماذا أكتب» الترجمة الفرنسية، غاليمار، فوليو، ٢٠١٩).

ـ هذه الفقرة المسهبة أقدمها هنا لا لأدعم بها لزوما كلاما سيلحق، بقدر ما أريد أن أتخذ منها مدخلا لهذه القراءة، مرجعية ممكنةً ومثمرة أيضا لإنارة عملٍ وطريقة فنية، نهجٍ في كتابة الرواية، لمحاولة مرافقة العوالم الكبرى التي تزخر بها رواية « جنازة ثانية لعماد حمدي» للروائي وحيد الطويلة(دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٩)، والشخصيات المركزية والمحيطية الفاعلة والمصاحبة، مشتركة جميعها في تركيب عالم كلّي، حافلٍ، متشابكٍ وعديدِ المحاور، بمنطقٍ ورؤيةٍ راجحتين تَمُدّان هذا العالم ـ العمل، بفرادة ميزت دائما نصوص صاحبه، وزودت قراء الرواية العربية، محترفين وهواة، بمادة ومنظور وأسلوب لا تتكرر وتتطلب منه في كل مرة التوفر على أدوات قراءة لحرث أرض بِكر ومزروعة في آن بكدٍّ واجتهاد، معلومة في روايتين هما اليوم علامة توَسِّعان وتطرِّزان صحيفةَ السرد العربي المعاصر المجدد والمتطور:» باب الليل»(٢٠١٦) و»حذاء فلليني»(٢٠١٧). هنا، حيث الكتابة حقلُ تجربة، والسرد دفقُ حكايات، والوصف فرجةٌ على الخلق وطباعهم ورسمٌ للحياة فواجع ومهازل. هنا، حيث تستقل اللغة بوظيفة أدائية وجمالية مسهمةً في بناء نسَق مبنَى القص وهي حاملة لخطابه ودلالته. لا يسوس

الطويلة خيل حكي مستعاد شخوصا وأحداثا ومشاعرَ ومعانٍ نمطية ركيكة، فالرواية عنده إمّا خلاقةٌ بفن مولَّد ومكر ثاقب لحياة ثانية أو لا تكون.

لذلك علينا أن ننتبه، قراءً محترفين وهواة، ونحن عند عتبة» جنازة ثانية لعماد حمدي» إلى ضرورة فرك العيون وشحذ أدوات القراءة من جديد، لكي نتفاعل مع نص، نعم هو يتقدم إلينا مقترحا كاملا، لكن، وهذا جزءٌ من بنيته، ما ينفك على امتداد عملية تكوينه وسيرورته يحرِّضنا على الانتباه ويدعونا إلى الاشتراك في بنائه وترتيبه وتركيبه وفهمه؛ إنه باختصار نص سردي ناقص في كماله، وكامل بنقصانه، ولهذا حديث طويل يمكن أن نجتزئ منه بما يسعف بعض الملاحظات:

ـ نستمد أولاها من مدخل الحوار سالف الذكر بين العملاقين الروائيين الأميركي والتشيكي، والذي يضعنا في صلب رهان الرواية الحديثة(رواية الأزمنة الحديثة)، في اهتزازها وتحوّلها من النسق الكلاسيكي إلى نسَق حداثي، بالمعنى القِيمي والاستطيقي، المرتبطين بتصوّر مختلف للإنسان ورؤية الحياة ومفهوم الفن، بالأحرى الأجناس الأدبية ونظُمها، بين الضوابط والإنزياحات، إذ تخلق بدورها ضوابطها. بخلاف كونديرا، فإن الطويلة جنّس كتابه، وسأفترض أنه لم يفعل، لأقل لم يجد بُدّا لداعي(السوق) ولو وُجد في بيئة إبداعية متفتحة وأكبر من مواضعات النشر والذوق العام المحنط، ما أحسبه إلا سار على منوال المعلم كونديرا، يشربان من الكأس نفسها، الأول صرفا، وكاتبنا العربي يشربها ممزوجة، مبتغاه ومنهجه وعطاؤه، وبعربية أليق وأنسب(الضحك والسلوان) يتوسّل إليهما بكم عنوان.

ـ ثانيها، ونحن لا نسعى إلى المقارنة بتاتا، ينهلان من المنبع الأول الذي مثّل أصل السرد التخييلي، وكبرت معه شجرة أنسابه أصولا وفروعا، أعرقُها ذاك الذي رصده ونظّر له كونديرا(فن الرواية١٩٨٦) وسار على منواله باعتباره أصل المحكي، أنتروبولوجيا وفنيا، يجمعه ثنائي (الدعابة والتهويل) يصبح مثلثا بإضافة الضلع الثالث الذي صنعه ثربانتس في الكيخوتي (باروديغم الوهم والسخرية)، كل رواية جديرة بهذا التجنيس لا بد أن ترتسم فيها خطوط وسمات هذا المثلث، بالإضافة إلى ما تنحته متفردة تسرد تجربة بمنظور وطريقة.

ـ ثالثها، الأبرز، أن رواية الطويلة، باختراقات كونديرا وبدونها، تقطع مع السرد الكلاسيكي لا بتطليقه، نبذه، فمن لا يسرد ليس روائيا أصلا، وإنما بصقله وتفكيكه إلى عناصره الأولى

هي جماع محافلَ وأدواتٍ، حكياً وأحداثاً وسخريةً وخطابات ولغاتٍ وأساليبَ متعددةٍ حول شخصياتٍ ومن محكياتٍ متنوعة شكلاً تصبّ في النهاية في مجرى، في صهريج كبير يمتلئ بها فيما هي تُغذّيه وتسبح فيه، ما يتوجب على القارئ أن يتابع امتلاءه ويقيس عمقه، ذا ما عوّل عليه صاحب العمل ووضع ثقافته وخبرته العامة ومراسه زيادة عن ما يريد هو من الرواية لا ما يتراكم بلا جدوى في الرفوف، هو تسليط الضوء بكثافة ودقة كشّافة على موضوع طاوٍ لمواضيع، على ثيمة كبرى هي ما يعتبرها تمثل» وحدة الكتاب»، لا القصة ذاتها، بالضرورة، بالأحرى الحبكة التشويقية التي اعتاد عليها قارئ غاوٍ ومخدوعٌ تربّى في حضن هذا النوع . نعم، وحيد الطويلة وريث كونديرا، إنما يلعب لعبته الخاصة، أيضا.

ـ تجسيد اللعبة يتم عبر تمثيلها في عديد ألعاب، وهي مجتمعة تصنع تركيب ما سبق تفكيكه، بالطبع، لكي يتخلّق منه جديد، هو مِن رحِمه، وآتٍ على غير منوال، برهانُ أصالة فن، وحذقُ كاتب في (إعادة تدوير) لما يبدو استُهلك وإذ روح جديدة تنفخ فيه وإذا هو حي آخر. لنبدأ من البداية، نختبر كل عنصر على حدة، سنختصر قسرا، القصة التي ترويها الرواية، ويتناوب على سردها سارد واحد، ومضاعف، ومتعدد، انسجاما مع البنية الحكائية الكبرى مكونة من طبقات، تنضوي بداخلها أخرى دنيا، مُشكلة بناء هرميا أو لعبة قطعة puzzle . أولها يبدأ من ضابط مباحث وينتهي إليه وهو يمشي مشيا حقيقيا في خط سير يبدأ من نقطة أ(ميدان) وينتهي إلى نقطة ب(سرادق عزاء) إنما هو خط في حركة دائبة بين ذهاب وإياب، تارة أفقية، خطوة الضابط الذاهب إلى مقصده، حيث أصل مكمن أزمته، يصل إليه بالاستشراف والإستيهام قبل الوصول الواقعي في نقطة نهاية الحركة والسرد ـ النص معا؛ وتارة، الغالب، عمودية وتهبط في استدارات وحفور، هي بمثابة تمثيل وتوسيع مخاوف شخصية مبرزة أزمتها في الرواية، واستعراضُها هو بناءٌ لموضوعها لا سردٌ لحكاية منتهية من البداية. هو الضابط (فجنون) ترك العمل في البوليس قبل شهور بالأحرى فُصل منه، رأسه تطن بالحوادث محشوة بوجوه المجرمين والمرشدين وخصوصا (المسجلين خطرا)، وفي طريقه لتقديم العزاء يستيقظ عالم العفاريت المعشش في الرأس وترى قصصهم بؤرتها المركزية شخصية(ناجح) كبير المسجلين، رقم واحد، مخبر الحكومة وسبب غرقه. ذاهب لتقديم العزاء، متردد، إلى الشخص الذي استخدمه من موقعه ضابط مباحث، اقام معه علاقة بأمر رؤسائه ليكون عين وساعد

الأمن في كل ما يحتاج إليه، فهو سيد في قومه(دولته الموازية) يده العليا أتباعا ونسلا من كل الحرف ولكل الجرائم، وصولا إلى ابنه(هوجان) الذي لن يعرف كيف يرث(مجده) فيقتل غدرا، وها هي جنازة عظيمة تقام له يتوافد للعزاء فيها كل القبيلة، ورغم أن(فجنون) فُصل من وظيفته بسبب ناجح، بل لهذا السبب، ولما اشتركا من(عيش وملح) وكي يبعد عنه شبهة الاشتراك في قتل الوريث، قرر أن يقصد سرادق العزاء، مركز عالم وبؤرة رواية، نبع ومصب، وبينهما مياه عميقة وحكايات.

ـ عالم مثير حقا للصوص والقتلة والنصابين، أعلاهم رتبة المسجلون خطرا» المسجل خطرا هو من يكرر جرائمه مهما نال من عقاب(...) من يصرون على اقتراف فعل ما مهما كان ثمنه، ومهما كان سيّئا في عُرف القانون والمجتمع» وهم» يتحدون دولة المباحث وسلطتها». للتذكير، إنه عالم مندرج في مدوّنة السرد والحياة الاجتماعية للعرب، قديما أولا، حول حياة من سموا ب» الشطار والعيّارين»(انظر هنا كتاب محمد رجب النجار بالعنوان ذاته ـ عالم المعرفة ع ٤٥، سبتمبر ١٩٨١)؛هم بوصف الجاحظ «اللصوص والصعاليك من الشطار والعيارين والفتيان والزّعار والدّعّار والعيناق والحرافيش وأصحاب المهن المُحَقّرة» مثال لقصصهم في تراثنا العربي(علي الزيبق) و(ألف ليلة وليلة)؛ نمط شائع كذلك في الآداب العالمية، يعرف بنوع(البيكاريسك) ازدهر في إسبانيا في القرنين١٧ و١٨(انظر Chandler(F.W). Romance of Roguery ;Part I.The Picaresque Novel in Spain.Newyork . (١٩٦١)

لا عجب إذ يرشح وحيد الطويلة نموذجهم شخصيات بطولية مهيمنة في مجتمع يعرفه جيدا وفي مرحلة تاريخية محددة، وإن عدمت الإشارة إليها زمنيا وكنّي عنها، باعتبار هذا النوع الحكائي الروائي، كشكل فني مغلق، أمكنه الظهور والانتعاش في فترات تاريخية تميزت بتصدع الحكم وتفكك أوصال الدولة واستشراء الفساد وتنازع وتضارب المصالح.. وقد تطور استعمال المصطلح ليطلق ابتداء من الخمسينات ليشمل مواضيع الهامشية واستلاب الإنسان والاضطراب الاجتماعي، ّمواضيع تعبر كلها عن « وضع إنساني في مرحلة أفول وانحطاط، قريبة من تلك التي أنجبت الرواية البيكاريسكية في إسبانيا» وتبلور عنها ما سمي بالبطل الضد(anti-hero) نقيض موقع ومفهوم البطل المركزي في البيكاريسكية الأم.

ـ يزاوج وحيد الطويلة بين البطولتين وعوالمهما متنقلا بخفة ويُسر متسلِّلا بين فضاءاتهما،

ثقافتهما وقيمهما المهيمنة،، سالكا في المسار الحكائي أولا، الهموم والأزمات، ثانيا، واضعا طرفين، بطليين حدّين نقيضين في الطرفين، ولا تجوز المفاضلة بينهما، هما ضروريان معا لتشكيل هذا العالم الذي تحتفي به الرواية وتحفل بحكايات شخوصه وحوادثه ومعضلته، بثيمته. بطولة فجنون ضابط المباحث المكلف بربط العلاقة مع كبير المسجلين، جسر السلطة مع وسط الجريمة والانحراف، في مهنة إلتحق بها بضغط والده الضابط السابق، بينما هواه في الفن، الرسم، وبذا يعيش إزدواجية وتناقضا يهز باستمرار نفسيته وسلوكه، هو البطل الذي ليس في مكانه الطبيعي أو الصحيح، سيخسر في نهاية المطاف وظيفته على يد السلطة نفسها التي ورطته، بتهمة» إقامة علاقة مع مسجل خطر، بالمخالفة للقواعد الوظيفية واللوائح واحترام المهنة» ولن يربح فنه، هو الرسام عرضة لهزء رؤسائه وزملائه (يترك شغله ويذهب لحضور جنازة الممثل عماد حمدي، كأنه قدوة لنهاية حياته في بؤس)؛ وبطولة المسجل الكبير الحاج(ناجح) لننتبه للإسم، يسبغ عليه الكاتب ألقابا شتى(أبو المرشدين، الدكتور، الفيلسوف، رئيس الجمهورية الخامسة للمسجلين الخ..) تاب عن المهنة لكن سطوته بلا حدود تمتد من آخر لص ومحتال في دويلة الحشيش والجريمة والاحتيال، إلى أكبر رأس لو شاء في الدولة الحقيقية، هو مرشدها وخادمها، هذه بتلك، قوتان تتساندان.

ـ هما بطلان، وفي الوقت آفلان، مثل وسطهما حيث يحكمان أو يتخبطان، توجد بطولة فجنون(الفنان المجنون) في مكان غير مناسب، ومع الوظيفة تتجلى بوسائط، بشخصيات تجسِّد الرغبة التي يفتقدها هو(الملسوع من دماغه، مركوب من عفاريت)، هي من يملك شغف المهنة وفحولة القوة فتكون الفاعلة، من يحل أسرار الجرائم ويتماهى مع السلطة إلى حد العشق الشهواني (من طراز عبقرينو، باسل،)، أبطال فجنون الحقيقيون هم (المسجلون خطر). ممثلهم وكبيرهم هو الحاج ناجح. هو أيضا في جَزْر الحرفة(لم يعد يدخل بيده في أي عملية، يكتفي بوضع الخطة) يتجلى في الآخرين، في جيش المحتالين، يده العليا على عالم الحشيش والحشاشين، عُسر المباحث عنده يُسر، قدّم الطويلة لائحة عريضة لنماذج لهم في صيغة بورتريهات بديعة ومفحمة، تشي ببحث واستقصاء دقيقين في عالم واقعي خام، شغل الروائي الجاد والمحنّك، تحتاج لائحة هؤلاء(العيارين والشطار)الجدد إلى دراسة مورفولوجية وسيميائية مستقلة، سيشغف القارئ بشخصيات(شحتة؛ الأصفراني، سيد كبابة، أبو شمس، البيه المفتش المزور)

كلهم بمهارة تبرهن على سلطة رئيس جمهورية المسجلين، ما بالك بشخصية(منير) المنسق العام لحفلات المزاج، وعن الفاتنة (أمّ حواء)، هل سمعتم يوما ب» امرأة تحبل من عينيها»(!)، كلهم في خدمة وإمرة ناجح مؤسس حزب الانبساط، شعاره(الجوزة)، تلتقطه الرواية كما ينبغي لها في أفول، وهو يفقد ابنه هوجان ليبدأ الخطر.

ـ ينبغي أن نعود إلى البداية، لأن الرواية بالرغم ومع كل ما هي مشحونة به من حكايات وشخصيات شطّارية، ما تبثّه من معان وتتحدث من خطابات ولغات وترسم من علامات، تغتني بما هو في مكان آخر، لا يقل جدارة عن الانتباه والتنويه، نعني صناعتها، هندسة كتابتها لتنتسب إلى الرواية وفق نظام، سواء انبنى على قواعد مكرّسة ومألوفة، هنا تسلس قياد قراءتها لارتباطها بشكل سابق؛ وإما فالأدوات وخطاطات العمل السردي المطروقة تَقصُر عن تأطير عامها واحتواء رؤيتها واجتراح مكونات وأبعاد ثيمتها المعقدة والمركبة، وهنا ترجح كفة اجتهاد الطويلة في هيكلة طرائق تؤهل إبداعية نصه، على مستويين: إعادة ابتكار موضوعه بالانغماس في معضلات وحوادث زمنه، وسرده بكسر نسق الكرونولوجية ومركزية القصة المحبوكة ومراحلها، ومثله، أولها بدايتها، وخصوصا وصف وتقديم كل كائن وحادثة وشيء بحس الاحتمال ومنظور الشك وفظاظة الوجود والتيه وانعدام اليقين. وهو ما يوائم، باستثناء عناوين وإشارات محدودة، تجريد المكان ولاـ زمنية الرواية ما دام النسق في الجوهر(أليغوريا)، نهج المؤلف في أعمال سابقة، وفي روايته الجديدة يسخِّر أدوات: الإيقاع، الضمائر النحوية، اللغة/ اللغات، وهوية السارد، ليؤهل عمله باستحقاق.

ـ تمضي الرواية من أول سطر إلى ختامها بخطوات شخصيتها ينتقل من إلى، في خط مستقيم مرة، ومتعرِّج، حلزوني أخرى، كما سبق أن ألمعنا ، إنها تكتب بإيقاع ـ له عديد تعريفات، ليكن نبراً، حركةً منتظمة، تكراراً، هجساً متململا، إدراكها كلها والتنفس بها ـ إيقاع الإيحاء والإشعار بالتردد والإقدام على الخطر: « إلى اين أنت ذاهب؟ عشت أياما خطرة في حياتك، لكنك الآن أمام خطر من نوع جديد(...) يمشي بقدمين مترددتين إلى سيارته، يقدّم واحدةً ويؤخِّر أخرى.». بدءا من هذا العنصر، أكبر وأقوى محفل للعمل، تُرسم الطريق وتُفتح الدائرة، ويندلع القلق، ويسري التوتر، وتنطلق القصة وهي تعطى كاملة باقتضاب شديد لترمي الشخصية، ومعها القارئ، في أتون الإحتمال:» سؤال وحيد يكاد يشرخ دماغه: إلى أين أنت ذاهب؟ إلى مسجّل

خطر! إلى أخطر الخطرين، ملك الإجرام الذي تُطبخ المصائب في دهاليزه». لكي يوجد الإيقاع يحتاج إلى ضبطه وقياسه وانتظامه في بنية التكرار مسموعا أو مقروءا أو مضمرا حسب خصائص النص ونوعية الموقف وطبيعة الموضوع. يصاحب خُطى الشخصية(فجنون) وهو ذاهب إلى(سرادق العزاء) مكمن الخطر، يقرَع نذيرا بأفعال الأمر والنهي» تنهّد الآن»؛ «خُذ نَفَساً»؛ تَراجَع خطوتين»؛» لا تتلفت يمينا» ؛» لا تتلفت يمينا أو يسارا» ويرافق سمع وبصر القارئ، يشوّر طريق الخطر التي يخوض:» إحترس. إحترس أيها القارئ. قف مكانك. ثبِّت قدميك في الأرض جيدا. إسحب نفسا عميقا(...) قلت لك قف مكانك..».

ـ إنها كتابة مسموعة، ولكي يعلو فيها الإيقاع وتذهب بإنذار الخطر وتهويل أجواء المخاطر بالفاعلين والأفعال حدا أقصى من الإيهام والتوتر، يعزّزه الكاتب باختيار(استراتيجي) يملي استخدام ضمير المخاطب، ستتعدى وظيفتها الصرفية، ليست إبدالا، كما تستخدم أحيانا بقلة خبرة ودون مسوِّغ، لضمير المتكلم. في هذه الرواية، سنجده ضميرا للخطاب شكلا، فقط، وإلا فهو مضاعف، بل متعدد، يُضمر في إجرائيته ضميري المتكلم والغائب أيضا ويكتسي بهما لحما وعظما، فكأنه ضمير، صوت جمعي، يستبطن الذات وينزاح عنها، ذلك الانزياح الذي يصنع الحياد مع ال(أنا) التي تصرّ على حضورها فتخترق عنوة قماط المخاطب في تناوب خطابي وظيفي لنصبح أمام زوج(أنت + أنا) ثم ثلاثي (أنا+ أنت+ أنا)، وأخيرا رباعي(أنت + أنا + أنا٢) حين نلاحظ ضمير المخاطب يفقد السيطرة على مؤدّاه النحوي ويعمل عمل (المونولوغ الداخلي interior monologue)، يُرجَع للنص فهو حافل بالأمثلة.

ـ بإمكاننا أن نقدم تأويلات إضافية عن شكل وموقع الضمير، إذ اختياره لا يخلو من قِبل الكاتب من مجازفة، أو مغامرة، ربما محسوبة، الأفضل الانتقال لما بعده عليه المعوّل، يخص وضع(statut) السارد في هذه الرواية، وهو طرح سبقنا إليه المؤلف بالاحتراز والسؤال الاستفهامي والإنكاري وعبارات(خانات) تمويه وتشكيك بنبرة خطابية، جهورية، تبدو لا تحتمل اللبس، وتترك بابه مواربا في آن. إنه طرح مختلف عما انهمكت فيه السرديات الحديثة منذ نهاية الستينات وبلور نحوها الدقيق، خصوصا باجتهادات جيرار جنيت المحددة لمواقع وهوية السارد في السرد تعيِّنه شكلا، لا تستثمر هذا لأي غرض دلالي ـ إيديولوجي، فللدلالة نحوها الخاص. بالإمكان أن نلعب اللعبة ونصنع الترسيمات، لولا أن الطويلة أراحنا منها مؤقتا،

واستدعانا إلى لعبته الخاصة، وهي ماكرة ولا تخلو من الغرض، نتركه لنباهة القارئ. القارئ الشريك في هذا العمل حتى العنق، مستدعى بإلحاح من طرف المؤلف ومورّط بالرغم منه. يوجد هنا شيء يذكّرنا ب(J.D.Salinger) الذي تظهر صورة الكاتب في أعماله وهي تدخل في حقل رؤية القارئ، بما يقيم علاقة معينة بين وضع ومسار السارد كشخصية في التخييل وبين وضعه بوصفه شخصا حرفته كاتب.

ـ لتبيان هذا الموقف، عندنا ومن بداية الرواية خطاب موجه إلى القارئ بعد تنبيهه: « إحترس أيها القارئ» ملفوظه:» لا يعنيك أن تعرف من يتحدث معك، الراوي أم الضابط[فجنون]، أنت في شأن آخر». ثم ينتقل إلى مُرسَلٍ إليه آخر، إلى الضابط نفسه:» طهِّر روحك من أدران المحبة والطيبة قبل أن تدخل[إلى السرادق]» ربما هو القارئ ضمنا، ما يلبث أن يعود إليه(من هو؟) مباشرة ليفطِّنه إلى المسار الحكائي بعد أن أوقف خط السرد الخطيِّ، وهو قليل، في عشرات الوقفات تُرسم بورتريهات المسجلين والمرشدين وأفعالهم:» ربما تكون الآن أيها القارئ أمام باب السرادق..»؛ « ربما قلت لك أيها القارئ أن صلاح جاهين كان يستغرق ليلة كاملة في رسم أنف ناديا لطفي..» لنفترض أن المتلفظ هنا ثلاثة: المؤلف والسارد والشخصية[فجنون] التي تتبنى الإرسالية» في سياق واحد:» أنهيت لوحتي (...) أدور في الغرفة وأرقص». تتم العودة بعد انفصال مؤقت بمثابة لازمةleitmotiv كوحدة إيقاعية في الإيقاع الكلي الساري : « لن أحذّرك هذه المرة أيها القارئ..».

ـ ينتفض الراوي (السارد) ليكشف هوية السارد، ليسترد في نهاية المطاف ما يعتبره سلطته وحده، وهي كذلك إذ إنما يُعير لسانه حين يتحدث آخرون، فيخاطبنا، القارئ مباشرة، ليضع النقاط على الحروف ويعيد القصة ومحمولها ومسؤوليتها إلى نصابها كما يراه، ممهدا بملفوظ قابل للاحتمال، أولا: « إنتبه معي أيها القارئ، هذا الضابط ربما [التشديد من عندنا] كان يضحك علينا، أو أن خياله هو الذي رسم هذه الحكاية؟»، ومنه ينتقل رأسا إلى تلفّظ قطعي ومُبرم يُزيح الشك ويُلغي أيَّ احتمال، ومن ضَرْبِه الخيال، يخاطبنا:» خذ مني [أيها القارئ، الكلام الصحيح، أنا الراوي، أنا من يعرف،[التشديد من عندنا]، وإذا كنت قد تركتُ هذا الضابط [فجنون] يتكلم، فالسبب أنني أردت أن أعرف خبيئته».

إن تحديدَ موقع الضمائر، وتنازعَ هوية الراوي، وتحمّلَ مسؤولية السرد، هو سلطة بالتأكيد،

على جدارتها أكبر من أن يشتملها وصف في خطاطة شكلانية، وتَحصُر حدودَها ترسيمةٌ نحوية، وتؤشِّرها دالاً علامةٌ سيميائية ـ وهي كذلك ـ ، فللشكل محتواه، وللمحتوى الشكلُ الأنسبُ له، من أدواته وتجلياته الكبرى اللغةُ التي كُتب بها هذا العمل، حيث تتعدد اللغات، وتتقاطع الأصوات وتصطفق النبرات، متفاوتةَ الأداء، ذات طبقات، علوّاً وخفوتاً، همساً وجهراً، إعلاناً وإضماراً، تصريحاً وإيحاءً، حسب الشخصيات والمشاعر والمواقف، وكلُّه متناغم، معزوفٌ بإيقاع لا يتوقف تتناوب على صُنعه لغاتٌ ناطقةٌ بالنيابة عن شخصيات هي عمدا أقرب إلى الظلال، لأنها فعلا تستظل بشجرة الشخصية المحورية الثانية، الحاج ناجح، هو نفسُه تكتب سيرتَه وتُفصِح عن أشجانه وأزمته القصوى، فقدان ابنه غيلة..

ـ إنها لغة جامعة ، من مستويات، متعددة السجلات، كتابية أو شفاهية، هي قول فصيح في صيغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بأبسط تعريف للفصاحة. تعدد الضمائر في العمل وبوليفونيته من خصائص هذه اللغة، تتكون من المفردة والصوت والنبرة، نفضت غبار القاموس الطباعي وامتشقت زيادة على (المطاوي) معجمها لسانا ودرعا لأصحابها في حرب حياة ضروس، تتواجه فيها دولتان وسلطتان ورؤيتان للعالم، نساؤها ورجالها، الرسمية، قاموسها مسكوك، والثانية، النقيض الموازية، دولة المسجلين والمرشدين، فتلعب بالمخدرات بأنواع وأسماء: (برشام حضر كفنك، المزاج، أبو صليبة، أبو مفتاح) وهذا طبيعي إذ « المنطقة كلها تعمل بالحشيش، تدخنه كأنها تؤدي الزكاة». هكذا تكتسب الكلمات ملامح المتلفظين بها وفجاجة الواقع الذي يتمرغون في مستنقعه. إن للابتذال والفظاظة و(الغروتيسك)جماليتها. هي ليست قميصا يوضع على جسد النص بل لحم حي بندوب غائرة تخرط الوجه والأعضاء، ولكي توفر الرواية شعريتها تحتاج إلى الكسوة الجمالية الملائمة لموضوعها ومعناها، وللمواقف الدرامية المشخّصة، فتستطيع أيضا أن تنزاح عن (نثرية) الكتابة واليومي، لترقى إلى مقام الشعر تنقل لنا به حالة الحاج ناجح في ذروة أزمته وانحداره النهائي إلى الأفول، وهو يستقبل المعزين في مقتل ابنه في السرادق الذي ومن البداية إلى النهاية المفتوحة تتبأر فيه مختلف مكونات وروافد الرواية:» هائم في ملكوته، لا يريد لهذه الليلة أن تنتهي، لا يريد لليل أن يغادر رغم أنه ليل وسيمضي، لا يريد أن يواجه نفسه في الصباح، لا يخشى أحدا، بل يخشى على نفسه من نفسه، من ضوء النهار».

ـ عندي، يدخل هذا كله أخيرا في مضمار اللعب، حيث جوهر كتابة الرواية ومجتلى تصورها وفعلها، يحضر ويشغل السرد فيها لعبة جدية، مصوّبة، تتعدد صيغُه وتنفتح على إمكانات مقعَّدة مجربة، وأخرى تجريبية، كلاسيكية وتحديثية، هذا العمل كتب في هذا التيار، باختيار فني حاسم وقاه من استنساخ من حرثوا هذه الأرض في الرواية العربية، المصرية خاصة (خيري شلبي،على سبيل المثال) ومنحه صوته المتفرد، بنوع ما يرويه من حكايات، ويعرضه من أحداث، ويستبطنه من مشاعر، ويكشف عنه من خبيء ويفضحه من مستور، وينتهكه من محرم، ويعرّيه من صفيق وقبيح، وينشره على حبال، وكل ما في رواية وحيد الطويلة تضافر وتناغم ليصل به إلى كرشندو لعبة التخييل بالقول على لسان الراوي:» صدقني[أيها القارئ] وأنت حر طبعا، ربما لم يحدث كل ما سبق، وربما حدث». واضح، ، يحاول الكاتب أن يتنكر ولن يلبث ينقض إنكاره، سيعلن عن نفسه بموارية من خلف (فجنون)، في ملحق الرواية المعنون ب» أربع لوحات ورقصة، زعانف توجّب الاستغناء عنها، إنما لكل كاتب اختياره، وقراره، أبى الطويلة إلا أن يثبته بصيغة الفصول اللوحات الملحقة (وهي ميتا ـ نصية) يقول لمن يعنيه الأمر إن كل ما رويته حدث، وأنني غرضي الموضوع مثل كونديرا الذي كتب دائما ملتزما ضد التوتاليتارية والاستبداد، وبالإبداع دائما

كتب قاسم حداد في سيرته:» ليس بهذا الشكل، ولا بشكل آخر»:» يأتي الكاتب من حدود الأشكال إلى حرية الكتابة، نحو لذة المجازفة ونشوة الاكتشاف، ليشهر جمالية المغامرة، وعندما لا يصدر الكاتب ـ في النص ـ عن تصور/ مثال، سابق يقلده أو ينسخ على منواله، فإن مسؤولية الإقناع تتوقف عندئذ على طاقة الابتكار والجمال، حيث ينبغي على الأدوات والعناصر المبتكرة أن تكون قادرة على بعث الروح الإنساني في شكل يليق بالحرية التي يزعمها، وينبغي أن يتشكل هذا الفعل في كل لحظة». (مسارات للنشر والتوزيع، الكويت، ط مزيدة ومنقحة. ٢٠١٥. ص ٢٣).

الرواية التفاعلية والأدب الرقمي .. تحديات المبدع العربي

بديعة زيدان

عرّفت د. فاطمة البريكي في كتابها «مدخل إلى الأدب التفاعلي» العام ٢٠٠٦، بأنه «الأدب الذي يوظف معطيات التكنولوجيا الحديثة في تقديم جنس أدبي جديد، يجمع بين الأدبية والإلكترونية، ولا يمكن أن يتأتى لمتلقيه إلا عبر الوسيط الإلكتروني، أي من خلال الشاشة الزرقاء. ولا يكون هذا الأدب تفاعلياً إلا إذا أعطى الملتقي مساحة تعادل، أو تزيد عن مساحة المبدع الأصلي للنص»، إلا أن الإماراتية الحاصلة على درجة الدكتوراه في الأدب العربي ومؤسسة وصاحبة دار سما للنشر والتوزيع، وخلال مشاركتها في ملتقى الشارقة للسرد بدورته السادسة عشرة (الرواية التفاعلية: الماهية والخصائص)، وانتظمت في العاصمة الأردنية عمّان، مؤخراً، اختصرت هذا التعريف بسطرين: هو الأدب غير الخطي المقدم عبر الوسيط الإلكتروني، مستثمراً أدواته، وتقنياته، ومميزاته، ليتفاعل المتلقي مع النص، أو مع غيره من المتلقين، ويضيف للنص أو يحظى بحث الاختيار فيه. ولا أفرق هنا بين رواية أو قصيدة أو مسرحية، بل أتحدث عموماً عن الأدب بكل أجناسه.

وكانت البريكي تحدثت في فصل جديد أضافته للطبعة الثانية من كتابها «الكتابة والتكنولوجيا» عن فكرة «توظيف التطبيقات الذكية في تقديم نصوص أدبية تفاعلية حديثة»، لافتة إلى أن الكاتب المغربي عبد الواحد استيتو قام بالفعل بذلك.صاحب أول رواية «فيسبوكية» عربية

كانت «الرواية الفيسبوكية» الأولى عالمياً نمساوية المنشأ، بعنوان «زويربلير» (Zwirbler) للكاتب جيرجيلي تيغلاسي، المولود في العاصمة الهنغارية بودابست، واطلقها بالألمانية لمن هم فوق السابعة عشرة، هو الذي قال وقتها "مع زويربلير يمكن لمستخدمي الفيسبوك الدخول إلى

هذا العمل .. كلما زاد عدد الأشخاص المتورطين، زاد الأمر إثارة، رافضاً من يعتبر هذا الشكل من الأدب "شاذاً"، بقوله: إنه الأدب بشكل جديد، لا يهدف إلى الاستعاضة عنه، بل إلى الاستكمال».

عربياً، كان الروائي المغربي عبد الواحد استيتو السبّاق إلى إطلاق أول "رواية فيسبوكية" باللغة العربية، بعنوان "على بعد ملمتر واحد فقط" أو "زهرليزا"، وحازت جائزة الإبداع العربي عن فئة "الإبداع الأدبي المغربي"، العام الماضي، وهي جائزة تقوم عليها مؤسسة الفكر العربي الدولية.

وقال استيتو: لم تكن الفقرة عن سابق تفكير، بل كانت قصة في بادئ الأمر على صفحتي الشخصية في "فيسبوك"، ولم أكملها، فتفاجأت من تفاعل القراء معها، وسؤالهم عن تتمة القصة غير المكتملة، التي أوحت لي بفكرة الرواية، بحيث يكون هذا التفاعل الذي رافق القصة، مرافقاً لكل فصل من فصول الرواية.

وكما في حالة تيغلاسي، استهجن استيتو بعض من يتهمون هذا النوع من الكتابة بالإساءة إلى الأدب، مضيفاً: الأدب كتابة، والكتابة موجهة إلى القارئ، أما الوسيلة التي يستخدمها الكاتب فلا ضير أن تدخل في إطار التجريب، وما يراه هو مناسباً .. أرى أن مثل هذه التجربة تخلق حالة تفاعل مع القارئ ربما لم تكن مسبوقة، وبالتالي تدخلنا في عالم آخر وجديد من التفاعل بين الكاتب وقارئه، وهو ليس موجوداً في الرواية بشكلها الكلاسيكي.

وأكد استيتو في حديث خاص بأن "الرواية الفيسبوكية" ليست "رواية تشاركية، بل تفاعلية، بمعنى أن الأفكار في نهاية المطاف هي أفكار الكاتب، كما حال الكتابة نفسها صياغة ولغة وغير ذلك، ولكن ما يحدث أنه بالانطلاق من تعليق ما قد تغيّر حدثاً، وهذا برأيي يخلق متعة لدى الكاتب".

ولفت استيتو إلى أنه عندما بدأ كتابة روايته لم تكن "الأحداث مرسومة بشكل كامل في ذهني.. فقط كانت الفكرة العامة واضحة المعالم بالنسبة لي، وانطلاقاً من بعض التعليقات كانت تتحد مسارات ما، وهذا لا يعني أنهم شاركوني في كتابة الرواية، وهو ما ينطبق على بعض استطلاعات الرأي التي كنت أقوم فيها أثناء الكتابة، وكان ذلك يتعلق بحدثين مصيريين، فكان الخيار الاستفتاء على مصير شخوص محورية في الرواية، ففي أحدهما كان على بطل الرواية أن يهاجر أو يدخل السجن، وكان التصويت لصالح الهجرة إلى بلجيكا، فاستجبت للقراء مع أنني كنت أنوي الكتابة عن تجربة السجن، انطلاقاً من مشاهداتي وما سمعته، لكن بعد عودته من الهجرة، أدخلته إلى

السجن، كي أكتب ما أريد، وبالتالي التفاعلية هنا نسبية، ويبقى للكاتب القرار في كتابة ما يشاء، فلا يؤثر التفاعل على حبكة الرواية، واصفاً الأمر بالتحدي والمغامرة والمتعة والشغف في آن.

واعترف صاحب أول "رواية فيسبوكية" عربية بأنه كان يكتب في كثير الأحايين تحت الضغط .. وقال: لو لم أكن أكتب تحت الضغط ما كنت لأكتب رواية، في الغالب كنت سأتوقف ولن أكملها، فكثير من الروايات بدأت فيها ولم أكملها بسبب ما يمكن أن نطلق عليه الكسل الكتابي، لأن بداياتي كانت في كتابة القصة القصيرة، وأجد فيها ذاتي، وشعرت بأن الرواية صعبة عليّ، وما كنت لأكملها لولا هذا التفاعل الذي شكل حافزاً قوياً لإتمامها.

وأشار إلى أن "هذا النوع من الكتابة صعب للغاية، كون المتلقي هو في حالة تواجد دائم، وبالتالي لا يمكن أن تكون التغييرات جوهرية هنا، في إثر التفاعل من القارئ الفيسبوكي المتأهب، والمتابع باستمرار، علاوة على عدم تغيير الفصول، وتقديم أو تأخير بعضها على بعض، أو الغياب لفترة زمنية طويلة نسبياً، فلو غاب يومين لوجد من يلح عليه بالمتابعة، وهذا أمر ضاغط.

وشدد: مع ذلك، ورغم هذه الضغوط، فأنا في نهاية المطاف أمسك بخطوط الرواية كاملة، فأنا صاحب القرار حتى في طرح استطلاعات الرأي، على سبيل المثال لا الحصر، والأمر ذاته ينطبق على الحبكة، وخيوط لعبة الكتابة الروائية.

واللافت في الرواية أن الشخصية المحورية فيها هي شخصية "فيسبوكية"، بمعنى أن لها ارتباطا وثيقا بالمحيط الإلكتروني الأزرق، بحيث انخرط في علاقة عبر "فيسبوك"، وانتقلت هذه العلاقة من الواقع الافتراضي إلى الواقع الفعلي، فالـ"فيسبوك" هنا هو فضاء يشكل الرواية وموضوعها أيضاً.

وقال استيتو: أنا مغرم بهذا العالم الأزرق القادر، وفق تقديري، على تغيير حياة الإنسان بشكل كامل، فتفصيل صغير على "فيسبوك" قد يشكل مصائر البشر، ولذا فالعنوان كان "على بعد ميليمتر واحد فقط"، فهذه المسافة القصيرة للغاية كان لها دورها في تغيير مصير الشخصية المحورية في الرواية.

وتدور الرواية حول شخص تتغير حياته بشكل كامل بسبب تردده في التعاطي مع قائمة الأصدقاء في "فيسبوك"، فكان "سيمسح إحدى الصديقات من قائمة أصدقائه في العالم الأزرق بعد أن

أزعجته بتعليق، لكنه تردد، وبسبب هذا التردد، يبدأ حوار بينهما، ومن ثم علاقة، ويلتقيان بعدها على أرض الواقع، وفي هذا الوقت تسرق لوحة الموناليزا المغربية الموجودة فعلياً في المتحف الأميركي بطنجة، وصاحبتها الزهرة رسمها فنان اسكتلندي في خمسينات القرن الماضي، وكان عمرها، آنذاك خمسة عشر عاماً، ولا تزال تعيش في الولايات المتحدة .. وما بين الزهرة والموناليزا، اقترح عليّ أحد القراء الدمج بينهما وتسمية الرواية اسما ثانياً يضاف إلى الأول، ويدمج ما بين زهرة وموناليزا، ألا وهو زهرليزا».

ولفت استيتو، الذي يعمل على ترجمة روايته لعدة لغات، ونشر طبعة عربية لها، إلى أنه يخاطب جيل الوسائط الإلكترونية الحديثة، وأنصار الكتاب الورقي في آن، حيث تم طباعة الرواية ورقياً بعد الانتهاء منها على "فيسبوك"، مع أن التركيز أكثر على القارئ المهتم بالجانب التقني، مع أن هؤلاء القراء التفاعليين صوّتوا بشكل كبير جداً لطباعتها في كتاب ورقي، أطلق في المتحف الأميركي بطنجة وسط حضور كبير، وهي نسخة طبق الأصل لما كتب على "فيسبوك"، لكنها منقحة لغوياً، لأن "التغيير سيكون خيانة للقارئ الفيسبوكي».

وما بعد روايته «الفيسبوكية» والموسومة بـ»المشرّد»، انطلق استيتو في تجربة رقمية جديدة في عالم الرواية، بعيداً عن «فيسبوك»، متجهاً إلى تقنية التطبيق الإلكتروني المتاح لمستخدمي الهواتف التي تعمل بنظامي «آيفون» و»أندرويرد»، وبدأ فيها تحت عنوان «طنجو» منذ شباط من العام ٢٠١٩ .. وحولها قال: على حد علمي هي الرواية الأولى على مستوى العالم التي تخرج بهذا الشكل، أي عبر تطبيق يتم تحميله على الهاتف المحمول، وتنشر فيه الفصول تباعاً، وبنفس الطريقة، أكتب الفصل الأول دون أدنى فكرة عن الفصل الثاني .. ستكون لديّ فكرة عامة عن الأحداث، لكن التفاصيل أتركها لما بعد الانتهاء من الفصل الأول وتفاعل القراء معه، وهكذا .. سيكون هناك مساحات للتعليقات والتقييم، وقد يتاح وسائط أخرى .. هي تجربة جديدة، ولا أدري ماذا يمكن أن توفر لي، ومع ذلك يبقى إغراء فيسبوك كبيراً.

ولا يشكك استيتو بأن المستقبل للأدب الرقمي .. وقال: هذه الحالة التفاعلية التي تتخلق ما بين الكاتب وقرائه عبر الوسائط التقنية المتعددة، تجعل من الكاتب أسيراً لها، فمن يجرّبها من الصعب عليه العودة لكتابة رواية كلاسيكية، خاتماً: لا أتصور، الآن، أنني سأكتب رواية، أكون فيها أنا والمكتب والفراغ، لابد من قارئ أمامي، وكأنني أصبحت حكواتياً أروي لأناس يحيطون

بي .. من الصعب عليّ أن أضحي بهذه المتعة، وأعتقد أن المستقبل للأدب الرقمي.

تحديات وآثار الثورة الرقمية والإبداع

وأكد الناقد المغربي سعيد يقطين على أن «لا مراء في أن الثورة الرقمية باتت واقعاً يفرض نفسه على المشتغلين بأي مجال من المجالات التي تتصل بحياة الإنسان، بصفة عامة، والثقافة والإبداع والعلوم، بصورة خاصة. كما أن تناولها من زاوية التحديات والآثار يستنهض الهمم للتفكير والتساؤل عن مستقبل علاقتنا العربية بالثورة الرقمية بما تفرضه علينا من إشكالات ورهانات، ورؤيات تضعنا أمام محك الاختيار، والوعي بما تقتضيه من مبادرات تؤدي بنا إما إلى تحقيق المراد (كسب التحدي)، أو العجز عن الانخراط فيما صارت الأمم والشعوب تتنافس فيه من أجل فرض وجودها، واللحاق بالركب الرقمي الذي بات ضرورة من ضرورات العصر الذي نعيش فيه».

ويتحدث يقطين عن ثلاثة تحديات يتصل كل منها بأثر من الآثار التي علينا العمل من أجل تحقيقها، وأولها تحدٍ عصري حديث، فقد فرض عصر النهضة العربية طرح أسئلة حول العصر الحديث. وتباينت التصورات جواباً عنها. رأى الاتجاه التقليدي أن مستقبلنا في ماضينا، وكان موقفه سلبياً من العصر لأنه وليد ثقافة الآخر. ورأى أصحاب الاتجاه الليبرالي أن مستقبلنا معقود على تبني الثقافة الغربية الحديثة. وإلى الآن ما نزال نقيم ثنائية «الأصالة» و«المعاصرة». لا تختلف الثورة الرقمية عن الإبدال الذي فرض علينا السؤال: من نحن وما الآخر؟ إننا أمام عصر جديد (العصر الرقمي) يفرض تحديات جديدة على البشرية جمعاء، وعلينا اتخاذ أحد السبيلين: العمل الجاد من أجل الانخراط في العصر، أو التقاعس عن ذلك. وإذا كان المأمول سلوك السبيل الأول فهو يتطلب منا نحن العرب اتخاذ موقف واضح منها، من خلال السؤال المركزي المزدوج: كيف يمكننا الانتقال إلى العصر الرقمي والانخراط فيه؟ وكيف يمكننا تجاوز عتبة «استهلاك» ما ينتجه الآخرون من تقنيات جديدة، وأفكار، وإبداعات جديدة تتماشى معه، إلى «الإنتاج» الذي يؤهلنا للمساهمة في تطوير منجزات هذا العصر، فكرياً وتكنولوجيا؟ .. لقد بات ما يتصل بالثورة الرقمية جزءاً من واقعنا العربي، فهل آثار هذا التحدي في مستوى تطلعات الإنسان العربي وتوقعاته لننخرط في العصر بشكل إيجابي؟ أم أننا سنظل سوقاً استهلاكية

لمنجزات الثورة الرقمية؟

والتحدي الثاني، وفق يقطين، هو تاريخي تراثي، إذ يرى أن التحديث العصري الحديث لا يقف عند حدود استعمال التكنولوجيا الجديدة للمعلومات والتواصل فقط في الحياة اليومية، والعلمية، والإدارية الحالية، إنه يفرض علينا أيضاً التعامل مع تاريخنا وتراثنا بالاستفادة مما تقدمه لنا هذه الثورة الرقمية. إن تجديد علاقتنا بتراثنا في مختلف أشكاله وصوره بما يتوافق مع هذه الثورة هو جزء من التحدي العصري الحديث لأنه نظير ما وقع حين عرف العرب الطباعة، فراحوا يعملون على طبع التراث العربي من خلال الاستفادة من علم «التحقيق». إنه بدون ترهين تراثنا رقمياً، عبر تحويله ليصبح التعامل معه ممكناً من خلال الوسائط الجديدة ستظل المسافة بين التاريخ والعصر، أو بين المكتوب والمطبوع والمرقوم قائمة في ثقافتنا وإبداعنا، فهل يكفي تصوير تراثنا ونقله إلى الفضاء الشبكي بقصد تخزينه، وأرشفته، لادعاء أننا منخرطون في العصر الرقمي؟ أم لا بد من ترهين تراثنا في مختلف صيغه وأشكاله الشفاهية والكتابية والطباعية ليقدم من خلال ما توفره لنا عملية الترقيم والرقامة من إمكانيات تتعدى التصوير؟

أما التحدي الثقافي الإبداعي، فهو التحدي الثالث هنا، حيث أن «امتلاك المعرفة الرقمية، ومحاربة الأميّة المتصلة بها، وتطوير الأنظمة التعليمية والتربوية، وإنتاج الفنون والآداب العربية بالاستفادة مما حققته الثورة الرقمية على الصعيد العالمي؟ ومتى، وكيف يمكننا تجاوز هذا التحدي بهدف إنتاج النص الرقمي العربي، سواء على مستوى الثقافتين العلمية والأدبية؟».

ويرى يقطين أن «كل هذه التحديات، وما يتصل بها من آثار تترابط فيما بينها وتتواشج. لقد علمنا على التمييز بينها لضرورة التحليل، وبغية تحديد المجالات، أو الاختصاصات التي ينبغي تطويرها على مستوى البحث والدراسة لمواجهة أي تحد بما يلزمه من أدوات وإجراءات للنظر والعمل. إنه بدون تحديد المجالات العلمية التي تمكننا من فهم واستيعاب وتعميق تصوراتنا حول التحديات وآثارها لا يمكننا أبداً الشروع في العمل الذي يسهم في تذليل الصعوبات، وتحقيق الآثار المطلوبة.

وخلص يقطين إلى أن «الثورة الرقمية لا تتجسد فقط من خلال ما تقدمه لنا من وسائل أدوات للاشتغال. إنها علوم وتقنيات، وفن، وبدون استيعاب هذه الشمولية التي تتسم بها لا يمكننا فهم التحديات، ولا كسب الرهانات وتحقيق الآثار المطلوبة. لم نستفد من الوضعية في أواخر

فهم الظواهر، ومن بينها الإبداع الأدبي، ودراساتها دراسة موضوعية، فهل نحن في مستوى تحدي الثورة الرقمية، وتحقيق آثارها الإيجابية؟ هذا هو السؤال المركزي الذي يستدعي النقاش البناء والحوار العملي وليس السجال الشفاهي العقيم».

تخييل المعجبين

وتحدث د. رشيد الإدريسي، أستاذ الأدب في جامعة الحسن الثاني بالمملكة المغربية، عن «تخييل المعجبين» لافتاً إلى أنه «إبداع رقمي ارتبط بشبكة الإنترنت، ويعتني بتحليله ونقده الدراسات الثقافية، وهو عبارة عن نصوص يكتبها بعض المعجبين من أجل تمديد وتعديل منتوج ثقافي يحظى باهتمامهم ومتابعتهم، وقد لا يصل الأمر في تعاملهم مع هذا المنتوج إلى درجة تحويله بشكل كليّ. وتخييل المعجبين لا يقتصر على الرواية وحدها، بل قد ينتج هؤلاء المعجبون نصوصاً على هامش مسلسل تلفزيوني أو شريط سينمائي أو رسوم متحركة يابانية أو لعبة فيديو في شبكة الإنترنت، أو قد يكون التخييل متعلقاً بشخصية مشهورة أو بفن الرسم وهو ما يسمى بفن المعجبين».

وأضاف الإدريسي: في ارتباطه بالرواية، يمكن لتخييل المعجبين أن يحوّل خاتمة العمل الروائي إلى بداية جديدة فيمدد العمل الروائي الأصلي ويفتح أحداثه على آفاق جديدة. كما يمكنه أن يعود إلى ما قبل بداية الأحداث التي يقدمها الروائي أو أن يملأ الفجوات والبياضات التي يتركها العمل الأدبي في صيغته الورقية. فالكتابة من هذا النوع تتيح للمتلقي أن يحوّل النص إلى نص كما كان يود له بعض القراء أن يكون، وذلك على مستويات عدة كإغناء العلاقات القائمة بين الشخوص، أو تحويل شخوص ثانوية إلى شخوص رئيسية، أو إضافة شخوص أخرى، كما يمكنه أن يكتفي باستحضار عوالم كاتب بعينه، واستعمالها كإطار تنسج فيه شخوص جديدة مبتكرة سلسلة من الأحداث التي لا علاقة لها بالرواية الأصلية ككل.

وأكد في هذا المجال «بما أن تخييل المعجبين يدخل ضمن المحتويات الملحقة بمحتويات أولى أصدرها مؤلفوها في شكل ورقي وبشكل قانوني، وبما أنه يدخل في إطار إبداعات الهواة، فإن النقاد يعتبرونه إبداعاً شعبياً لكونه يتقاسم مع الآداب الشعبية الكثير من الخصائص التي من

بينها كونه يساهم في أن تتم كتابياً، على عكس الآداب الشعبية التي يسمح لها بذلك كونها شفهية. وشعبية تخييل المعجبين هي من الأسباب التي جعلت الدراسات الثقافية توليه اهتماماً بالغاً، على اعتبار أنها لا تقيم حدوداً بين الأدب الشعبي والأدب العالمي، ولذلك خصصت له فرعاً سمته بـ»دراسات المعجبين»، والذي دشنه الناقد الأميركي هنري جينكنز أحد ممثلي ما يسمى ثقافة الالتقائية. وما يجب تأكيده هنا هو أن هذا النوع من الكتابة وإن اعتبر شعبياً، إلا أن استعماله للكتابة يجعله أكثر ارتباطاً بالمجتمعات التي تنتشر فيها القراءة بنسبة عالية، أو على الأقل بنسب مقبولة، تسمح باجتماع مجموعة من الأفراد واشتراكهم في الإعجاب بمنتوج أدبي ما، وعملهم على تطويره في كل الاتجاهات.

وظهور هذا النوع من الإبداع، وفق الإدريسي، لا يمكن تفسيره بالرؤية الميكانيكية التي قدمها مارشال ماكلوهان، والتي تنطلق من حتمية تقنية، وتفسر ظهور هذا الجنس الأدبي الرقمي بوصفه وليد الإنترنت والتقدم التكنولوجي الذي ركز الكثير من التقنيات الحديثة في الأجهزة الذكية التي تحولت إلى خزان للمعطيات وألة تصوير وآلة للقراءة وآلة لتحديد الموقع الجغرافي وآلة للتواصل .. أي أن هذه الأجهزة تحولت إلى أشبه بسكين سويسري يمكن أن تنجز به أشياء كثيرة تتطلب أدوات متعددة. فالكثير من نماذج هذا الإبداع الرقمي هي نتيجة تحولات ثقافية أوسع، أو على الأقل نتيجة لالتقاء حاجة لدى الكثير من مستهلكي الوسائط المتعددة على شبكة الإنترنت.

المؤلف الشبح

«المؤلف الشبح» هي الاستعارة التي يمكن أن تصور الوضع الذي يجد فيه المؤلف نفسه في الفضاء الرقمي، على حد تعبير الإدريسي، وهذه الصفة من دلالاتها الغياب وعدم القدرة على الإمساك بالشيء بشكل واضح وتمييزه عن غيره. ولتدقيق هذه الصفة، فإن أول إشارة يجب التأكيد عليها هي أنها لا تنطبق على كل المؤلفين بمستوى واحد، إذ نجد من لا يغيب إلا ليحضر بشكل طاغ، كما نجد من يتيح الفرصة للقراء بشكل شبه متكافئ. ولذلك فإن الحكم على كل حالة رهين بالخطة المتبعة في التأليف في طرفه، ورهين بالبرامج أو التطبيقات المعتمدة من طرفه ومن طرف المتفاعلين معه.

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الكتابة التفاعلية تقوم على: محو المؤلف وعلى العمل الجماعي وعلى غياب التراتبية بين المساهمين، وهو ما يسمح للطالب أن يصحح للعالِم، كما أن من نتائج الرقمنة بوصفها الشكل الأول للنشر تقليص وظيفة النشر إلى أدنى مستوياتها، وإقصاء الوسطاء بين المؤلف والمتلقين. وهذا في جزء منه صحيح، ذلك أن وسيلة الكتابة نفسها وبمفردها، بإمكانها أن تغيّر من الأسلوب، وقد تؤثر في طريقة الإبداع، وفي الوضع الاعتباري للمؤلف، فما بالك عندما تصبح الكتابة تشاركية فيكون التأثير أكثر عمقاً. وقد أثبت هذه الحقيقة علماء الأعصاب، حيث انتهوا إلى أن ذلك له علاقة بمستوى التركيز، وله فعله في الأسلوب، وفي التذكر، وفي النسيان. وعند استحضار الإنترنت والإمكانيات التي يوفرها للكاتب، يصبح ذلك بدهياً، خاصة بإضافة جوانب أخرى فيما يتعلق بالتوثيق والبحث والمطالعة، واستلهام ما تزخر به الشبكة من معطيات تسمح للمؤلف بأن يكتب عن أمكنة لم يسبق له زيارتها، لدرجة جعلت أحد النقاد يتحدث عن الواقعية الشبكية.

المراوحة ما بين التفاعلية والتقليدية

الناقد والكاتب الكويتي فهد الهندال تحدث عن أثر الرواية التفاعلية على الرواية التقليدية، من خلال التساؤل عما إذا كانت الرواية في حال نشرها وقرر الكاتب إنتاجها عبر تجريب الرواية التفاعلية فإنها تندرج حينها في إطار الصنف الثاني أم لا؟ وإذا كانت الرواية بالأصل تفاعلية، وتحولت للنشر الطباعي، فهل تفقد بذلك تفاعليتها؟

وأكد الهندال: لا شك عند تحوّل الرواية التفاعلية إلى رواية منشورة أي مطبوعة، يعني انتفاء صفتها التفاعلية، لكونها باتت في صورة نهائية لا تقبل التعديل لاحقاً، كما يظن. ولكن ألا يمكن أن تنشر منها طبعات لاحقة، قد تكون فيها استدراكات أو تعديلات عليها بعد تفاعل المتلقين معها كمطبوعة.

والمعروف، وفق ما اشار الهندال، أن هناك طبعات معدّلة أو منقحة لروايات سبق لها أن صدرت في طبعات أولى، وجد الكاتب أو الناشر ضرورة في إصدار طبعات جديدة منقحة، بناء على ردة فعل من القراء وآرائهم، أو أنها صدرت كأجزاء متفرقة، ثم صدرت جميعها في مجلد واحد. إذن

كان هناك بالأصل تفاعل مع المتلقي، ولكنه تفاعل لاحق وليس متزامناً.

وهنا، يضيف الهندال، ثمة أسئلة تحتاج مراناً كبيراً واطلاعاً واسعاً على مزاجية وانتقائية المتلقي، لأنه في الحالتين سلطة لا مناص منها وإليها. والرواية التقليدية عانت من هذه السلطة لطبيعة التواصل اللاحق مع العمل دون أدنى فرصة للتفاعل مع النص والكاتب. وقد أتساءل هنا: على من تقع مسؤولية تراجع التوصيلية في الرواية؟ هل تقع على عاتق المبدع (الروائي)، أم (المتلقي)، أم النص (الرواية)؟ .. بهذا السؤال انطلقت الناقدة السورية أسماء معيكل في كتابها «الأفق المفتوح: نظرية التوصيل في الخطاب الروائي المعاصر»، حيث أنها وصلت إلى نتيجة شبه نهائية، أنه ومع ثورة المعلوماتية في عصر التكنولوجيا المتقدمة، بدأ المبدع يحسّ بتراجع دور القراءة مما جعله يهمل القارئ عموماً، ويجنح إلى تغليب الجانب الذاتي في إبداعه على الجانب الموضوعي، وهذا أدى إلى تراجع الوظيفة التواصلية، برغم أنها الأساسية للرواية. لأن المبدع، كما ترى معيكل، لم يعد يهتم بمتلقيه، بقدر ما هو مهتم بالتعبير عن قناعاته ورؤاه بعيداً عن الموضوعية، وهو ما انعكس سلباً على المتلقي الذي بدأ يشعر بإهمال المبدع له، وربما تعاليه عليه، مما جعل عدد القراء الذين ما زالوا يقرأون له في تراجع مستمر من جهة، ومن جهة ثانية أخذ القارئ يتهم المبدع بالغموض وصعوبة فهمه. وبدوره رفض المبدع الاتهامات الموجهة إليه، وراح يحض القارئ على ضرورة تسلحه بالأدوات المعرفية اللازمة لفتح أبواب النص، والدخول إلى عالمه. كما بدأ يطالب بقارئ خارق أو نموذجي لنصّه.

ماركيز وغارابيتو

وفي ذات الإطار، أجد من المناسب ما ذكر حول غابرييل غارسيا ماركيز، الذي صرّح وهو في مجده الأدبي العالمي أنه بدأ الكتابة بمحض الصدفة، فقط ليبرهن لأحد أصدقائه أن جيله قادر على إنجاب كتّاب، ليسقط في شرك الكتابة، ويجد فيها المتعة، ثم في الشرك التالي وهو اكتشاف أن عشقه للكتابة يفوق حبّه لأي شيء آخر في الدنيا.

وذكر الصحافي الكولومبي إليساندرو دوكي، أنه زار ماركيز بينما كان يكتب رواية «الجنرال في متاهته»، ولاحظ كيف توقف ماركيز عن الكتابة فجأة وأجرى مكالمة هاتفية، صدمت دوكي

نفسه، حيث اتصل ليسأل أحد علماء الفلك إن كان قد تحقق من أن القمر كان بدراً في ١٠ حزيران ١٨١٣، فجاءت الإجابة مخيّبة لآماله، لأن ماركيز تغيّر وجهه وطلب من محدثه التأكد من هذه المعلومة في أقرب وقت ممكن لأمر مهم وعاجل وخاص بفصل كامل في الرواية. فسأله دوكي: أي قارئ سيهتم بهذه المعلومة، ومن سيبحث إن كان القمر يوم ١٠ حزيران ١٨١٣ كاملاً أم لا؟، فأجابه ماركيز بأهمية وجود قارئ متابع للروائي، مستشهداً باسم فرناندو غارابيتو الذي كان يمسك بأخطاء ماركيز في روايات سابقة، وبناء على ذلك يعتبره أصعب قارئ له، رغم أنه لم يكن يعرفه شخصياً.

وعندما صدرت رواية «الجنرال في متاهته» لم يجد دوكي الفصل الذي يحتوي على ليلة العاشر من حزيران ١٨١٣ في غرناطة الجديدة، حيث لم يكن قمرها بدراً كما تمنى ماركيز. ليكمل دوكي أنه بعد ثلاث أو أربع سنوات تعرف إلى غارابيتو شخصياً وأخبره بلقائه بماركيز وما حدث. حينها قال غارابيتو: من المؤسف أن نُحرم من فصل بهذا الجمال بسببي.

في المقابل كان هناك تفاعل بين الروائي أمبرتو إيكو وقرّائه حول بعض أعماله الروائية، كتغييره لاسم شخصية روائية حتى لا يكون هناك ترابط نصّي سهل المعاينة والإدراك مع حياة روائي يحمل ذات الاسم. فللقارئ الحق في الربط بينهما. أو عندما سأله أحد أصدقائه عن اسم «امبارو» في رواية «بندول فوكو»، وأنه بالأصل اسم لجبل مذكور في بعض الأغاني الشعبية، مما سبب مفاجأة له. وغيرها من الحكايات التي ذكرها عن تفاعل القرّاء معه، فلنتخيل لو كان هناك تفاعل بالأصل قائم بين الروائي وقرائه عبر روابط متاحة للتواصل والتعليق؟ وهذا ما نحاول الوصول إليه، والحديث للهندال هنا، بأن أثر الرواية التفاعلية قد يكون حميداً ومنجِزاً للنص في حال اتصاله مع المتلقي في لحظة خلق وتكوين النص.

تدريبات صفية على الرقص مع الاحتمال والمستحيل وممارسة التناقض والقفز من النوافذ

زياد خداش

صحت بصوت عالٍ: كم أنتم رائعون ، كلكم محقون وربما أنتم مخطئون، المسألة ليست هنا، في الخطأ والصواب، لا أحد يخطئ أبداً، ولا أحد يصيب أبدا، أننا فقط نحيا، الحياة ملعب للتفكير والصراع، ولكل منا كرته، وجماهيره وأهدافه، وأريد أن أذكركم أن، فعلتنا العجيبة هذه تعج بالتناقضات، وهذا جزء من هويتنا كبشر، نحن نظن أننا محقون، لكن شخصا ما قد يظهر ويحطم نظرياتنا هذه، أريدكم أن تعرفوا ، أن لا شيء نهائي ولا حد للتفكير والابداع، والاختلاف ديننا الجديد. تذكروا أن، كلمة جنون ربما يعتبرها شخص ما شيء مبتذل، مستهلك، وآخرون ربما يعتبرونها دابة نستغلها للاستعراض والشهرة والتميز. كل شيء جائز، وربما هم محقون، لا أدري، أنا لا أدري ، فقط أعرف شيئا واحدا، أنني أحبكم.

تعالوا أحضنكم.

الأطفال والمجانين والأموات هم وحدهم الأحرار تماماً. اندهش طلابي لكلامي هذا، وهمسوا: لقد جن أستاذنا. حصتنا هذا اليوم ستكون حصة جنون وحلم وتدمير للعرف التربوي، سنقفز من النافذة واحداً تلو الآخر. سنختار أن نكون إما مجانين وإما أمواتاً وإما أطفالاً، دون أن نأخذ إذناً من أحد، أترون تلك البحيرة القذرة هناك، سنذهب إليها ونتحلَّق حولها ونجرب أن نخرب تقاليد هذا اليوم الدراسي، وأن نستبدل هذه التقاليد بتقاليد غريبة، بحثاً عن الإنساني المشوه فينا، عن طاقتنا على الحياة، عن حقنا في التجريب وممارسة الأخطاء.

قال ماجد: سيغضب المدير لأننا لم نأخذ إذنه للخروج.

قال رام: ليغضب، نحن نريده أن يغضب. ألسنا نهدف إلى التخريب؟

قال فراس: لكن التخريب عمل غير جيد لأنه يؤدي إلى خراب المجتمع.

قال عمر: لا أتفق معك. هذا يعتمد على ما سنخربه.

قال ماهر: أنا سأخرج من بوابة المدرسة لأنني لا أستطيع القفز من النافذة بسبب ألم في كاحلي.

قال وسام: لتبقَ في الصف إذن. أنت لا تصلح للجنون.

قلت أنا: الألم ضروري لاكتشاف هنائنا الداخلي، اقفز وتألم مرة أخرى، لأنك ستصل قبلنا لإشراقات الجنون.

قال أنس: أستاذ أنت غريب جداً، كيف تنصح شخصاً بالألم؟!

سمعت أحمد يهمس: بالفعل، أستاذنا مجنون.

قلت: أو قد أكون طفلاً أو ميتاً، وتعلم دائما أن ترفع صوتك في الحديث، لا تهمس برأيك همسا، يا أحمد هناك مساحة هائلة هنا من حرية الرأي، تذكر ذلك، ألسنا مخربين للوضع الاجتماعي السائد، حيث لا يتمكن إنسان بلادنا من إبداء رأيه في وجه أبيه أو معلمه أو حاكمه أو شيخ الجامع، لقد خربنا هذا التقليد واستبدلناه بتقليد آخر: أن نتحرر من الخوف ونقول ما نحسه تماماً.

قال عمرو: الآن عرفت معنى التخريب، انه يعني تحطيم السيئ، وهذا سلوك رائع.

ضج الصف بشغب مفاجئ، اشتبك الطلاب مع بعضهم البعض في نقاش عنيف، تخلله صياح واتهامات،

طلبت منهم أن يصمتوا ويستمعوا إليّ: تذكروا أن الجنون والتخريب لا يعني الفوضى والصياح والتجريح، تذكروا أن التحرر من السجون التي فينا هو عمل منظم وواعٍ، وان التخريب الجميل هو عمل إنساني وأخلاقي يهدف إلى البحث عن النضير والمزدهر والأزرق فينا، لا لا فائدة أبداً في كلامنا وإيماننا إذا لم نقرن هذا الكلام بسلوك.

لنبدأ الجنون.

ماذا اخترتم أن تكونوا؟

قال القليل منهم: مجانين.

قال الكثير منهم: أطفالاً.

طالبان اثنان فقط اختارا أن يكونا ميتين.

الصف الثامن يقع في الطابق الثاني، والعلو ليس مرتفعاً جداً. قلت لهم: اقفزوا ورائي واحداً تلو الآخر، مع صيحة يطلقها كل قافز تعبر عن فرحه بالتحرر من الجدران، قفزت أمامهم، مع صيحة فرح وحشية، فقفزوا ورائي، مالئين الدنيا صياحا، أكثر من نصف الطلاب بقوا في الصف، أطلوا برؤوسهم واعتذروا قائلين: لا نستطيع أن نمارس هذا الجنون، سيغضب المدير منا، ونخاف من آلام القفز، ثم أننا غير مقتنعين بالفكرة.

قلت لهم: رائع أن تختاروا موقفاً حتى لو كان معارضاً لفكرتي، لكم الحرية في الرفض، مطلق الحرية لكم.

مشيت مع الطلاب الخمسة عشر متجهين إلى البركة القذرة القريبة من المدرسة، أطلت رؤوس المدرسين والطلاب من الصفوف المختلفة، أطلت ساخرة وغاضبة ومستغربة، سمعنا الفوضى تدب في أنحاء المدرسة، صاح الطلاب: يا مجانين!

ابتسم مجانيني. قلت لهم: يا لها من تسمية رائعة، نحن بالفعل مجانين.

سمعنا مدرس التاريخ يصيح: يجب أن نضع حداً لهذا الجنون، أنت تشجع الطلاب على الفوضى والعبث.

صاح مدرس الفيزياء: درَّست في عشر مدارس، لم أشهد سلوكاً مثل هذا في حياتي، يجب أن يوجه لك إنذار فوري.

سمعنا المدير ينادي بصوت عال: ارجع يا أستاذ أرجوك، إلى أين أنت ذاهب مع الطلاب، أنت لم تستشرني، أرجوك هناك ضيوف قادمون من وزارة التربية بعد نصف ساعة، لا تفضحني أرجوك، عد يا أستاذ، عودوا يا طلاب، سأوجه لكم إنذارات.

ضحكت مع الطلاب بصوت عالٍ.

قال رام: هذا ما ننتظره. صح أستاذ؟

أجبت: طبعاً لو لم نر سخريتهم واستغرابهم وتهديداتهم لما نجحت فكرتنا.

سأل أيمن: وما هي فكرتنا يا أستاذ؟

الفكرة ستتوصلون إليها بأنفسكم، فقط وافقوا على التجربة.

قالوا بصوت واحد وعالٍ: نحن موافقون.

تحلقنا حول البركة، كانت بركة قذرة مليئة بالأوراق والأكياس وبقايا الطعام وحيوانات ميتة، كانت الدنيا مهيأة لمطر غزير، الرؤوس الساخرة ما زالت تطل علينا، التهديدات نسمعها بوضوح، وصياح الطلاب الساخر داخل الصفوف يملأ الدنيا.

جاء المدير، توسل إلي أن أعود، فهناك ضيوف، بإمكاني أن أفعل ذالك لاحقاً إن أردت، قلت له: عد إلى مكتبك أرجوك لا تحرجني أنا، نحن نتعلم الآن، أنا لم أفعل شيئاً سيئاً أو مخالفاً لمصالح الطلاب، فقط هي تجربة.

قال: لكنك لم تأخذ إذني. قلت: هذا من شروط التجربة، معط المدير شعره غاضباً وشتم تجاربي وصاح: قلت لك هناك ضيوف قادمون، لن يستوعبوا طريقة خروجك إلى هنا بالقفز مع الطلاب من النافذة، ولن يفهموا وجود طلاب تحت المطر مع مدرسهم أرجوك عدددددد.

لا تتعب نفسك يا مديري، افعل ما تراه مناسباً، قم بصلاحياتك، اعطني إنذاراً ولن تمس بسوء من قبل مفتشيك.

انصرف المدير غاضباً ومتوعداً، وحائراً وانصرفنا نحن إلى تخريبنا.

قلت للطلاب: وكأن السماء تشاطرنا رغبتنا في اكتشاف أنفسنا وفي فحص الأشياء.

قال علاء: المطر ضروري لزيادة الجنون.

قال راضي: الرياح جداً مطلوبة للتحدي.

قلت: لنبدأ.

قال سمير: أستاذ أنا خائف من المدير، فهو صديق والدي أخشي أن يعاقبني.

عاد سمير إلى الصف وراح يشارك في السخرية منا مع جوقة الساخرين.

تحلقنا نحن الأربعة عشر طالباً ومعلماً حول البركة. بدأ المطر يسقط والرياح تعصف بوجوهنا، والدوريات العسكرية الاحتلالية تمر من أمامنا متشككة وخائفة.

بدأت الحديث:

لا شك أن الحياة ورطة، نحن متورطون فيها بوجودنا لأن الحرية هي نقيض الحياة، الحرية الحقيقية تتواجد فقط في الميت وفي المجنون والطفل. نحن لسنا ميتين ولسنا أطفالاً ولا مجانين حتى لو زعمنا ذلك، فنحن نكذب، لهذا نحن متورطون. إن المدرسة تمثل رمزاً واضحاً من رموز هذا التورط في شكل مصغر وصادق جداً عن الحياة وشروطها وقيودها، في المدرسة نحن نتحرك حواساً وأذهاناً ... معلمين وطلاب، بأمر شيء جهنمي ومروع اسمه الجرس، هذا الجرس هو معادل موضوعي عادل ومنطقي ووفي للحياة، الحياة جرس ضخم معلق في أعناقنا، إذا أحببنا أن نضحك بصوت عالٍ مثلا في قاعة كبيرة يتم فيها تأبين زعيم أمة سابق، يدق الجرس دقة فظيعة وينهرنا معلناً توبيخنا ويهددنا بعقاب كبير، فنمتنع عن الضحك صاغرين.

قال عبد الله: ولكن الضحك حرام في مناسبة كهذه.

قلت: أرأيت يا عبد الله الجرس دق عندك الآن، كما سيدق عندي وعند أي بشر آخرين، إنها الحياة، نحن لا نناقش أخلاقية الموضوع أو عدم أخلاقيته، نحن نناقش دلالته الوجودية والإنسانية، نحن نصف عن بعد وبشكل حيادي جداً.

سأل رشيد: وما الحل يا أستاذ هل نموت ؟ أم نجن؟ أم نصبح أطفالاً؟

الموت مرفوض لأننا نحب الحياة، نحب ورطتنا، أرأيتم شخصاً يحب ألمه، إنه الإنسان.

قال زيد: إذن، سنختار الجنون أو الطفولة.

هيا اختاروا، قلت لهم.

معظمهم اختار الطفولة وقليل منهم اختار الجنون.

أنا اخترت الطفولة، قلت لهم.

طلبت منهم أن يفتحوا عيونهم ويرفعوا نظراتهم إلى الأعلى، ضامين حبات المطر إلى حدقاتهم،

ويحلموا بمدرسة جديدة مفترضة.

مدرسة مستحيلة وبعيدة عن الواقع البشري، مارسوا الحلم الغريب واللامتحقق، فهنا السعادة، أن نحلم بما لا يأتي أبداً، هنا الجمال: أن نمشي باتجاه الحلم الصعب، متعبين ومتحدرين من سلالتنا الهشة والمسكينة، رفع الطلاب نظراتهم إلى الأعلى ... اغتسلت عيونهم بالمطر.

قال هيثم: أريد مدرسة مصنوعة من شجر، لا أريد جدران وأسقف أريد أن أتلقى دروسي وبجانبي ثمار التوت.

٢

قال جمعة: أريد مدرسة في البحر المقاعد فيها زوارق والطباشير زيت السمك.

قال خالد: لا أريد بنايات، بإمكاننا أن ندرس تحت الشجر أو فوق الجبال.

قال أسعد: لا نريد سبورات، نريد أن نكتب على الجدران.

قال عوني: المدرسة التي أحلم بها أريدها بعيدة عن المدينة، وتؤدي إليها شوارع خاصة بنا، لا سيارات نرى، ولا مارة.

قال رمزي: أحب المدرسة التي اجلس فيها براحتي، أمد رجلي أو اجلس على الأرض مثلاً.

قال هادي: أريد مدرسة فيها مسابح وقاعات واسعة للرياضة وحواسيب كبيرة بحجم المدينة، حتى ندخل في الحاسوب ونتحول إلى أرقام أو صفحات.

قال سالم: أريد مدرسة لا أجراس فيها أبداً.

قال صالح: أريد مدرسة لا مدير فيها ولا نائب مدير، فقط معلمين.

سألت الطلاب: ألم تشعروا بمتعة في الحلم المستحيل.

أجابوا: نعم .. نعم .. نعم.

كم هو رائع أن نحلم بأشياء لا تتحقق، لو تحققت هذه الأحلام لفقدت كونها أحلاماً، لفقدت جمالها وغرائبيتها الخاصة، لأصبحت واقعاً مملاً، نتمنى أن نغيره، لواقع آخر، هنا السعادة: في الطريق إلى الحلم: نحن محرومون من الحلم المستحيل لأننا نريد أن نغير واقعنا نحو الأفضل ولا نعرف لذة الحلم نفسها.

للتخلص من لعبة الأحلام المتحققة والمتواصلة، اقترح أن نتدرب على الحلم الصعب، ليس بحثاً عن واقع جديد، بل بحث عن لذة الحلم نفسها، عن دهشة التحسر والألم والتأمل في ورطتنا وسجوننا ومحدوديتنا الذهنية، هذا لا يعني أني أطلب منكم أن لا تحلموا أحلاماً تتحقق لتغيروا واقعكم، أبداً أنا مع تغيير الواقع دائما، ولكن هذا موضوع آخر.

قال رام: سأحلم أن أصبح إلهاً.

ضحك الطلاب.

قال رشيد: سأحلم أن يصبح لي ست عيون وأربع عشرة أذناً حتى أسمع موسيقى الحوت الأزرق.

قلت أنا: سأحلم أن أطير فوق العالم واسمع ثرثرة الفراش.

قال خالد: سأحلم أن أصبح الهواء لأتجسس على اليهود.

حلم طلابي أحلاماً خرافية، وحلمت معهم، راقبت النشوة وهي تقطر من رموشهم مع حبات المطر، كنا خمسة عشر كائناً بشرياً نحاول أن نلتف على ورطتنا الوجودية وعلى أجراسنا،(خربنا) التقليد اليومي، دون أن نؤذي أحداً.

هل رأيتم كم هو رائع أن نخرج عن السائد واليومي، وأن نتعرض للتهديد؛ تهديد الذين لا يشبهوننا، تهديد الذين لم يصل ذهنهم لمستوى ذهننا، أن تشعر بالتميز عن غيرك فهذا انتصار كبير ولذة عميقة.

قال رشيد: نحن خربنا الخراب إذن.

قال رام: نحن متميزون ومرتفعون عن الأرض، نحن نبني بطريقتنا وهم يهدمون ويعتقدون أنهم يبنون.

قال سالم: سمير تخاذل وهرب.

قلت أنا: وهكذا هي الحياة؛ هناك متخاذلون وصامدون، وهناك مرتبكون ومؤمنون، وتذكروا أن الجميل غريب دائما.

نحن غرباء بالنسبة إليهم لأننا جميلون، رقص الطلاب فرحا.

نحن جميلون، نحن جميلون.

ماذا تعلمنا من هذه التجربة. سألت الطلاب ونحن عائدون إلى سجوننا.

قال عبد الله: أنا لا أدري، ولكني أدري أني استمتعت.

قال خالد: خربنا الخراب، نحن، إذن، مناضلون ومنتمون.

قال رام: تدربنا على الحلم المستحيل.

قال سليم: عرفنا كم نحن متميزون.

قال زيد: غامرنا ولم نخف من التهديدات.

قال عمر: عرفنا قيمة ومتعة أن لا نستمع إلا لأنفسنا.

قال رشيد: قاومنا الخوف من الجرس.

قال أيمن: قمنا بما نحن مقتنعون فيه على الرغم من التهديد والوعيد.

سألت طلابي: وما دلالة البركة القذرة؟

ألم تتساءلوا عنها؟

وعن رمزيتها؟

قال رام: هي القبح والظلام والخوف ونحن حولها لنتحداها.

قال عبد الله: هي الغموض المثير.

قال خالد: هي الضحية التي تشبهنا.

قال راضي: هي نحن، ونحن نحاول أن نصفي أنفسنا من القاذورات.

صحت بصوت عالٍ: كم أنتم رائعون ... نعم ... نعم. كلكم محقون لا أحد يخطئ أبداً، ولا أحد يصيب أبدا، أننا فقط نحيا، الحياة ملعب للتفكير والصراع، ولكل منا كرته، وجماهيره وأهدافه، وأريد أن أذكركم أن، فعلتنا العجيبة هذه تعج بالتناقضات، وهذا جزء من هويتنا كبشر، نحن نظن أننا محقون، لكن شخصا ما قد يظهر ويحطم نظرياتنا هذه، أريدكم أن تعرفوا ، أن لا شيء نهائي ولا حد للتفكير والابداع، والاختلاف ديننا الجديد. تذكروا أن، كلمة جنون ربما يعتبرها شخص ما شيء مبتذل، مستهلك، وآخرون ربما يعتبرونها دابة نستغلها للاستعراض والشهرة

والتميز. كل سيء جائز، وربما هم محقون، لا أدري، أنا لا أدري ، فقط أعرف شيئا واحدا، أنني أحبكم.

تعالوا أحضنكم.

عدنا إلى الصف- السجن، كان صفير الطلاب يتعالى سخرية منا،(لهم كل الحق في ذلك،)وكان المعلمون يرمقوننا بحنق وحيرة،(نتفهم ذلك) والمدير ينتظرنا بإنذاراته، طبيعي فنحن (نعرف سياق روحه).

كنا نحن موكب نور ومعرفة يشق طريقه وسط ظلمة مثيرة للشفقة. او بما لم نكن كذلك ابدا، ربما نتوهم، أو ربما مجرد نحيا.

إلى طلابي انتبهوا: ربما أكون كذابا أو مجرد موظف مفلس يتسلى أو كاتبا يتدرب، كل ما اقترحته عليكم ليس بالضرورة هو الطريق، ما أقوله لكم ليس تعاليما، أو دروسا، هو خبرة رجل سيء الحظ. اختاروا طريقكم ونوع صيحاتكم ومستواها، لستُ قائدا، لستُ معلما، اظنني شخص حزين ووحيد جدا حد ادعاء انه يعرف شيئا ما.

حالة طلاق ما بين الأدب والسينما الفلسطينيين!

يوسف الشايب

ما بعد روايات غسان كنفاني، لا أذكر أن ثمة فيلماً أو مسلسلاً تلفزيونياً فلسطينياً أو عربياً، أنتج بالاستناد إلى رواية أو نص روائي فلسطيني، مع أن عديد الروايات الفلسطينية حققت ولا تزال حضوراً محلياً وعربياً بل وعالمياً، وحصدت الكثير من الجوائز المهمة على المستوى العربي، ونافست على جوائز عالمية، ولهذا بطبيعة الحال أسبابه.

من أبرز هذه الأسباب قد يكون أنه لم يعد هناك جهات إنتاجية تتبع منظمة التحرير الفلسطينية، أو منظمات وحركات في إطارها، في حين لم تعد مؤسسات السينما العربية الرسمية، على قلتها، تلتفت إلى القضية الفلسطينية، خاصة بعد أن غادرها الفلسطينيون أو أنصارهم ممن كانوا يعملون فيها، فلم يعد هناك مؤسسة للسينما الفلسطينية خرجت من رحم حركة فتح، ولم تعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أو «الديمقراطية» وغيرها تنتج أفلاماً، إلا ما ندر، فالأفلام التي أنتجت من وحي روايات «عائد إلى حيفا»، و«رجال في الشمس»، و«ما تبقى لكم»، منها ما أنتجته المؤسسة العامة للسينما في سورية، ومنها ما أنتجته الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بشكل أساسي، غير الأفلام التي أنتجت من وحي روايات كنفاني في إيران، والبحرين، وغيرهما.

فوزارة الثقافة الفلسطينية، ومنذ تأسيسها بقيام السلطة الفلسطينية العام ١٩٩٤، لم تقم بدورها، ليس في إنتاج الأفلام فحسب، بل في دعم واضح الرؤى لإنتاج هذه الأفلام، ودعم الرواية الفلسطينية بمفهوم المنتَج الإبداعي الروائي عبر السينما، والأمر ذاته ينطبق على الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون الفلسطينية، رغم أن الجهتين تنفقان مبالغ مالية بمئات آلاف الدولارات، إن لم يكن أكثر، على دعم فعاليات وأفلام سينمائية ومسلسلات درامية، في كثير من الحالات هي دون

المستوى، وبلا سياسة واضحة، ولا لجان مؤهلة، إلا ما ندر، في اختيار وتحديد من يستحق هذا الدعم من عدمه، أما الفصائل الفلسطينية فهي في حالة سبات أغلب الأحيان على المستوى العام، فما بالك على المستوى الثقافي، الذي هو في ذيل القائمة بالنسبة للحكومات الفلسطينية المتعاقبة التي خصت وزارة الثقافة بأقل موازنة لا تخولها إنتاج نصف فيلم روائي، وكذلك منظمة التحرير التي ألغت مؤخراً دائرة الثقافة والإعلام فيها!

حول أفلام روايات كنفاني

وكان الناقد الفلسطيني الراحل بشار إبراهيم أكد: لم يشتغل غسان في السينما.. نعم!.. بل ربما لم يرَ أيّاً من الأفلام التي صيغت عن رواياته، وذلك على الرغم من أنه وقّع عقدي تحويل روايتين له، على الأقل، هما رواية "ما تبقى لكم" ١٩٦٦، و"رجال في الشمس" ١٩٦٣، إلى فيلمين روائيين طويلين، هما على التوالي فيلم "السكين" لخالد حمادة ١٩٧١، و"رجال في الشمس" لتوفيق صالح ١٩٧٢.

استشهد غسان يوم الثامن من تموز العام ١٩٧٢، وهذا ما يعني أنه عاش بضعة أشهر، بعد الانتهاء من العمليات الفنية للفيلمين، وجهوزيتهما للعرض.. فمن المؤكد أن فيلم «المخدوعون» كان قد أصبح جاهزاً للعرض، منذ الشهر الأخير في العام ١٩٧١، وكذلك بصدد فيلم «السكين».. فهل ان غسان لم يكن مستعجلاً لمشاهدة الفيلمين اللذين صيغا عن روايتيه؟.. بل لماذا لم يقم بكتابة سيناريو وحوار أيّ من الفيلمين؟.. ولماذا لم يقم بإسناد تلك المهمة لمن يختاره هو من الأدباء، وترك العملية لمخرجي فيلميه على السواء؟.. فالمخرج خالد حماده كتب سيناريو وحوار فيلمه «السكين»، وتوفيق صالح كتب سيناريو وحوار فيلمه «المخدوعون»، وفق إبراهيم، الذي أضاف: ثمة من يقول إن غسان لم يكن قادراً على الحضور إلى دمشق، لأسباب سياسية تتعلق بكونه عضواً في حركة القوميين العرب (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كانت الجناح الفلسطيني العسكري لها)، وثمة من يقول إن الأفلام لم تكن قادرة على السفر إليه في بيروت!

وتابع إبراهيم: حسناً، ربما يصحُّ هذا على مستوى تبرير عدم مشاهدة غسان للفيلمين، فما المبرر إذاً لعدم مشاركته في كتابة السيناريو والحوار، أو الإشراف عليه، أو الاهتمام بحضور التصوير؟.. مع ملاحظة أن جزءاً كبيراً من فيلم «المخدوعون» تمَّ تصويره في العراق... مضى غسان كنفاني شهيداً،

وترك خلفه فيلمين أُعدًّا عن روايتين له، لم يشاهد الفيلمين، ولا اهتم بمتابعة العمل فيهما.. وإذا كان الفيلمان حققا مستويين متفاوتين من البراعة، فإن السينما التي لم يبدُ أن غسان قد اهتم بها في حياته، شاءت الاهتمام به بطريقتها الخاصة، واقتفاء أثره في أفلام تتالت طيلة ثلاثين سنة مضت على رحيله..

وكان لافتاً ما قاله إبراهيم في مقال له على مدونته صيف العام ٢٠١٥: خلال مهرجان مسقط السينمائي الدولي ٢٠٠٨، التقيتُ المخرج توفيق صالح، فأكد لي أن غسان كنفاني شاهد نسخة من فيلم «المخدوعون»، حيث حمل المخرج بنفسه نسخة إلى بيروت حيث كان غسان، لكن إبراهيم لو ينشر على لسان المخرج رأي كنفاني بالفيلم.

وكان «السكين" الفيلم الروائي الطويل، الذي أعده المخرج خالد حمادة، لصالح المؤسسة العامة للسينما السورية أول فيلم روائي طويل يتمُّ إنجازه عن أدب غسان كنفاني، من خلال الرواية التي حملت عنوان «ما تبقى لكم» والتي كتبها في العام ١٩٦٦. وبمقدار ما كانت الرواية معقدة وصعبة، إذ اعتمد فيها غسان على التجريب الفني، من خلال تحطيم الزمان والمكان، والانتقالات المتعددة بينهما، واستثمار الدلالات الرمزية العميقة الغور، واستنطاق الأشياء بعد أنسنتها.. بالمقدار ذاته كان على الفيلم، الذي حرص المخرج على الأمانة الأدبية التامة له، أن يواجه سؤال النجاح، الأمر الذي أنتج آراء متفاوتة، بل متناقضة، تجاه الفيلم، ففي حيت اعتبر الناقد السوري محمد الأحمد أن فيلم «السكين» واحداً من أهم الأفلام السورية، فهناك من رأى أن الفيلم لم يستطع الارتقاء إلى مستوى الرواية، وهناك من رأى أن كليهما على حق، إذ لا يجوز المقارنة بين الوسيط الأدبي «الرواية» والوسيط السينمائي، فلكل منهما أدواته، وطرائقه في التعبير.

لكن فيلم «المخدوعون»، الذي أخرجه المصري توفيق صالح، للمؤسسة العامة للسينما في سورية، العام ١٩٧٢، بعد فشله في الحصول على موافقة المؤسسة العامة لسينما في مصر، لإنتاجه، منذ العام ١٩٦٥، فقد حصل على العديد من الجوائز، وأهمها «التانيت الذهبي» في مهرجان قرطاج ١٩٧٢، والجائزة الأولى لمنظمة السينما الكاثوليكية ١٩٧٥، فضلاً عن الاحترام والتقدير الذي ارتقى إلى أن اعتبر الفيلم «رائعة كلاسيكية من السينما العربية» ووصف عمل توفيق صالح في هذا الفيلم بأنه «إخراج حاذق وتصوير نضر بالأسود والأبيض»، وأن الفيلم «واحد من أفضل درامات التشويق في السينما العربية".

وفي العام ١٩٨٢ بادرت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، من خلال ما أسمته يومها «مؤسسة الأرض للإنتاج السينمائي» إلى تحقيق الفيلم الروائي الطويل اليتيم في إطار سينما الثورة الفلسطينية، وذلك عندما أسندت إلى المخرج العراقي قاسم حول مهمة إخراج فيلم «عائد إلى حيفا» عن رواية غسان التي تحمل ذات الاسم، ويمكن القول إن الآراء اختلفت حول هذا الفيلم، ومستواه الفني، على الرغم أن المخرج استعان بقيس الزبيدي في المونتاج، وزياد الرحباني في الموسيقى، ومجموعة من الممثلين اللبنانيين والسوريين من طراز حنان الحاج علي، وبول مطر، وجمال سليمان، والألمانية كريستين شور.. وفي رأي عديد النقاد، فقد كان الفيلم مرتبكاً، لا يرتقي إلى الطموح.. إخراجاً وتمثيلاً، مع إدراكنا لصعوبة الظروف، وضعف الإمكانيات المتوفرة.

وفي العام ١٩٩٥، قام المخرج الإيراني سيف الله بالعمل على رواية «عائد إلى حيفا» مرة أخرى ليقدِّم فيلمه "المتبقي".. وهو إذ استعان بطاقم من الممثلين السوريين أمثال جمال سليمان وجيانا عيد وسلمى المصري وعلاء الدين كوكش وغسان مسعود، وغيرهم من الممثلين والفنيين والتقنيين، وقام بتصوير فيلمه في مدينة اللاذقية توأم مدينة حيفا، فقد صنع فيلماً تلتبس هويته بين العربية والإيرانية، إذ خرجت نسخة ناطقة بالعربية وأخرى مدبلجة بالفارسية.

ولكن السؤال الأهم، الذي يثيره فيلم «المتبقي»، هو إلى أيّ مدى يحقُّ لمخرج سينمائي أن يغيّر في جوهر الحكاية، ومنطق الرواية الأدبية، التي يعتمد عليها؟.. ففي حين أراد غسان كنفاني البحث في مسألة كون «الإنسان قضية»، وذلك من خلال حكاية تحوّل خلدون الفلسطيني، الذي تُرك، وإن قسراً، رضيعاً ليتربى في كنف أسرة يهودية، فأصبح جندياً صهيونياً بامتياز اسمه «دوف»!.. فإن المخرج الإيراني سيف الله داد، غيّر في جوهر الحكاية، وسياقاتها، ليجعلها قصة كفاح الفلسطينيين، وليبني في فيلمه نشيداً للكفاح المسلح الفلسطيني، لم يكن في بال غسان كنفاني التطرّق إليه، في هذه الرواية، بل كان همه إثارة السؤال حول من هو الصهيوني؟.. ومن هو الفلسطيني؟.

المستوى الفني لأفلام السبعينيات

وبالعودة إلى الحديث عن أفلام سبعينيات القرن الماضي، وكلها عن روايات لكنفاني، والمستوى الفني لهذه الأفلام فالأمر مختلف، فما تسنى لي من مشاهدته بدا مرتبكاً حد الركاكة، على مستوى

التمثيل، والتصوير، وحتى الحبكة، والتقنيات الإخراجية، وهنا أعود إلى ندوة «السينما والقضية الفلسطينية» التي أدارها المصور الشهيد هاني جوهرية العام ١٩٧٢، ونشرت في مجلة «شؤون فلسطينية»، صيف العام نفسه، لأنقل آراء بعض رواد سينما الثورة الفلسطينية من فلسطينيين وعرب، بحيث تطرقوا للحديث بشكل عام عن الطريقة التي طرحت فيها فلسطين في السينما العربية، فقال المخرج اللبناني كريستان غازي: طرحت السينما العربية القضية الفلسطينية أساساً عبر خطّين تجاري وثقافي نقلا بعض جوانب من القضية فوتوغرافياً ودون منهجية موحدة، كما فعلت عديد المؤسسات السينمائية التي ترغب فقط في نقل صورة تحرك العواطف السطحية دون تقديم مادة الفيلم في إطار سياسي واضح.

وكان غازي أخرج فيلماً بعنوان «الفدائيون» في العام ١٩٦٧ في اقتباس روائي من بريخت.. «رغم أنني عالجت الجانب الوطني، وتناولت ضرورة التحام الجماهير العربية بالمقاومة ضد الاحتلال، أي اعتماداً على تحريك الحس الوطني بشكل مباشر، لم يطرح الفيلم أية مدلولات طبقية واضحة فإنه قد منع في معظم البلدان العربية، ولم تقبله سوى سورية واليمن الديمقراطية».

المخرج والفنان العراقي فيصل ياسري أشار وقتها إلى أنه في حرب ١٩٦٧، «لجأ المنتج التاجر إلى استغلال القضية الفلسطينية لتحقيق الربح، فغدت بنظر المنتج البضاعة التي يطبق عليها الشعار السينمائي هكذا تريد الجماهير. بعد الحرب وبروز المقاومة كان السباق على أشده. كان هؤلاء المنتجون يدركون أن إنتاجهم سيء، ومع ذلك كانوا متعجلين لإنتاج المزيد قبل أن يكتشف الجمهور فسادها، وهكذا كانت دفعة الأفلام الأولى التي تصدت للقضية من أسوأ الأفلام وأكثرها تزويراً، وبنفس الوقت من أنجحها تجارياً.

أما المخرج العراقي الآخر قيس الزبيدي، فقال وقتها، وفي ذات الإطار: انصراف الفيلم العربي عن المواضيع التقليدية إلى القضية الفلسطينية كان دافعها شباك التذاكر، وهنا استدعت حاجات السوق دخول منتجين تجار جدد، وبشكل خاص من سوريا ولبنان، وهذا يمكن أن يفسر الرداءة في النوعية، فخبرة هؤلاء في المعالجة السينمائية، إذا سلمنا بوجودها، لم تستمد من الواقع الفلسطيني والصراع الدائر على الأرض، بل من السينما الأميركية والإيطالية التي استعيرت بأسوأ شكل وألصقت على المواضيع الفلسطينية.

وهنا لابد من الحديث عن «شباك التذاكر»، الذي هو نفسه الآن يسبب عزوفاً عن تعاطي الفيلم

العربي وحتى الفلسطيني مع الرواية الفلسطينية، مع استمرار رداءة ما يقدم عربياً حول القضية الفلسطينية من أفلام موسمية، وعليه فثمة غياب فاضح لحضور الأدب الفلسطيني عامة، والرواية خاصة في السينما الفلسطينية والعربية والعالمية، رغم إنتاج رواية اللبناني إلياس خوري «باب الشمس»، ومحورها النكبة والقضية الفلسطينية على جزئين في فيلم من إخراج المصري يسري نصر الله.

رشاد أبو شاور وتجربتان

وحول تجربة فيلم لم يكتمل عن رواية له، قال الروائي والكاتب رشاد أبو شاور في حديث خاص: المخرج الفلسطيني الراحل مصطفى أبو علي اقترح أن ينقل روايتي «أيام الحب والموت" إلى السينما.. تم الاتفاق مع مؤسسة السينماتيك الجزائرية لإنتاج الفيلم.. بعد قراءة السيناريو الذي اعده مصطفى وأنا معه، رحب مديرها الروائي بن هدوقه. .. أصدرت روايتي البكاء "على صدر الحبيب"، فأثيرت حولها ضجة لما فيها من نقد، فأرسل أحد القادة برقية إلى بن هدوقة يطلب فيها التوقف عن إنتاج «أيام الحب والموت"، وكان ذلك.

وبشأن "عائد إلى حيفا"، قال أبو شاور: اتصل بي الصديق المخرج قاسم حول وطلب مني كتابة الحوار بالعامية للفيلم.. قرأت السيناريو وكتبت حواراً باللهجة العامية الفلسطينية بل أن تكون حيفاوية تماماً .. تناقشت مع قاسم حول بعض المشاهد "الضعيفة" فأعاد النظر بها.. كان هناك اهتمام بالسينما التسجيلية لقلة التكلفة، ولخدمتها إعلاميا ودعائياً وترويجياً للثورة الفلسطينية.

وأضاف أبو شاور: قرأت رواية عائد إلى حيفا عدة مرات.. تأملت الشخصيات ووضعت تصورات حولها: سعيد الأب وزوجته.. دوف المنسي في حيفا الذي نشأ في كنف أسرة يهودية.. بالمناسبة التحقت بدورة كتابة السيناريو عندما كنا في تونس، وفي بيروت تعاونت مع الصديق المخرج مصطفى أبو علي واستفدت من تجربته، وهو للتذكير مؤسس مؤسسة السينما الفلسطينية التي تخرج منها مخرجون ومصورون وممثلون .. إنتاج أعمال روائية سينمائياً يستدعي وضع موازنات، وهذا لم يتوفر لعدم الاقتناع بدور السينما.

وحول هذه القطيعة، حلّل أبو شاور: انهم، في السينما الفلسطينية، ينهجون نهج مخرجي سينما

المؤلف، مع أن الروايات الفلسطينية تقول ما لا تقوله سينما المخرجين الفلسطينيين .. هناك سينما أفكار يطرحها المخرجون، كما سينما يوسف شاهين في مراحله الأخيرة.. وفي السينما الإيطالية في سبعينيات وثمانينيات القرن كسينما بازوليني وفيلليني وانطونيوني... يتصرف المخرج الفلسطيني بشكل فردي، فهو حر في كتابة السيناريو، والحصول على التمويل دون «سين وجيم»، وكذلك فيما يتعلق باختيار الطاقم الفني.. إنه مطلق الصلاحية.

الفردانية في السينما الفلسطينية

ويضاف إلى ذلك أن المخرج الفلسطيني في ربع القرن الأخير أو الثلاثة عقود الأخيرة، كان هو، ولا يزال، المنتج أو جامع المال لإنتاج فيلمه، وهو كاتب نص الفيلم أو المشارك في كتابته، في أحسن الحالات، وأحياناً يكون المصور والتقني وأحياناً الممثل الرئيس أو غير الرئيس، وهذا ينطبق على المخرجات، ولو استعرضنا بالأسماء نجد أن أياً من المخرجات والمخرجين الفلسطينيين البارزين لم يقوموا بتحويل رواية فلسطينية إلى فيلم، كحال إيليا سليمان، وهاني أبو أسعد، وميشيل خليفي، ورشيد مشهراوي، وآن ماري جاسر، ومي المصري، ونجوى نجار، وغيرهم، والأمر ذاته ينطبق على التجارب الناجحة للمخرجين والمخرجات الشباب، وهذا ربما مرده شحّ التمويل من جهة، والتأثر بالتجربة الأوروبية من جهة أخرى، خاصة أن جهات أوروبية بالمجمل هي من تقف، منذ ثلاثة عقود أو أقل قليلاً أو أكثر، وراء تمويل جزئي أو كلي لغالبية الأفلام الفلسطينية.

وهذا ما شدد عليه الفنان والكاتب عامر حليحل في حديث خاص، حيث قال: أعتقد أن السبب في حالة الطلاق هذه يعود إلى قيود السينما وحرية الرواية. السينما الفلسطينية في ظل غياب الدولة كجهاز، وفي ظل غياب المشروع كشعب، مقيّدة إنتاجياً في منحٍ خارجية وأموال غربية، فهي بالتالي تفرض عليها نمطاً سينمائياً فنياً يلائم مصدر التمويل، أي أن السينما الأوروبية حتماً أثّرت في وعلى السينما الفلسطينية من ناحية الشكل، ومن ناحية فنية الكتابة وأنماط تناول السينما، بغض النظر إذا كانت تفرض أجندات في المضامين أم لم تفرض. الحديث هنا عن الأساليب والأنماط الفنية والأدوات المستخدمة في صناعة السينما، أما الرواية فهي عمل فردي حر لا يتكئ على موازنات وموارد وأموال ودول وتصاريح، لذا أصبحت بعيدة عن السينما وقيودها أكثر.

وأضاف حليحل: أعتقد أيضاً أن السينما الفلسطينية أخذت المنحى الشخصي في صناعتها، بمعنى أن المخرج في معظم الحالات هو الكاتب، فتكاد لا تجد مخرجين لا يكتبون أفلامهم، وهو أيضاً تأثير أوروبي. أعتقد لو أن الموارد تأتي من هوليوود لاختلف الأمر. كنا سنشاهد سينما منقولة من الأدب، وسينما فيها الكاتب غير المخرج.

ولعل هذا ما يفسر خروج عديد من الروايات حول الهولوكوست في أفلام هوليوودية، من بينها رواية «معلمة الكتب» للروائية إلفريدي يلينيك أو إلفريدي يلينيكوفا، وهي روائية نمساوية ولدت في مورزوشلاغ بالقرب من غراتس عاصمة ولاية ستيريا في جنوب شرق النمسا، يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٦ لأب يهودي تشيكي ناجٍ من معسكر أوشفيتز بيركينو الألماني النازي وأم كاثوليكية ألمانية، ورواية أو كتاب «قائمة شندلر» لتوماس كينلي الأسترالي من أصول إيرلندية الذي قابل مصادفة أحد الناجين من المحرقة، وزوده بحكاية شندلر والقائمة الأصلية، وهي الرواية التي تحوّلت إلى فيلم بذات العنوان من إخراج ستيفن سبيلبيرغ، وحازت كما الفيلم روايات عدة، وكذلك رواية «سارقة الكتب» للأسترالي لأبوين نمساوي وألمانية، ماركوس زوساك، وبات من أهم الأفلام حول المحرقة عالمياً، والقائمة تطول، ليس آخرها «القارئ» عن رواية للألماني برنارد شلينك.

أما الجهات الإنتاجية الرسمية وشبه الرسمية في إسرائيل، فقامت وتقوم بإنتاج عديد الأفلام المتكئة على روايات إسرائيلية، من أشهرها «قصة عن الحب والظلام» لعاموس عوز، و»عرب راقصون» لسيّد قشوع، و»بوفورت» لرون ليشيم، و»مطيّر الحمام» لإيلي عمير، و»الخاطبة» لعمير غوتفروند، والقائمة تطول .. وهو ما يطرح سؤالاً حول دور الجهات الرسمية الفلسطينية ذات العلاقة في تعميم الإنتاج الأدبي الفلسطيني عبر بوابة السينما، خاصة أن المسرح الفلسطيني ما زال يواصل إنتاج مسرحيات تتكئ على روايات وكتب ومجموعات شعرية فلسطينية، من بينها «جدارية» محمود درويش، و»ذاكرة للنسيان» لدرويش نفسه، و»المتشائل» لإميل حبيبي، و»قناديل ملك الجليل» و»زمن الخيول البيضاء» لإبراهيم نصر الله، وغيرها الكثير.

وهنا أكد الفنان عامر خليل، مدير المسرح الوطني الفلسطيني (الحكواتي) في حديث خاص: تحويل الروايات ومعالجتها وإظهارها على الشاشة بحاجة إلى تقنيات ليست سهلة كما هو الحال في المسرح، علاوة على ذلك فإن مستوى صناعة السينما، إن كان ثمة صناعة سينما في فلسطين، متواضع جداً، علاوة على تلك العقدة التي ترافق الفلسطيني في السينما، فهو المخرج والكاتب والمنتج

والممثل، خاتماً حديثه الخاص بالقول: الإبداع الفني شخصي جداً وفردي، لكن الإنتاج الفني عمل جماعي، وهذا ما يجب علينا أن ندركه.

تجربة لم تكتمل مع يحيى يخلف

المخرج الفلسطيني طارق يخلف، كان كشف لوسائل إعلام عربية، في العام ٢٠١٥، أنه بصدد الخروج بمسلسل درامي تلفزيوني عن رواية «جنة ونار» للروائي الفلسطيني يحيى يخلف، بل إن صحفاً تحدثت عن أن نور الشريف قد يكون «بطل العمل»، وأن المطرب الفلسطيني محمد عساف قد يشارك فيه أيضاً، لكن العمل لم يرَ النور، وهو ما أكد عليه يخلف في حديث خاص.

وحول ذلك قال طارق يخلف: هناك صعوبات كثيرة تتعلق بإنتاج الأعمال الدرامية والسينمائية عامة، وابرزها التمويل .. هناك أعمال تتحصل على تمويل من مؤسسات غير ربحية لكونها أعمالاً لا تدر دخلاً، ولكونها تحمل مضامين مهمة قد لا تتوافق مع سياسات السوق، وهنا يكون التمويل من جهات رسمية أو غير رسمية هدفها دعم مثل هذه الأعمال لأهمية ما تشتمل عليه من رسائل ومضامين، وهذا لا يحصل فلسطينياً إلا في حالات نادرة، في حين أن التمويل الأجنبي في غالبه يكون مشروطاً، ويتعلق بالمضمون نفسه، أو بمشاريع مشتركة مع الإسرائيليين، وللأسف لم نجد مؤسسة فلسطينية أو عربية كانت على استعداد لتمويل هكذا عمل.. أما الأعمال التجارية فتتعلق بقناعة المنتج بمدى ما تحققه من إيرادات، وللأسف فإن القضية الفلسطينية وموضوعاتها، ومع أنها قد تجمع ما بين المضمون العميق وما بين تحقيق الإيرادات، فإنها، أغلب الأحيان، «مرفوضة عربياً على الفضائيات»، وهناك من لا ثقة لديه بالمنتج الدرامي الفلسطيني.

وبخصوص «جنة ونار» كشف يخلف: كان العمل يسير بتمويل من منتج فلسطيني وطني وجريء، لكننا وقعنا في مطب ما يمكن أن أسميه «البيضة والدجاجة»، فالمنتج أراد ضمان نصف ما سيصرفه على العمل عبر عقود مع الفضائيات التي بدورها كانت ترفض شراء العمل قبل إنجازه ما دام عن فلسطين، وما دام غير مرتبط بنجوم الدراما والسينما.

وشدد يخلف: الإنتاج الدرامي والسينمائي حول القضية الفلسطينية، وعن أعمال أدبية فلسطينية هامة، هو مسؤولية فلسطينية خالصة، وخاصة المؤسسات الرسمية الفلسطينية ذات العلاقة في

السلطة الفلسطينية، وأعتقد أنه بات من الضروري تأسيس جهة حكومية مختصة بإنتاج الاعمال السينمائية والدرامية الفلسطينية، وهكذا انطلقت عجلة السينما والدراما في مصر وسوريا، بعيداً عن فكرة الربح والخسارة، لكنها مع الوقت تهيئ الأجواء المناسبة لصناعة سينما ودراما فلسطينية تدر دخلاً، علاوة على المسؤولية الملقاة في هذا الجانب على عاتق رجال الأعمال الفلسطينيين والقطاع الخاص الفلسطيني، لكون هذا النوع من الصناعة يخدم قضية فلسطين وشعبها، وللأسف فإن غالبية رأس المال الفلسطيني جبّان، ولا يهمه إلا الربح، والأهم، كما أشرت، إيجاد مؤسسة حكومية تعنى بدعم وتمويل السينما والدراما الفلسطينية.

وختم يخلف بأن الإشكالية ليست في تحويل الروايات الفلسطينية، ومنها ما يستحق ويصلح للسينما والدراما، ومن شأنه أن يحقق نجاحات كبيرة حال أنجز، بل في توفير التمويل لدعم إنجاز هكذا أعمال، فليس للدراما الفلسطينية أب ولا أم، وهذا ينطبق على السينما الفلسطينية أيضاً .. توجهت لإنجاز "جنة ونار" عبر مؤسسات رسمية فلسطينية، ولكن ضعف الموازنات، ووجود أولويات أخرى، على ما يبدو، حال دون نجاح تلك المساعي.

"ميرال"... حالة خاصة

ولعل الاستثناء هنا، الرواية الصادرة بالإنكليزية للفلسطينية الإيطالية رولا جبريل بعنوان «ميرال»، حيث التقط المخرج الأميركي جونثان شنايبل، الرواية ليحولها إلى فيلم عالمي بطولة الممثلة فريدا بينتو هندية الأصل، التي تشبه إلى حد كبير صاحبة الرواية.

والفيلم المأخوذ عن رواية «ميرال»، كتبت جبريل التي اشتهرت كمذيعة في التلفزيون الإيطالي، سيناريو الفيلم أيضاً.

وذكرت صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية، العام ٢٠١٠، أن كتاب «ميرال» يحكى قصة حياة رولا جبريل التي أصبحت من أشهر مذيعات التلفزيون الإيطالي منذ مولدها في القدس العام ١٩٧٣، وانتحار والدتها بعد تعرضها للاغتصاب، ومروراً بطفولتها وشبابها اللذين أمضتهما في ملجأ للأيتام بالقدس الشرقية، حتى سفرها إلى إيطاليا لدراسة طب العلاج الطبيعي بمنحة من الحكومة الإيطالية.

وأكدت جبريل أن «ميرال» الذي يحمل أيضاً اسم ابنتها، يلخص الذاكرة الجماعية لجيل كامل عاش

أحداث الانتفاضة الأولى في فلسطين، لافتة إلى أن الرواية تكشف مدى معاناة الفتيات الفلسطينيات جراء الاحتلال وتقطيع أوصال الأراضي الفلسطينية، فالفيلم لا يخلو من إسقاطات ودلالات مثيرة سياسياً، دفعت كتاباً في صحف إسرائيلية الى وصف الفيلم بالخطير حتى قياساً بأفلام كادت تسجن مخرجيها كفيلم «جنين جنين» لمحمد بكري. ولعل ما أثار هؤلاء في الفيلم هو أنه يبدأ بإشارات تعايشٍ تنقلب سريعاً مع نكبة ١٩٤٨، وما خلفته من مآس ومجازر، ومن بينها مجزرة دير ياسين، عبر حكاية المناضلة هند الحسيني التي حولت منزلها ومنزل جدها إلى مدرسة لأيتام المجزرة، وغيرهم من الأيتام، وكانت إحدى خريجاتها كاتبة النص التي فضلت اسم «ميرال» لتتحدث به عن نفسها، كما ينتهي الفيلم ذو الإنتاج الفرنسي الإيطالي الهندي الإسرائيلي المشترك، بإهداء من أسرته إلى كل من لا يزال يؤمن بأمل في تحقيق السلام، لكن الفيلم، يبدو بلا شك فيلماً فلسطيني المضمون والنكهة في مجمله، فعلى الرغم من مخرجه الأميركي اليهودي، ومن بطلته الهندية الهوليوودية فريدا بينتو، التي جسدت «ميرال» أو رولا جبريل، والنجمة العالمية فينيسيا ردغريف، إلا ان السطوة كانت للفنانات الفلسطينيات، وعلى رأسهن هيام عباس، التي جسدت دور هند الحسيني باقتدار.

ولا يخلو فيلم «ميرال» من الإسقاطات، هو الذي عرض في افتتاح الدورة الخامسة من «مهرجان القصبة السينمائي الدولي»، في تشرين الأول العام ٢٠١٠، وهو أيضاً الفيلم الروائي الخامس في مسيرة السينمائي الحائز جائزة «غولدن غلوب»، ومقتبس عن سيرة تحمل العنوان نفسه، وقعتها الكاتبة والصحافية الفلسطينية الإيطالية رولا جبريل بالإيطالية العام ٢٠٠٤.

عرض الفيلم للمرة الأولى في مهرجان البندقية السينمائي في أيلول ٢٠١٠، ويحتاج إلى قراءة متأنية لما قد يحمله من دلالات، لا سيما أن الصحف الإسرائيلية وصفته بـ«الخطير» و«المنحاز إلى الجانب الفلسطيني»، لكنّه دفع مخرجين فلسطينيين إلى التدقيق في ما يحمله من رسائل قد تكون منحازة إلى «معسكر السلام» الذي بات يراه فلسطينيون ذا أبعاد مشبوهة.

ولعل ما أثار حفيظة البعض كثر أو قلّ، أنّ الفيلم يبدأ بإشارات تعايش، تنقلب سريعاً بعد النكبة العام ١٩٤٨، وما خلّفته من مآسٍ ومجازر، من بينها مجزرة دير ياسين.

الشخصية المركزية في العمل هي المناضلة هند الحسيني (هيام عباس) التي حولت منزل جدها إلى مدرسة للأيتام، أو «بيت الطفل العربي».. إحدى متخرجات البيت، هي رولا جبريل، صاحبة النص/

السيرة التي أعطت لنفسها اسم ميرال وتؤدي دورها هنا الممثلة الهندية البريطانية فريدا بينتو، فالفيلم حكاية شابة عايشت مآسي إنسانية واجتماعية وسياسية أيضاً.

وما بين النكبة و"أوسلو"، يعرض فيلم شنايبل أربع حكايات متشابكة لأربع فلسطينيات، هن هند الحسيني، وكانت بمثابة الخيط الدرامي الرابط بين الشخصيات، ونادية والدة ميرال (ياسمين المصري)، وصديقتها المناضلة فاطمة برناوي (ربى بلال)، وميرال نفسها.. لمسات شنايبل السحرية بارزة وباهرة على صعيد تقنيات الإخراج، وهي كفيلة بجعل الفيلم ـــ رغم بعض التحفظات ـــ أحد أهم الإنتاجات العالميّة عن القضية الفلسطينية.

وما بين النكبة وأوسلو حكايات متشابكة لأربع فلسطينيات تؤكد أن النص بوح جريء لجبريل، عمّا تعرضت له والدتها نادية من اغتصاب في طفولتها، وعملها لاحقاً في مراقص المستوطنين، وصولاً إلى إدمانها الكحول وانتحارها في البحر. وكانت المنحة الدراسية إلى إيطاليا التي وفرتها الحسيني لميرال بمثابة طوق نجاة لها بعد وفاة والدها المفترض، ومقتل حبيبها الذي اتهم بالخيانة لموقفه الإيجابي من اتفاقية أوسلو. رمزية الخلاص من خلال الرحيل تطغى هنا، إضافةً إلى بعض المفاصل الملتبسة.. يمكن تبرير ذلك بكون الراوي الأخير للحكاية، أي شنايبل، ليس فلسطينياً، فهو لم يتعامل مع الفلسطينيين كأصحاب حق فقط، بل كبشر، لا كملائكة، أو مساكين، أو أبطال خارقين.. شنايبل المولود لعائلة أميركية يهودية، وكانت والدته ترأس «منظمة النساء الصهيونيات في الولايات المتحدة» العام ١٩٤٨، قال إنّه حاول من خلال اقتباس «ميرال» اكتشاف «الجانب الآخر من الرواية».

ايليا سليمان..أريد رواية تشبهني

"أتمنى قراءة سيناريو أو نص روائي يحدث حالة اتصال ما بيني وبينه، لأنني كسول أكثر مما تتوقع، لذلك أحبّ أن أجد ما يلامسني فيما يكتبه غيري، بل إنني لفرط كسلي لا أشاهد أفلاماً سينمائية إلا نادراً، ولا أتوجه إلى دور العرض السينمائي إلا لمشاهدة أفلام مخرج أو اثنين فقط" .. هكذا أجاب المخرج الفلسطيني العالمي إيليا سليمان على سؤال طرحته عليه، مؤخراً، في رام الله.

وأضاف: طريقتي في صناعة الأفلام هي أشبه بالرسم، مع أنني لا أجيده، بمعنى انني أتخيل الفيلم كجاليري يحوي قرابة مائتي لوحة بعضها غير مكتمل أو حتى غير مرسوم، وتتنقل بهذه اللوحات

من مكان إلى آخر لتعبئة الفراغات البيضاء، أي أنني لا أصنع أفلامي وفق ما يعرف بالسرد الأحادي .. ما أصنعه أشبه بالإسفنج، بحيث أمتص التجربة المحيطة بي، والجو السياسي الاجتماعي من حولي.

وتابع في رده على ذات السؤال حول حالة الطلاق ما بين المنتج الروائي الفلسطيني والسينما الفلسطينية: حينما أقرأ روايات، وليس بالضرورة عربية، أشعر أن بعضها يقترب من طريقتي في صنع الأفلام، لكنني أخشى من تحويل روايات إلى أفلام، لأن هذه الروايات قد تفقد الكثير من جماليات اللغة فيها التي تبقى داخل الكتب ولا تعبر إلى الشاشة، والأمر ذاته ينطبق على الحوارات، لأنني أقلص، قدر المستطاع، منها ومن المعلومات التي تحويها أي رواية حال قررت تحويل رواية إلى فيلم، لأن ما يهمني الصورة، التي من خلالها تحدث حالة من المشاركة ما بين المُشاهد وما بين الفيلم، لذلك أطرح أسئلة كثيرة عبر الصورة لعدم رغبتي في تقديم المحاضرات.

وأختم هنا بما ختم، وإن كان الحديث في هذا الجانب يطول .. «ما يهمني هو التركيز على إمكانيات لا نهائية المتعة في الفيلم»، لافتاً إلى أنه يرى «في المتعة إصرارا على الوجود الفلسطيني»، وأنه «من المهم أن تمنح الصورة المشاهد مساحة ما لاستنباط نوع من الحياة، والمتعة هي أساس الصورة، وهي بالنسبة لي سياسة وطريقة حياة»، ليختم «لو قُدمت لي رواية ذات يوم شعرت بهذا الاتصال معها ليس لديّ أي تحفظ، بل على العكس، سأخوض هذه التجربة، لكن حتى الآن لم يحدث أن تعثرت بهكذا رواية".

أوراق الذاكرة

مجنون جبل النار

صالح أبو أصبع

تعريف:

من لا يعرف «طلال» فهو لم يَزرْ نابلس. ومن كان من أهل نابلس عليه أن يعرف من هو طلال وإلا فإن نابلسيته مشكوك فيها.

كان شابا وسيما أبيض البشرة طويلا أنيقا لا أحد مَعنيٌّ من أين جاء ولا ما هي ثقافته ومن هم أهله.

لكنه كان ودودا دائم الابتسام وكثير السخرية، كان يفاجئ مُحدِّثيه وهو يدخل في كلامه مفردات بالإنجليزية ومصطلحات من كلام المثقفين، كل ذلك جعله مقبولا لدى أهل المدينة.

وأصبح جُزءاً من حياتها اليومية ، يشعر رواد المقاهي وأصحاب المحلات بالمؤانسة من أحاديثه الساخرة وقصصه المخترعة عن بطولات وهمية غرامية وسياسية ، وشيئا فشيئا تَسللَ إلى حياتهم وأصبح جزءاً من نسيج المجتمع.

ولأنه كان وسيما ومغرما بأناقته بطريقة غير مألوفة فإنه كان لا يستحي من أن يطلب من أولئك الذين اعتاد مسامرتهم ملابس معينة : قمصان زرقاء وحمراء وبرتقالية ويطالبهم بربطات عنق على أن تكون مُورَّدة وعريضة لأن الكرافتات الرفيعة كما كان يقول: "هي مجرد حبل تصلح للشنق".

كان يسير مزهُواً بنفسه، وكان أحيانا يمشي وهو يُحدِّث نفسه بصوت عال، ويداه تتحركان في كل الاتجاهات. وهذه الحالة ازدادت معه مع وجود الاحتلال.

كان يتوقف أحيانا ويجلس على مكان مرتفع ويأخذ في الخطابة، فيتجمع حوله بعض المارة، وكان خطابه يبدو منطقيا ويعبر عما لا يستطيعون المجاهرة به.

وكان هذا هو السبب في اعتقاله أوّلَ مرة من قبل جيش الاحتلال، ولكن الحاكم العسكري أطلق سراحه بعد شهر لعدم التوازن العقلي. ومن يومها أشاع المساجين بين زُوّارهم أن " طلالاً " مجنون.

٢ - طلال يعترف :

بيني وبين نفسي راقتني فكرة أن يكون قد مسَّني نوعٌ من الجنون. وقلت لنفسي "سُوق الهبل على الناس» يسمعونك وهم يضحكون، وكلماتي التي تُحرجهم وتَجرَحهم يستقبلونها بصدور رحبة ، حينما يعودون إلى بيوتهم ستصبح كلماتي مهاميز تَحثّهم على التفكير.

حينما صار الناس يخاطبونني ساخرين بقولهم "أيها الفيلسوف أو أيها المفكر «. وهم في سرِّهم يتهامسون « لنستمع إلى هبله وتحليلاته المجنونة»، وَردّاً على ذلك قلت في نفسي إبداء الرأي تحت مظلة الهبل أو الجنون نعمة.

-منولوج

منْ يَظنني هؤلاء الناس الذين يتحلقون حولي كل يوم؟ إنهم يجلسون حولي وهم يضحكون ويسألونني وأنا أجيب ... يظنون أنهم يتسلون بي أو يتسلون عليّ، لماذا يظنون ذلك؟ هذا الأمر من شأنهم فقط هم لا يدركون أنني أيضاً أتسلى بهم، وأنتشل من بين أحشائهم ضحكات مدوية بينما تكون قلوبهم مكلومة من سنابل الاحتلال الإسرائيلي.

من أنا؟ هم لا يعرفون من اسمي سوى طلال مجنون نابلس وأنا ارتضيت ذلك، لماذا لا أقبل به وأنا أعيش في عالم مجنون، القوي يصطاد الضعيف، والقاتل يصبح بريئاً، والحمقى يحكمون ويقودون العالم، أليس جميلاً أن تكون في عالم مجنون ممتلكاً صفاته؟

هذا الأمر أراحني، وأصبحت منذ بدأت أناقش الأمور السياسية في البلاد ومشاكل العرب التي

أضحت تتضخم كل يوم، في البدء حينما نجلس في المقهى يقولون هذا هو الفيلسوف، جاء الفيلسوف وذهب الفيلسوف.

وحينما توالت نكباتنا، وتوالت علينا المصائب من كل لون، الاعتقالات بالجملة، الأطفال لم يسلموا من أذى الإسرائيليين، والنساء أصبحن أسرى، أخذ صوتي يعلو يوماً إثر يوم أسيرُ في الشوارع صارخاً وأصيح منددا، وأنا أصبحت لا أحلل الأوضاع السياسية في المقهى فحسب، بل وانتقلت إلى إن أقف على الكرسي أعتليه وأنا أخاطبهم، أفيقوا، تمسّكوا بأرضكم ولا تغادروا، ولا تستسلموا وقاوموا "ولتبقوا شوكة في عيونهم ومخارز في خواصرهم" أصبحت هذه الكلمات جزءاً من خطابي اليومي الذي أَبتدِئُ فيه جلستي في المقهى.

لم تكن السجائر التي يتكرم بها عليّ صاحب المقهى يوماً أو الزبائن هي ما كان يجعلني أتردد على المقهى الذي كان بالنسبة لي نصف بيت، ونصف مكان عمل، حينما آتي يتجمع من يريدون أن يتسلوا حولي ويقولون لصاحب المقهى أن مشروباتي على نفقتهم، وهكذا يبادروني بأسئلة سياسية يقصدون منها التسلية، وأنا لا أتوانى في الرد عليهم، وأحياناً تكون أجوبتي منطقية وأحياناً أخرى تتسم باللامعقول،

وكنت أحاول أن يكون بعضها أشبه بالوخزات التي تجعلهم يفكرون بأحوالهم، حينما أصبحت أتحدث عن العولمة وعن الشرق الأوسط الجديد وعن عرب اليوم الذين لم يعودوا عرباً ويسلمون أذقنهم للأجنبي والإسرائيلي ...

وبدأت أصرخ في صوتٍ عالٍ تَحوّلَ لقبي عندهم من طلال الفيلسوف إلى طلال المجنون كنت أسمع همسات البعض من بعيد وهم يقولون << مسكين طلال انهبل ، مسكين هذا المجنون >> ... لذلك آثرتُ أن أنسحب من المقهى ، وبدلاً من ذلك صِرتُ أدورُ في شوارع نابلس العتيقة ، وأحياناً أجلسُ عند أحد أصحاب البقالات أتحدّث معه .

وفي إحدى المرات وكان صاحب البقالة يجلس بجانبي، جاء أحد رواد المقهى للبقالة التي أجلس على بابها وسألني لماذا لم أعد أزور المقهى الذي اعتدت الجلوس فيه، اشتقنا لتحليلاتك السياسية ، وبادر بالسؤال ما رأيك بالمفاوضات ، ولا أظنُّ شيئاً يستفزّني مثل سؤال ما رأيك في كذا ، وأشعر أنه تحد لي وعلي أن أجيب ،

قلت له < طز في هيك مفاوضات >

فعلّقَ صاحب البقالة متسائلاً: لماذا يا طلال؟

وقُلتُ له إنها مثلُ العلكة تمضغها ولكنها لا تعطيك أي فائدة.

وبدأت أتحدث عما جرى منذ النكبة ومروراً بالنكسة وضياع كلِّ فلسطين. كنت أتحدث وكأنني ألقي محاضرة تَجمّعَ عددٌ من أصحاب المحلات التجارية وهم يستمعون، وكأنني كنت أتحدث بلسانهم،

وقلت لهم أننا نعيش في زمن الذئاب التي تأكل الفرائس الضعيفة، ونحن حالنا مثل الفرائس تلك لا تجتمع مع بعضها، ولا رأي واحداً لنا.

وقلتُ لهم : لماذا تظنون ضاعت بلادنا ونفقد الشهداء كل يوم والأسرى يتكدسون في المعتقلات الإسرائيلية، والقوانين التي تسري علينا لا مثيل لها إلا في شريعة الغاب.

أنتم تسألونني عن المفاوضات هي مثل طحن الماء لا فائدة ترجى منها / من يفاوض من؟ الرشاش يفاوض الكف الأعزل؟ صدقوني لن تعطينا المفاوضات سوى المزيد من التنازلات؟

بعضهم كان يسمع باهتمام، ليس لأني أقول كلاماً معقولاً بل لأنني أقول ما لا يستطيعون قوله. ولذا اعتزمت بيني وبين نفسي دائماً أن أقول ما لا يقولون، وكنت لا أخشى من ذلك شيئاً، لسبب بسيط لأنهم أطلقوا علي ذلك اللقب الجميل طلال المجنون، الذي كان لقباً ساحراً معه لا أتحمل معه وزر ما أقول، وهو كفيل بأن يتركني حراً طليقاً في شوارع نابلس، وكنت أشعر بالراحة مع هذا اللقب الذي بات بالنسبة لي صَمّام أمانٍ لحريتي في ظلِّ الأسر الكبير الذي نعيشه في فلسطين.

كنت واحداً من مجانين نابلس المشهورين، هكذا كانوا يطلقون على عدة أشخاص تركوا حياة العقلاء ليعيشوا حياتهم بطريقتهم الخاصة. لم يكنْ العقلاءُ يدركون ماذا يدور في عقولِ هؤلاء الأشخاص وأنا واحد منهم. اعتبرَ البعضُ أن وجودنا في شوارع نابلس يُشوّهُ صورتها، ولا يجوز أن نظلّ طُلقاء ندورُ في أرجائها. وأنا يجبُ ألا يستضيفني أصحاب الدكاكين الذين كانوا يجلسون معي في ساعات يندر فيها الزبائن ويتكرمون علي بأكواب عصير أو شاي أو سجائر.

ولذلك قرر رئيس البلدية أن يرى مدينته أجمل بدون أن يكون أمثالي في شوارعها، فأمرَ بأن أُزجَّ في السجن، وكان هذا الأمر بالنسبة لي نزهة مؤقتة، خرجت من السجن الكبير الذي في

ظلِّ الاحتلال لا تنضبطُ فيه القوانين المنطقية، والذي لا تحكمه إرادات وطنية، حيث كنا نرى مُدرعات جيش الدفاع الإسرائيلي تدخلُ متى تشاء وتخرجُ متى تشاء وتعتقلُ من تعتقل وتُغلقُ الطرق على الناس، وتعترضهم في حياتهم اليومية.

في السجن الصغير رأيت مكاناً أكثر انضباطاً: فيه الوقت للأكل محدد، والمكان الذي تنام فيه محجوز لك، والتحرك في باحة السحن محسوب عليك بالوقت المحدد.

في السجن الصغير كنت أعيش داخل سجني الداخلي، لم أَعُدْ أتحدّثُ ولا أُلقي بالاً لأسئلةِ المساجين، ولا لحُرّاس السجن الذين كانوا يريدون ملء فراغهم بالتسلية عليّ، قررت ألا أتحدث.

انخفض عدد رُوّاد المقهى، وتراجعت مبيعات المحلات التجارية في الخارج. وأخذ رُوّاد المقهى يتساءلون أين اختفى طلال؟ وفي الخارج أيضاً كان أصحاب المحلات التجارية يتساءلون أين اختفى طلال؟

وحينما عرفوا بالأمر، فإنهم توسّطوا لي أن يُطلق سراحي. كان ذلك بالنسبة لي أمراً ليس سعيداً وليس محزناً في الوقت ذاته.

خَرجْتُ لأن البعض ظنّ أن شخصاً مجنوناً مثلي يُمكنهُ أن يكونَ صوتاً لضمائرهم التي لا يستطيعون التعبير عنها، وكأنني كنت بالنسبة لهم رمزاً لانعتاق يتمنونه في عالم مجنون لا يُقبَل فيه المنطق حيث إرادتهم مسلوبة، وحريتهم مكبوتة، وقدرتهم على السيطرة على بلادهم معدومة.

أما بالنسبة لي فقد عُدتُ إلى وضعي السابق، وعُدتُ أتردد على المقهى بين الحين والآخر، وأتردد على المحلات التجارية التي كانت تستضيفني، وأعرف أنهم كانوا يتسلون ولكنني أُريد منهم أن يستفيقوا ، وأن يستطيعوا أن يكونوا مثل الذئاب لا أن يكونوا مجرد قطيع من الفرائس.

هل أنا مجنون أم عاقل؟

لست أدري ولكني أشعر بأن واقعنا لا يحتمله إلا المجنون ذاته.

ماجد أبو شرار موهبة القائد

عبد الفتاح القلقيلي

ولد ماجد في قريته دورا قضاء الخليل عام ١٩٣٦ (وهو ذات العام الذي ولدت فيه انا)، وعاش طفولته بين القمم الشماء التي تشتهر بها منطقة الخليل بما تمثله من صلابة وشموخ. وبين عناقيد العنب وغابات التين والزيتون ترعرع ماجد وأنهى مرحلة الابتدائية في مدرسة قريته، وهو الأخ الأكبر لسبعة من الأبناء الذكور الذين رزق بهم والدهم الشيخ محمد عبد القادر أبو شرار، ومعهم ثلاث عشرة أختا.

كان والده يعمل فنيا للاسلكي في حكومة الانتداب البريطاني، حتى إذا كانت حرب ١٩٤٨/١٩٤٧ التحق بجيش الجهاد المقدس بقيادة الشهيد عبد القادر الحسيني ضابطاً في جهاز الإشارة. وعندما حلت الهزيمة بالجيوش العربية صيف ١٩٤٨ آثر(مع كل افراد اسرته) مرافقة الجيش المصري الذي انسحب إلى قطاع غزة، على أمل أن يعاود ذلك الجيش باعتباره العمود الفقري للقوات العربية الكرّة من جديد في محاربة الكيان الصهيوني الذي بدأ يفرض وجوده على الأراضي الفلسطينية المغتصبة.

بقي الرجل في غزة، ولكنه استقال من الخدمة العسكرية عندما رأى الجمود على جبهات القتال وألقت الهدنة الدائمة بظلالها الكئيبة على حدود فلسطين المغتصبة.

استفاد أبو ماجد من دبلوم الحقوق الذي كان يحمله، فعمل مسجلاً للمحكمة المركزية بغزة ثم قاضياً، ثم تقاعد وعمل محامياً أمام المحاكم الشرعية حتى وفاته عام ١٩٩٦ بمدينة غزة.

في غزة درس ماجد المرحلة الثانوية، وفيها تبلورت معالم حياته الفكرية والسياسية، ثم التحق عام

١٩٥٤ بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية ومنها تخرج عام ١٩٥٨، حيث التحق بأمه وإخوانه الذين كانوا قد عادوا، من أجل الحفاظ على أملاكهم، إلى قريتهم دورا قضاء الخليل في جنوب الضفة الغربية، بينما بقي الوالد مع زوجته الثانية وأنجالها في قطاع غزة.

في الأردن صار يكتب في مجلة الأفق الجديد والتي يصدرها الصحافي أمين شنار، عمل ماجد مدرساً في مدرسة "عي" قضاء الكرك ثم أصبح مديراً لها، ثم سافر إلى السعودية ليعمل مدرسا في مدينة القطيف ويسكن في مدينة الدمام."

كنت قريبا من ماجد منذ عرفته، في مدينة الدمام السعودية يوم ١٩٦٣/١١/٢٢م، وكان ذلك في اجتماع اللجنة المشرفة على اضراب المدرسين الاردنيين (من اصل فلسطيني)، حيث كان مستشار لجنة قيادة الاضراب، وكنت محرضا ميدانيا على الاضراب، وكنا نحضر اجتماعات تلك اللجنة. كنت اسكن مع مدرسين في شقة في عمارة وسط المدينة، وكان يسكن مع مدرسين آخرين في الشقة المقابلة (ومن ضمنهم عبد العزيز السيد). في السنة التالية ترك ماجد وعبد العزيز السيد مجال التدريس وعملا في مجال الصحافة والاعلام. إذ عمل ماجد سكرتير تحرير لجريدة سعودية في الدمام وهي في طور الانشاء، اي قام بالاجراءات الميدانية لانشائها، وكان اسم الجريدة "اليوم". ولذلك استطيع ان اقول ان ماجد هو من أسس تلك الجريدة. بدأت هذه الصحيفة مسيرتها مع صدور نظام المؤسسات الصحافية عام ١٩٦٤ في السعودية، عندما فكر عدد من المثقفين السعوديين في إصدار صحيفة في المنطقة الشرقية، حيث صدر العدد الأول بتاريخ ٢١ شباط ١٩٦٥ م وكانت تصدر مرة في الأسبوع بثماني صفحات، ثم تحولت إلى جريدة نصف أسبوعية اعتباراً من ٢٤ آذار ١٩٦٦ م. ثم بعد ان تركها ماجد ليتفرغ في حركة فتح صارت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع اعتباراً من ٨ ايلول ١٩٧١ م باثنتي عشرة صفحة. ثم تحولت إلى جريدة يومية اعتباراً من ٤ حزيران ١٩٧٨ م وتتجاوز صفحاتها الأربعين وتنفرد بملاحق يومية وأسبوعية متخصصة.

عندما كان ماجد سكرتير تحريرها اذكر من الفلسطينيين الذين كانوا يكتبون فيها عبد العزيز السيد، وغالب جرار وانا.

بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ انغمس ماجد في العمل السياسي الفلسطيني، وسرعان ما انضم الى العمل التنظيمي في حركة فتح التي كنت عضوا فيها فرافقته مرة ثانية في تنظيم حركة فتح في المنطقة الشرقية في السعودية. ورافقته مرة ثالثة عام ١٩٦٩ في جهاز الاعلام في حركة فتح، حيث

كنت قد تفرغت لاعمل في لجنة اقليم الاردن لحركة فتح، وكان قد تفرغ في الحركة ايضا ليعمل نائب مسؤول الاعلام (كمال عدوان).

وفي منتصف شهر نيسان/أبريل ١٩٦٩

جاء الاخ نزيه ابو نضال، واقترح على الاخ كمال عدوان اقامة معسكر تابع للاعلام لتدريب كوادر حركة فتح وخاصة القادمين من الاقاليم الخارجية، ويكون هذا المعسكر نموذجيا ومختلفا عن معسكرات فتح الاخرى، في هذا المعسكر حيث التساوي بين المدربين وقيادة المعسكر من جهة والمتدربين من جهة اخرى، وذلك من حيث المأكل والملبس، واي رفاهية أخرى. ولايكون من المسموح توقيع اي عقوبة جسدية او لفظية على المتدربين الا عقوبة الفصل من الدورة اذا كان المتدرب يستحقها، والاستعاضة عن العقوبات بالنقد والنقد الذاتي. ويكون نقد قيادة المعسكر من قبل المتدربين علنا وفي الجلسة الليلية، اما اعضاء الدورة فيمارسون النقد بينهم سرا وعلى انفراد.

ومع مضي الايام يحق لاي عضو في الدورة ان يعلن انه يريد ان ينضم الى قيادة المعسكر بحيث يحق للجميع انتقاده علنا وفي الجلسة الليلية في المعسكر.

واكبر الاخ كمال عدوان هذا المشروع وقرر الأخذ به وسيجعل هذا المعسكر مركزا يزوره كل ضيوف الحركة من الهيئات الاجنبية والصحافيين، ولكنه كان من الطبيعي ان يستغرب الاخ كمال عدوان امكانية نجاح هذا المشروع.

وهنا تدخل الاخ ماجد ابوشرار، واقترح على كمال عدوان ان يطلب من لجنة الاقليم ان تفرز الاخ ابانائل ليكون نائبا لنزيه ابونضال لان ابانائل يؤمن بهذا الاسلوب في التربية والتدريب، وكان ذلك، وسرعان ما التقينا انا وماجد. حيث صرت نائب نزيه ابونضال قائد معسكر الـ"٩٩" للكوادر التابع لجهاز اعلام حركة فتح وبعد ذلك ذهبت ممثلا لمنظمة التحريرالفلسطينية في كل من الصين الشعبية وفياتنام الديموقراطية وكوريا الشمالية منتصف عام ١٩٧٠ .

ورافقته مرة رابعة عام ١٩٧٣ في جهاز التفويض السياسي لقوات فتح العسكرية (قوات العاصفة) حيث كان المفوض السياسي العام وكنت نائبه.

كل الناس لهم معارف كثيرة، ومن هؤلاء المعارف لهم بضعة اصدقاء، اما ماجد فكان معظم معارفه اصدقاء له، وقليل ما عرفت شخصا يعرفه ولم يصادقه.

لم يهمل ماجد هندامه يوما بالحجة الثورية، وكان حريصا على ان يبقى انيقا ووسيما دون مبالغة. وكثيرا ما اعاد علينا قصة الكابتن البريطاني روبرت فالكون سكوت الذي قاد فريقا لاكتشاف القطب الجنوبي، والذي مات وفريقه اثناء عودتهم، ووُجد قرب جثته دفتر يومياته التي كتبها طيلة رحلته حتي يوم وفاته ٢٩ آذار ١٩١٢ حيث كتب: "ضللت الطريق منذ شهرين، ومنذ اسبوعين وانا لا اقوى على التحرك، ولكنني كنت احلق ذقني كل يوم. وفي الاسبوع الاخير لم يبق صابون، اما الموسى فما زال صالحا للحلاقة. أمس ٢٨ آذار خارت قواي تقريبا، فلم استطع ان احلق. واذا لم تجدوا يوميات الثلاثين من آذار، اكون قد مت اليوم التاسع والعشرين منه".

ماجد كان صادقا مع غيره، ومتصالحا مع نفسه، فلم يتجلبب بالتجهم الثوري، بل كان يسخر من المتجهمين، واحيانا يعتبر تجهمهم افتعالا ليُضفوا على تهافتهم شيئا من الجدية. واذكر اننا ذهبنا (اصدقاؤه) اليه نهنئه بفوزه بعضوية اللجنة المركزية لحركة فتح في مؤتمرها الرابع، فاستقبلنا بمداعبات إذ رد علينا قائلا: لقد ربحت عضوية اللجنة المركزية، ولكنني خسرت موقعي في المعارضة، ولست ادري اي الموقعين افضل!!

رغم جديته في الحياة، سواء في عمله او علاقاته الا انه كان خفيف الظل، وغالبا ما يسبق حديثه بابتسامة، وينتقل من الجد الى الهزل بسرعة فائقة، لدرجة انه كان يختلط الامر على بعض اصدقائه إن كان جادا او هازلا في ما يقول، وذلك اهّله ليكون صاحب مقالب مع اصدقائه واقربائه ولم تسلم زوجته واخواته من مقالبه، حتى امه نالها بعض من مقالبه. وعندما رسمت الفنانة تمام الاكحل لوحة لام ماجد علق زوجها الفنان اسماعيل شموط على التجاعيد في وجهها "كيف تكفهرّ من عايشت ماجد!!" . وكثيرا ما كنا نتذكره باستحباب مع مقالبه اثناء حياته. وحتى بعد استشهاده، كلما التقينا (نحن اصدقاؤه) نتذاكر مواقفه الانسانية والودودة، ومواقفه السياسية والوطنية، دون ان ننسى او نتجاهل مقالبه. وكثيرا ما حدّثنا عن مقالبه حينما كان في الكشافة في غزة، او حينما كان طالبا في كلية الحقوق في جامعة الاسكندرية المصرية، او حينما كان مدرسا في قرية أدر في محافظة الكرك في الاردن.

لم يكن ماجد مناضلا وسياسيا واديبا فقط بل كان ايضا رجل اسرة، واستطيع القول انه كان من القلة التي استطاعت ان تحافظ على دورها السياسي والابوي في ذات الوقت. فرغم انخراطه الكامل بالعمل كان حريصا على يوم عطلة اسبوعية يخصصها لاولاده، يلاعبهم ويروّح عنهم. وهنا اشير الى

انه عندما كان في روما، كان سيسافر يوم الثامن من تشرين اول ١٩٨١، ولكنه اجل سفره للتاسع منه ليتمكن ان ينزل للسوق ليشتري لابنه سلام خوذة للبسكليت، كان قد طلبها منه عندما سافر الى روما. ولكن الموساد لم يمهله ليوم واحد اذ انفجرت العبوة الناسفة تحت سريره في الفندق في الصباح الباكر للتاسع من تشرين اول عام ١٩٨١.

وكان يسخر من الذين لا يعيرون يوم العطلة الاسبوعية اي اهتمام بحجة انهم "ثوار"، وكان يعلق ساخرا: "هؤلاء كالمنبتّ، لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى". (المنبتّ هو الذي يرهق حصانه لدرجة هلاكه). واذكر ان شيخا كان ذات مرة في مكتبه، وذكر قصة عن الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: جاء رجل الى رسول الله وقال: اني اصوم الدهر ولا افطر، واقوم الليل ولا أنام، ولا آتي النساء ابدا، وذلك خشية الله. فقال الرسول: انا اصوم وافطر، واقوم بعض الليل وأنام بعضه، وآتي النساء، وانا اكثركم خشية لله، هذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني". فقال له ماجد: اتمنى لو انك مفتي حركة فتح

كان ماجد مؤثرا في من حوله من اقارب او اصدقاء او زملاء سواء في حياته العملية كطالب او كموظف، وكذلك في حياته النضالية والتنظيمية، والسياسية، فقد كان من ابرز من عمل امين سر "المجلس الثوري" لحركة فتح من المؤتمر الثالث في ايلول عام ١٩٧١ وحتى المؤتمر الرابع في آب عام ١٩٨٠ حيث انتُخب عضوا في اللجنة المركزية للحركة. ولذلك يعتقد الكثيرون وانا منهم انه لو ان ماجد لم يستشهد عام ١٩٨١ لما كان للانشقاق الذي وقع في حركة فتح في اواخر صيف ١٩٨٣ ان يحدث، خاصة ان معظم الكوادر المتقدمة في ذلك الانشقاق كانوا من اصدقائه او مريديه، وكان ماجد من اشد خصوم الانشقاق في فتح وفي اي تنظيم فلسطيني، إذ كان لا يؤمن بالتغيير الا من الداخل. وكان الشعار الذي ينادي به ويعبئ على اساسه في عمله وندواته ومحاضراته: "دع الف وردة تتفتح، ولكن داخل البستان ذاته، لا خارجه ولا على سياجه.

ماجد ابو شرار شخص شامل، انسان، واديب، وسياسي. كان شخصا رائعا بكل المقاييس، وكان يمتاز عن غيره ممن عرفتهم بعدة خصال منها:

كان ماجد من القلة القليلة في القيادة الفلسطينية عموما (والفتحاوية خصوصا) الذين يستطيعون

ان يعملوا بنجاح مع من يخالفونهم الرأي. ولي تجربة ميدانية في هذا الشأن: في عام ١٩٧٤ تبنّت حركة فتح البرنامج المرحلي للمجلس الوطني الفلسطيني (المسمى برنامج النقاط العشر، او برنامج السلطة الوطنية)، وكان ماجد على رأس المتحمسين لهذا البرنامج، وكنت من الرافضين له والمحرضين ضده (ولكن ضمن الاطر طبعا). ورغم انني كنت نائبه في التفويض السياسي الا انه لم يحاول ان يضغط علي لأغير رأيي او اتوقف عن التحريض ضد البرنامج، بل واكثر من ذلك كنت معه مرة (في ذلك الوقت) في جولة على المواقع العسكرية؛ وبعد ان تحدث مع الضباط والجنود وأفاض في شرح صوابية وصحة هذ البرناج، اضاف: ولكن اخي ابو نائل قد لا يوافقني على واحدة من هذه الايجابيات، ولذلك ادعوه لان يقول لكم رأيه. واعطاني المجال، ولم يقاطعني. ثم طلب من الجميع ان يسألوا، ويوجهوا سؤالهم لي او له. ويومها قال قائد الكتيبة (وكان من المعارضين للبرنامج): ما دام في فتح هذا المستوى من الحرية والديموقراطية فالنصر حتمي وان طال مداه. فاضاف ماجد يجب ان نحترم اراء بعضنا لان التاريخ وحده سيقرر من منا على صواب، ولا احد يحق له ان يحتكر الحقيقة، ومن يزعم انه يحتكر الحقيقة انما يحتكر الجهل ويحتقر الحقيقة!!!

كان ماجد لا يتطلب من احد ان يتطابق معه (حتى افراد اسرته) بل يكفيه ان يقترب منه، ولعل هذا ما جعل معظم معارفه اصدقاء، واما فيما يخص الذين يختلف معهم فكان يبحث عن نقاط التقاطع معهم، ومن مقولاته التي مازلت اذكرها "مادامو ضمن الاطار الوطني فان نقاط لقائنا معهم (حتما) اكثر من نقاط خلافنا". واذا جاز لي ان اصنّف الذين اعرفهم من قيادات وكوادر حركة فتح، فقد كان ماجد من اكثرهم واقعية، يعتمد التحليل الملموس للواقع الملموس. وكثيرا ما ردد مقولتي لينين الشهيرتين: "خطوة عملية واحدة افضل من دزينة برامج"، و "الأمس كان مبكرا، وغدا سيكون متأخرا، واليوم هو الوقت المناسب للعمل". وفي القسمة الشاقولية السياسية في الساحة الفلسطينية عموما وفي حركة فتح خصوصا كان ماجد في الجانب اليساري، حيث كان منحازا للفقراء والمحرومين والمهمّشين. ولذلك كان ذا حظوة لدى اليسار العربي، والعالمي بما في ذلك الدول الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي. وحين اتخذ المجلس الوطني الفلسطيني قرارا بالحوار مع "الحزب الشيوعي الاسرائيلي" ترأس ماجد اول وفد للتحاور معهم في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٧٧.

استشهد ماجد في روما بعبوة ناسفة زُرعت تحت سريره في الفندق

كان ماجد يؤمن نظريا، ويمارس عمليا ان القائد على اي مستوى من المستويات، يجب ان لا يعميه غضبُه عن رؤية ايجابيات من هم تحت إمرته، وفي ذات الوقت يجب ان لا يعميه رضاهُ عن اخطائهم. ولذلك قيل لو ان الله مد في عمره لكان له دور استراتيجي في مسيرة حركة فتح اكثر مما كان فعلا، ولربما كانت حركة فتح في وضع افضل مما هي عليه الان في معظم المجالات .....

رحم الله ماجد، ورحم الله جميع الشهداء، قبله وبعده

كتب وتقارير

قراءة في رسائلِ غسان كنفاني لغادة السّمان

رفعــة يونس

رغمَ كلِّ ما كُتبَ عن رسائلِ الحبّ التي تبادلها غسّان كنفاني مع الكاتبةِ السّوريّةِ غادة السّمان، إلا أنني ارتأيتُ أن أُسجلَ قراءتي الخاصة عن تلك الرّسائل مرة أخرى ..

تُرى ما الذي أوقعَ غسّان في شباكِ غادة السّمان؟

هل هي عيناها الوحشيتان! أم تمرد روحها على السّائد !!أم انطلاقتها في الحياة وشعورها بالحريّة المطلقة من أيَّ قيد! هل هي كتاباتها التي كانت تُعبّر عن تلك الأنثى المتمرّدة التي تبوح بكلِّ ما تحسُّ به وتشعر؟ لا نستطيعُ أنْ نحدّدَ أيَّ سبب وحده مما سبق، فقد تجتمع الأسباب كلها معا! في الإجابة ..

لاسيما وأنّ هذا الحبَّ قد تمكن من القلبِ والرّوحِ معا، وتمكّنَ منهما، تُرى ما الذي جمعَ بينَ غسّان المناضل الثوريّ والسّياسيّ، وجعله يخضعُ بكلِّ ما لديْه لهذا الحبِّ مع غادة، والذي استشعرناه بوضوح من رسائله تلك ؟! وجعله يكشفُ عن مكنونات أحاسيسه، وبوحهِ بتعلقهِ بها، وانتظاره المشوق لرسائلها التي كانت تضنُّ بها عليه كما ظهر من السّياق والمضمون لرسائله لها، قد يكون لديها أسبابها الخاصة بها والتي دفعتها لذلك، فقد خاضت الكاتبة غادة تجارب عاطفيّةً عديدة في حياتها، جعلتها لا تستسلم لأوّلِ طرقةٍ لغسّان على خزّانِ قلبها بسهولة ويسر! كم كنت أودُّ أن أطلعَ على رسائلها لغسان، لأكون أكثر موضوعيّةٍ ونزاهة، إلا أنني أحسست واستشففتُ بأنّ رسائلها لم تكن إلا وقودا لتزيدَ مشاعره اشتعالاً وتأججا! وتعلقا بها!.

بغضِّ النظر لما قيل هنا وهناك فإنّ نشر تلك الرسائل كان نصرةً للحسِّ الإنساني، فالمناضل الثوريُّ هو عاشقٌ للحياة بكلِّ ما فيها، وهو مؤمنٌ أنَّ الحبَّ من ركائزِ هذه الحياة ودعاماتها، فكما دفعه ايمانه بمبادئهِ والتزامه بقضيته الكبرى لخسرانه لحياته بتفجير ارهابيٍّ من قبل الصهاينةِ الإرهابيين، دفع بمشاعره العامرة بالحبِّ والشوقِ لغادة، بكلِّ شفافيّةٍ ووضوح، والمناضل الحقيقيُّ لا يختلفُ داخله عن خارجه، فهو انسانٌ بعيدٌ كلّ البعدِ عن الانفصام، وهو لا يخشى أن يبوحَ بكلِّ أريحيّةٍ عن حبه وعن ضعفه، ولا يخشى في ذلك لومة لائمٍ، ولم يخش أن تنشر غادة رسائله على الملأ حين قال: لها أن تكتب قصته (انني أعطيكِ بطل قضيّةٍ، مخلوق جديد بالتفحّصِ في انبوبِ اختبار، وسأكون سعيداً لو عرفتِ كيف تكتبينَ عن رجلٍ أحبّكِ حقاً، ولم يخطىءْ معك، وظلَّ يحترمك دون أن تمنحيهِ بالمقابل شيئا إلا آذان الآخرين، والاغتراب والصّمت)...

اتساءل لو كانت السوشيال ميديا موجودة في الستينات؟ هل كانت ستصلنا رسائل لهذا العاشق بهذا الجمال، وهذا البوح الصّادق والمقدّس! بهذا الإحساس المشبع بالشوقِ والحنين! كم خسرنا الكثير بهذه التقنية الجافّةِ والتي لا تسمن ولا تغني من جوعٍ ! ولا تعبّرُ عن شعورٍ حقيقيٍّ كالذي لمسناه وأحسسناه واتضح لنا من تلك الرسائل !

لقد أظهرت لنا رسائل غسّان حالةً وجدانيّةً انسانيّةً، نقيّة ً، وشعوراً حقيقيّا، صادقا، في أعماق هذا المناضل الجسور، صاحب (الهدف) تلك المجلّة السياسيّة، الهادفة بحق، وصاحب البوحِ والحبِّ الشفيف، ذاك العاشقُ الذي ظلّتْ رسائلهُ وكلماتهُ حيّةً، محفورةً، في القلوبِ، ومخضرّةً في الذاكرة إلى وقتنا هذا!، رحم الله مبدعنا غسان كنفاني الرحمةَ الواسعة .

الحياة قصاصات على الجدران، سيرة السينما وسير الأشخاص

ي.الشايب

«في أوائل سبعينات القرن الماضي، كان يتناهى إلينا كطلبة في معهد السينما في موسكو، كلام كثير عن الأفلام التي تنتجها المؤسسة العامة للسينما في دمشق. وتصلنا أحياناً المعلومات والأسماء الرنانة للسينمائيين، والنشاطات التي يحاول هؤلاء القيام بها، في سبيل العمل على تأسيس سينما سوريّة جديدة .. وكان اسم قيس الزبيدي واحداً بين تلك الأسماء، وكنّا نقرأ في الصحف والمجلات التي تصلنا، عن أهمية هذه الأفلام، وما تطرحه من قضايانا الاجتماعية والسياسية، وكنّا نتبادل في ما بيننا، ما يكتبه النقاد السوريّون والعرب عن اللغة السينمائية الجديدة التي استطاعت تلك الأفلام الوصول إليها للتعبير عن القضايا التي تناولتها" .. كانت هذه العبارات شيئاً مما كتبه المخرج السينمائي والكاتب السوري محمد ملص عن صديقه قيس الزبيدي في كتاب بعنوان "الحياة قصاصات على الجدار"، والصادر حديثاً عن دار هاشيت أنطون (نوفل) في بيروت، ويقول الناشر عنه إنه "ليس سيرة سينمائية للزبيدي وملص ورفقاء جيلهما فحسب، بل إنه وثيقة عمّا حدث ذات يوم، في تاريخ صناعة السينما العربية وتطوّرها".

ويسعى ملص في كتابه هذا إلى رسم "بورتريه" سينمائي للزبيدي، وللسينما التي حققها، وتلك التي ساهم في تحقيقها، مستنداً إلى حقائق عاصرها، وتجارب شخصية خاضها، وإلى لقاءات وأحاديث كثيرة جمعت بينهما على مدار سنوات، فالحوارات بينهما كانت قد جرت على مسار أزمنة متعددة ومتباعدة، وهو ما اضطره إلى التدّخل في صياغة النص معتمداً على معرفته المباشرة بالجوانب السينمائية الكثيرة التي تناولاها، ومعايشته إياها، والرجوع إلى

مفكّراته، وإلى ما نشره حول أفلام وقضايا سينمائية تحدث عنها، سعياً إلى إخراج المحكيّ ثم الشخصيّ، ليكون في ذاته، وفي الوقت نفسه، تعبيراً عن السياق العام للسينما في سوريا.

وكان لافتاً في كتابة ملص عن الزبيدي أنها اتخذت ما يشبه البنية الروائية، وربما مرد ذلك رؤيته بأن قيس في الحياة التي عاشها ويعيشها لم يكن لديه هاجس أشد حضوراً في وجوده، وأقوى تأثيرا برسم مسار حياته من الهاجس السينمائي، لذا كان اتخاذ مسار الكتابة الأقرب إلى الروائية كفيلاً بأن يمنح الكتابة في "الحياة قصاصات على الجدار" بعداً وجدانياً لا يقل في أهميته عن وثائقية ما يرويه من حكايات خاصة وليس خاصة، وهو ما من شأنه أيضاً أن يثري النص ويجعله مرآة للوضع العام الذي يعيشه أي سينمائي في سوريا على وجه الخصوص، وفي المنطقة العربية عامّة.

المونتاج سياق حياة

وأشار ملص إلى أن قيس الزبيدي، ومنذ مطلع صباه، في براثن المونتاج، وأصبح المونتاج مرجعاً لحياته ولقراءاته الكثيرة عن السينما، وغيرها من القراءات الأدبية والنظرية والفكرية، واتخذ منه منذ بداية حياته هدفاً، واختاره لدراسته الأكاديمية الطويلة، ثم أخذ يعيشه مهنة وفضاء لإبداعه.

لكنّ ممارسة عمله الطويلة في المونتاج، وما يولدّه من تحدّيات عمليّة ووجدانيّة، جعل منه محوراً رئيساً في تشكل وعيه، وفي رؤيته الذاتية والموضوعية، ليس في السينما فحسب، بل في الحياة والعيش .. وكتب ملص «الحالة التي أعنيها هنا، هي أن يحتلّ المونتاج الحياة كلّها، ويصير ليس مهنة أو عملاً فحسب، بل مرجعاً في سياق الحياة وفي التعامل مع الأشياء في الواقع، وأن يصبح الدينامو الذي يقدح ضوء الذات وعتمتها .. المونتاج السينمائي كفكرة هو أن تنطلق من مجموعة صور صوّرت وفق سيناريو لفيلم معيّن، وتصنع منها الفيلم، وبشكل من الأشكال أن تأخذ من الصور ما يراه المونتاج ضرورياً، وترمي بكل ما تبقّى من الصور (مشاهد ولقطات) في سلال الـ (OUT) .. أعتقد أن المونتاج، كفكرة وآلية، كان أشبه بالفخ الذي اصطاد قيس، كما يصطادنا الشغف بشيء معيّن، ويغدو هو الذي يرسم مسار وعينا

ونظرتنا إلى الحياة، وهو الذي يقودنا في الكثير مما نسلكه أو نفعله في هذه الدنيا".

وتساءل ملص: هل كان للعشرة الطويلة بين قيس والمونتاج، الدور في أن تتسرّب ذهنية الاختيار، والقص واللزق، ومن ثم رمي الأشياء غير اللازمة إلى التكوين الذهني لقيس، وأن تشق طريقها إلى دهاليز روحه وعالمه الوجداني؟! .. وهل يغدو الإنسان بعد هذه المعايشة الطويلة مع وفي المونتاج شخصية تعيش الحياة كأنها مادة مصورة (Rushes) تحتاج إلى مونتاج؟!

وما كان من ملص في هذا الكتاب إلى رواية ما يشبه المواد المصورة لحكايات ولحظات عاشها وعايشها مع الزبيدي، ووثقها كي لا يتيح للزمن والنسيان أن يرميا كثيراً منها في سلال ما وصفه بالـ (Out)، لذا قرر استعادة تلك الفترة من سبعينات القرن الماضي، ولنشوء المؤسسة العامة للسينما السورية، وتصديها لإنتاج الأفلام آنذاك، وكشف تلك المرحلة وأهميتها، رافعاً الحجاب بشكل متعمّد عن تلك المرحلة وعن أفلامها، وعن النشاطات والتظاهرات السينمائية التي حققها السينمائيون في سوريا، فهي المرحلة الأكثر أهمية في حياة السينما السورية، من وجهة نظر صاحب الكتاب، والتي وجد أنه لأهميتها النوعية تم التعتيم عليها، وأقصيت وحُجبت من تاريخ السينما السورية، وتاريخ المؤسسة العامة للسينما.

«لقد مضى نصف قرن، وسواء ابتعد هذا الزمن أو اقترب، فإن شيئاً لم يتغير في الذهنية التي تنظر إلى السينما بحذر وخوف، وتحاول باستمرار أن تخنقها وتخرجها من جوهرها كثقافة، وآثام هذه الذهنية لا تنتهي حتى اليوم، إلى حد أن السينما غدت هي التي تبحث لنفسها عن وطن».

مهرجان دمشق لسينما الشباب

وأفرد ملص مساحة للحديث عن مهرجان دمشق لسينما الشباب في العام ١٩٧٢، رغم غيابه عنه، وعن الحسرات ورفاقه جراء فقدان تلك المناقشات الغنيّة والحوارات العميقة والحارّة التي قرأوها عنها، لاسيما أن المهرجان رفع شعار «السينما البديلة» الذي نادى به ودافع عنه السينمائيون العرب، وهو الشعار الذي غدا لتلك السينما التي كان ملص ورفاقه يصبون إليها

ولا يدركونها، وكأن المهرجان عثر لهم على ما هو كامن في دواخلهم، فسعوا إلى متابعته بلهفة، وملاحقة ما يحدث خلاله، وما يمكن أن يفضي إليه، اعتقاداً منهم أنه سيكون طريقهم الذي يسيرون عليه في المستقبل، وأنه ليس سوى الفاتحة التي ستعبّد لهم الطريق.

«إذا كنت اليوم أستعيد تلك اللحظات بأسى، فذلك لأن الحسرة أليمة مما آلت اليه تلك الشعارات والأفكار التي سادت تلك الأيام، أخذت تغور عميقاً في التجاهل والنسيان".

كان ذلك المهرجان بالنسبة لملص ورفاقه صفحة مضيئة في حياة السينما السورية، فهو في حقيقته كما حدث، وبما انتهى إليه، يعتبر المهرجان الأول والأهم من نوعه في سوريا. وهو الأهم بشعاره، وبعرضه الأفلام السورية التسجيلية والروائية، كفيلم "السكين" لخالد حمادة، وفيلمي "الرجل" و"نحن بخير" لفيصل الياسري، و"اليد" لقاسم حول، و"الفهد" لنبيل المالح الذي فاز بجائزة لجنة التحكيم الخاصة مناصفة مع حميد بناتي عن الفيلم المغربي "وشمة"، وفيلم "الزيارة" لقيس الزبيدي الذي فاز بجائزة النقاد مشاركة مع كريستيان غازي عن فيلمه "مئة وجه ليوم واحد" وأمين البنّي عن فيلمه "حتى الرجل الأخير".

وكان من الأفلام الفائزة بجوائز المهرجان، فيلم "بعيداً عن الوطن" لقيس الزبيدي، والجزائري "حسن تيرو" للأخضر حامينا، والمصري "لن نموت مرّتين" لفؤاد التهامي، والعراقي "الكابوس" لعبد الهادي الراوي، والكويتي "بس يا بحر" لخالد الصديق الذي فاز بجائزة الفيلم الروائي مناصفة مع المصري علي عبد الخالق عن فيلمه "أغنية على الممر"، والفيلم المصري "حصان الطين" لعطيّات الأبنودي وفاز بجائزة الفيلم التسجيلي القصير مناصفة مع عمر أميرالاي عن فيلم "محاولة عن الفرات".

إضافة إلى ذلك كله، ضمت لجنة التحكيم شخصيات سينمائية كبيرة ومهمّة، كان جمعها في مهرجان واحد وسام شرف للمهرجان. ومن تلك الشخصيات أنتونين بروسيل مدير مهرجان كارلو فيفاري، والمنظر السينمائي الكبير مارسيل مارتان، والناقد السينمائي الفرنسي غي أنيبيل، والطاهر الشريعة مؤسس مهرجان الأيام السينمائية في قرطاج.

«ما أكتبه حول المهرجان ليس استحضاراً للأرواح، بل سعياً إلى الإنصاف. فقد بدا لي منذ اللحظات الأولى لعودتي من الدراسة، أن كل واحد من السينمائيين السوريين، منذ أن بدأوا

التحضير لهذا المهرجان، كان كل واحد منهم يشعر أن المهرجان مستقبله، وبأن مستقبل السينما معلق بنجاح المهرجان. وكأن الجميع يسعى ويعمل بطاقته كلها لإنجاحه، ولاستمراره كتظاهرة ثقافية وسينمائية، تدافع عن التصورات السينمائية الجديدة. ويعتبر أن امتداده واستمراره كفكرة، هما الطريق للوصول إلى سينما مختلفة في سوريا وفي السينما العربية. وقد كان المخرجون المصريّون المشاركون في معظمهم في المهرجان، ممن كانوا أدوا دوراً مهماً في تأسيس السينما التسجيلية المصرية، تحت شعار السينما الجديدة ... إن السنوات كلها التي أعقبت المهرجان، سواء سنوات العطاء أو العطالة أو الخيبة، تؤكد أن علاقة السينمائيين العرب بمهرجان دمشق لسينما الشباب، علاقة روحيّة عميقة، وأنه ترك في داخل كل منهم بصمة انتماء، وعلاقة توجه نحو الممارسة بوعي سينمائي أكبر».

بداية المعرفة

وتعود معرفة ملص بقيس الزبيدي، كما ذكر في الكتاب، إلى سبعينات القرن الماضي .. «ما أتذكره عن تلك المعرفة الأولية كانت خلال عرض فيلمي الأول (حلم مدينة صغيرة) في صالة الكندي بدمشق العام ١٩٧٣، فقد انتابني شعور يومذاك، بأن قيس الذي لم اكن قد التقيته، يحضر العرض، ومع نهاية العرض وإنارة الأضواء لمحت قامة طويلة بدت لي أنها انبثقت من وراء الشاشة ووقفت أمامها كأنها تريد قول شيء».

وينقل ملص على لسان قيس الزبيدي: أعتقد أن التماس المهني المباشر بيننا، كان بعد تصويرك فيلم «قنيطرة ٧٤» .. كان يومذاك صديقي الموسيقيّ الفلسطيني حسين نازك هو من كتب موسيقى فيلمك هذا. حين التقيت بك بعد انتهاء المونتاج، قلت لي أنك تشعر بأن موسيقى صديقي ليست لها علاقة بالفيلم. بعد المشاهدة تولد لديّ الانطباع ذاته، وشعرت بأن هذه الموسيقى لا تخدم فكرة الفيلم ولا عالمه .. كان هناك شيء من الحرج في الأمر، فالموسيقى مسجلة ومركبة في الفيلم، لكنك عبّرت عن عدم رضاك عنها، ما أعطاني فكرة إضافية عن سينمائيتك وتصميمك وعنادك، فقد كنت صمّمت على أنك إن لم تستطع تبديل الموسيقى، فإنك لن تستخدم موسيقى في الفيلم. وأنت في الأساس، كما عرفت، لا تميل إلى ما يسمّى موسيقى تصويرية .. يومذاك، اقترحت عليك البحث عن موسيقى حديثة، وبحثنا فعلاً عن

أي موسيقى قد تخدم الفيلم لنستخدمها، لكننا لم نعثر على ما تراه مناسباً .. بعد التشاور مع حسين نازك، ابدى المؤلف الموسيقي، على غير العادة، استعداده لإعادة النظر في الموسيقى وتسجيل مقطوعات جديدة .. كان هذا أول صلة بيننا للتشاور في مجال العمل.

«المنام»

وكانت التجربة الأولى لعمل ملص والزبيدي معاً في المونتاج، بعد سنوات من التعارف والنشاطات السينمائية المشتركة في مونتاج الفيلم التسجيلي "المنام"، وهو الفيلم الذي صوّره ملص في المخيمات الفلسطينية بلبنان العام ١٩٨٠، قبيل الاحتلال الإسرائيلي لبيروت، وخروج المقاومة الفلسطينية منها، والذي اضطر ملص بعد تصويره إلى التوقف عن إنجازه لأسباب إنتاجية وغياب التمويل.

بعد ست سنوات من التوقف، استطاع قيس إقناع دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية بالمساعدة في إنجاز الفيلم. فطلبت دائرة الثقافة في المنظمة من تلفزيون ألمانيا الديمقراطية أن يستقبلنا ويقدّم لنا الإمكانات التقنية والفنية لتنفيذ العمليات المتبقية لإنجاز الفيلم.

في تشرين الثاني من العام ١٩٨٦، حمل ملص الأشرطة المصوّرة، بعلبها المعجن الثقيلة (لم يكن حينذاك الديجيتال مستخدماً في التصوير السينمائي، وصوّر الفيلم على شرائط نيجاتيف ١٦ مم)، وسافر من باريس إلى برلين الشرقية.

ومنذ استقبال الزبيدي لملص في محطة القطار، والأيام التالية، أدرك صاحب الفيلم الدور الفعلي للزبيدي مع الألمان والفلسطينيين في تحقيق هذه الفرصة لاستكمال الفيلم، وأدرك أنه تأخر في التواصل مع صديقه ما أجل الفيلم ست سنوات، إلا أن العمل بدأ، وبات قيس المسؤول عن عمليات المونتاج فيه .. كان المونتاج في تلك الفترة من خلال "الموفيولا" واعتاد قيس ألا يعمل عليها إلا بمساعدة شخص آخر ينفذ ما يطلبه من مشاهدة وقص أو لصق، وكان هذا الشخص المونتير عدنان سلوم الذي عمل معه طويلاً في دمشق، وهنا قرر ملص كتابة يوميات برلينية كما وصفها.

قيس كما يصوّر نفسه

في الفصل المعنون بالعبارة السابقة، عاد ملص للحديث بلسان قيس الزبيدي .. «ولدت على الجسر العتيق المسمى جسر الشهداء في (الحيدر خانة) في بغداد العام ١٩٣٩ .. لم تكن أمي مطلقة، بل مهجورة، فهي الزوجة الرابعة لأبي، فنشأت معها في بيت خالي، وهو مسرحي معروف في العراق .. أذكر أن أمام بيت خالي، كان هناك جامع يؤذن فيه الشيخ أحمد آغا صاحب دكان الحلاقة المجاور. وكان يمنعنا من دخول الجامع، لأننا صبيان صغار، ما يضطرنا إلى أن نذهب بعيداً للصلاة في مسجد آخر، لكن الحر الشديد والطريق الطويلة، كانا ينسياننا لماذا وإلى أين نحن ذاهبون .. فنذهب إلى السينما».

وتابع الزبيدي «كانت دراستي في بيت أبي وزوجته في الأعظمية .. كانت علاقتي بوالدي وزوجته جيّدة، على الرغم من القطيعة مع أمي .. كانت زوجته تدللني كثيراً، وتعاملني كأنها أمي الثانية. وهي بسبب أحوالنا المادية الضعيفة، كانت تنصحني بالذهاب إلى المقابر في الأعياد وقراءة القرآن. كنت أذهب فعلاً، وأتلقى مالاً كثيراً .. لم نكن نرى والدي، إلا إذا كانت ظروفه المالية جيدة، وحين تسوء أحواله، يعود ويختفي. في ما بعد، عرفت أنه خسر أملاكه كلها، واستملكت الدولة أراضيه، وبدّد ما تبقى لديه من مال بالقمار. بعد ذلك، أخذ يعمل في محكمة .. لم ألتق أبي كثيراً، وحين كنت أذهب لأراه في المحكمة، كان يأخذني معه إلى المقهى ويحدثني عن همومه .. كان كريماً جداً. يقال إنه كان حين يصادف مرور جنازة فقير أمامه، يتكفل بنفقات الجنازة رغم أنه لا يعرف الميت.. أتذكر بمرارة الفترة التي مرض فيها قبل وفاته، واضطر إلى البقاء في الفراش، بعد أن ظهرت عليه عوارض الأمراض كلها، وصار عاطفياً ودوداً وحميماً مع الجميع .. توفيّ أبي وأنا في الرابعة عشرة».

ومما ذكره ملص على لسان الزبيدي في سرده لجزء حيوي من سيرته الشخصية «مع ظهور التمزقات في المجتمع العراقي، أخذت الخلافات العائلية تزداد وتتعمّق، فقد كانت أمي سنيّة وأبي شيعياً. أما أنا فقد كنت أنتمي إلى جيل كانت أحلامه أن يصبح العراق جمهورية أولاً، لكن هذا الحلم أخذ يتكسر أمام هذه الصراعات العنيفة .. بعد ثورة ١٩٥٨، كان خالي الشيوعي يصدر مجلة ثقافية يسارية، وحين بدأ الخلاف بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين، إثر محاولة اغتياله، أخذ الصراع بين الطرفين يزداد حدة وبدأت بوادر حرب أهلية .. لا أنسى

كيف لجأ خالي إلى بيتنا في منطقة في ضواحي الأعظمية، تسمى الصليخ. وكانت أمه، أي جدتي، تعيش معنا، فجاؤوا وأحرقوا البيت بها .. كان لعلاقات خالي بالوسط الثقافي دور في تعرّفي إلى يوسف العاني وصالح العاني وسامي عبد الحميد، وهم مخرجون وممثلون مرموقون، وكنت أزور المونتير السينمائي محمد شكري جميل أثناء عمله في المونتاج دائماً، ولما لمس فضولي ومتابعتي الصور، صار يشرح لي الأمور التي يقوم بها. وبدأت أقرأ عن المونتاج في أي كتاب أو مقالة تقع تحت يديّ، خصوصاً الكتب الروسية .. حينذاك كانت السينما بالنسبة إليّ هي المونتاج».

«اليازرلي»

ويواصل ملص سرد حكاية الزبيدي على لسانه "الأشياء المحفورة في ذاكرتي كثيرة ومتنوعة، بعضها رسمته من خلال صورة الطفولة في فيلمي (اليازرلي)، وحاولت من خلالها الإيحاء بالمنطقة التي عشت طفولتي فيها، لكنني في هذا الفيلم حرصت على تغييب صورة الأب، وعلى ألا يكون له وجود إلا في الذاكرة، كما هي صورة أبي داخلي .. علاقتي بأمي كان لها تعبيرها الخاص بها. وصورة الأم في (اليازرلي) أدبية وليست شخصية، فقد احتفظت بصورة العلاقة بأمي لنفسي فحسب. ولكن بعد الفيلم لم تتسنّ لي الفرصة كي أعبر عن هذه العلاقة سينمائياً .. حين قرأت قصة "على الأكياس" لحنا مينة التي حولتها إلى فيلم (اليازرلي)، أدهشني في هذه القصة وجود الأخوين اللذين كانا مثيلين لأخوين في طفولتي ببغداد".

ويتحدث الزبيدي عن علاقته الملتبسة بوالدته، وكيف أنه زار بغداد بناء على إلحاحها، قادماً من ألمانيا حيث كان يدرس، وكيف تعذر عليه العودة إلى حيث كان يدرس لأن كان عليه أن يؤدي "خدمة العلم"، كما تذكر أنه حين كان يعيش في سوريا بعد انتهاء دراسته "الطويلة"، زارته ثلاث مرات .. "بعد وصولها بأيام عدّة، سافرت إلى بيروت لأشتري لها أشياء طلبتها. لكن، عند عودتي إلى دمشق مُنعت من الدخول لعراقيّتي، فاضطررت إلى العودة إلى بيروت، وأتيت بها إليّ، وبعت كتابي عن بريخت لأستضيفها وأشتري لها تذكرة سفر عودتها إلى بغداد .. كانت هذه تجربة جارحة بالنسبة إليها، فبعد عودتها إلى بغداد قيل إنها أصيبت بجلطة قلبية وماتت، لكن أخي الذي لم يستطع أن يتقبّل موتها، صار يخبط على صدرها ويناشدها

أن تعود وهو يصرخ ويبكي، صار يخبط على صدرها ففتحت عينيها وعاشت عشر سنوات بعد ذلك، ولم أعلم بوفاتها إلا بعد ستة أشهر .. بوفاتها شعرت أن صلتي بالعراق قطعت بسكين حادّة".

ومما ذكره الزبيدي "قبيل الثورة ضد الملكية بأشهر قليلة (١٩٥٨)، سافرت إلى الكويت بحثاً عن عمل، فأتيح لي التعرف إلى كتب كثيرة ممنوعة في العراق منها كتاب "فن المونتاج" لبودوفكين، وأخذت أتابع بفضول مجلات سينمائية بالإنكليزية، وشعرت وقتذاك بأن المونتاج هو القوّة الخلاقة لكيان الفيلم، فصرت أعرّب باهتمام ما يعجبني من مقالات تتعلق به .. بعد الثورة عدت إلى العراق، وأخذت أتابع الكتابات النقدية في مجلة السينما التي كان يصدرها كاميران حسني، وأحضر عروض الأفلام المصرية والأميركية، وأساهم في تقديم البرنامج الإذاعي (السينما في أسبوع) الذي يقدمه يوسف العاني، كما تكثفت زياراتي للمونتير السينمائي الشهير محمد شكري جميل خلال عمله، ما زاد من انجذابي إلى المونتاج، وأخذت أفكر في السفر لدراسة السينما"، فيما كان الحديث مطولاً عن تجربته في ألمانيا، وحكايته مع "بوش"، وإنجازه عديد الأفلام منها "النزهة" و"الزيارة" و"سنوات طيران النورس".

وفي دمشق بدأ الزبيدي العمل في مونتاج فيلم نبيل المالح "إكليل الشوك" عن القضية الفلسطينية، وهو من إنتاج المؤسسة العامة للسينما في سوريا، وكانت أحداث الفيلم تدور في مخيم فلسطيني بدمشق، وهو الفيلم الذي اعتبره الزبيدي مؤسساً لسينما المؤلف في سوريا، خاصة أن المالح كان ذا نزعة تجريبية وهو ما تجسد بشكل بارز في فيلمه "الكومبارس" لاحقاً.

الثلاثية وما بعدها

وشارك الزبيدي في إنجاز ثلاثية «رجال تحت الشمس»، و«اللقاء»، و«الميلاد»، والاثنين الأخيرين كتب قيس السيناريو لهما وقام بمهمة المونتاج أيضاً .. وتناول فيلم «اللقاء» حكاية فتاة أجنبية إثر مأزق تتعرض له، فتبدأ إعادة النظر في مواقفها، وتحاول أن تتفهم من خلالها القضية الفلسطينية على نحو مختلف، وأكثر قرباً من حقيقتها. بعدها قام بمونتاج سلسلة من الأفلام بينها «الحياة اليومية في قرية سورية» لعمر أميرالاي وسعد الله ونوس، و«السكين»

لخالد حمادة عن رواية غسان كنفاني «ما تبقى لكم»، و«مئة وجه ليوم واحد» للمخرج اللبناني كريستيان غازي، ويتناول القضية الفلسطينية، علاوة على أفلام «عيد سعيد» لمروان المؤذن، و«شموس صغيرة» لخالد حمادة عن قصة لزكريا تامر، و«اليد» لقاسم حول، و«لحن لعدة فصول» و«التكية السليمانية» لعدنان مدانات، و«اللعبة الأبدية» و«إيقاع دمشقي» لنبيل المالح، و«وجه آخر للحب» لمحمد شاهين، و«رقص شعبي» لوديع يوسف، و«مقلب من المكسيك» لسيف الدين شوكت وبطولة دريد لحّام، وغيرها.

أما الأفلام التي رصدها الكتاب من إخراج قيس الزبيدي في سوريا فهي "بعيداً عن الوطن" (١٩٦٩)، و"الزيارة" (١٩٧٠)، و"شهادة الأطفال في زمن الحرب" (١٩٧٢)، وهو من تصوير الشهيد الفلسطيني هاني جوهرية وجورج لطفي الخوري، و"زائد ألوان" (١٩٧٢)، و"اليازرلي" (١٩٧٣) وهو روائي طويل، و"نداء الأرض" (١٩٧٦).

وخلص ملص إلى أن "التأمل في هذه الأفلام اليوم (بعد نصف قرن من إنجازها) لابد من أن يولّد شيئاً من المفارقة والاختلاف حول الشكل الذي صيغت فيه هذه الأفلام، واللغة السينمائية التي تم اللجوء إليها للتعبير عن القضايا والموضوعات التي تناولتها هذه الأفلام، باعتباره واحداً من المؤسسين لهذه السينما السورية الجديدة، حيث تميز قيس الزبيدي كمخرج بنزعته التجريبية وميله إلى الأفكار كتكثيف مجرّد للواقع".

وبعد أن أفرد ملص على لسان الزبيدي فصلاً عن مشروعهما المشترك الثاني فيلم "الليل" (١٩٩٢)، تحدث عن الأفلام التي حققها قيس خارج سوريا، وكان أولها "بيروت يا بيروت" مع المخرج اللبناني الشاب، آنذاك، مارون البغدادي، و"يوم الأرض" للمخرج الفلسطيني غالب شعث، و"ظلال على الجانب الآخر" للمخرج نفسه ومن إنتاج "مؤسسة صامد" عن قصة لتوفيق فيّاض أعد السيناريو له قيس الزبيدي أيضاً، علاوة على أفلام: "صوت من القدس" (١٩٧٢) وشارك فيها الفنان التشكيلي الفلسطيني القدير مصطفى الحلاج برسوماته، والفنان الفلسطيني مصطفى الكرد موسيقى وغناء، خاصة أن الفيلم كان حول نضال الأخير ضد الاحتلال عبر بوابة الفن، و"حصار مضاد" (١٩٧٨)، و"وطن الأسلاك الشائكة" (١٩٨٠)، و"مواجهة" (١٩٨٣)، و"ملف مجزرة" (١٩٨٤)، و"فلسطين سجل شعب" (١٩٨٥)، و"واهب الحرية" (١٩٨٩)، و"صوت الزمن الصامت" (١٩٩٩)، وجلّ الأفلام الأخيرة من إنتاج فلسطيني،

عبر دائرة الثقافة والإعلام في منظمة التحرير، أو فصائل ومؤسسات فلسطينية.

مشاريع وحوارات

واحتوى الكتاب القيّم على فصول عن مشاريع مشتركة أخرى بين مؤلفه وصديقه، كفيلم «حلب مقامات المسرة»، و«البحث عن عائدة»، وحوار أجراه معه في برلين، ومقالات نقدية عن سينما قيس الزبيدي، قبل أن يختم ملص «على مدى الخمسين أو الأربعين من السنوات التي مضت، كانت الأفلام التي كان من الممكن تحقيقها، أو تلك التي أنجزت، بالنسبة إلينا كسينمائيين (وطناً) وثروة وجدانية وثقافية! .. لكننا قوبلنا بالقمع والعسف، لأننا اخترنا بلداننا ومجتمعاتنا وقضاياها ومشكلاتها، وما تواجهه من العثرات للخروج بها نحو التقدم والتغيير، ولأننا رفضنا أن نكون سينمائيين منفذين للصورة التي تطلبها الأنظمة الحاكمة، أن تشتتنا هذه الأنظمة في الأزمنة والأمكنة، دافعة بالقليل من الأفلام التي حققناها إلى (التيه) لتغدو وكأنها تبحث لنفسها عن (وطن) .. إنه لمن الصعب جداً محو التجربة التي يعيشها أي سينمائي وإلغاءها. ومن الصعب أن يغيب العذاب الذي عاشه سنوات عمره، عن ذاكرته ووجدانه .. وأنا في هذا الكتاب سينمائي أراد يوماً أن يستعيد التجربة السينمائية في بلده ويتأملها، خصوصاً تجربة البدايات للمؤسسة العامة للسينما كمنتج وحيد للأفلام التي تطلّعنا إلى تنفيذها، فلفتني حضور اسم قيس الزبيدي في الكثير من الأفلام المهمة والقوية التي تحققت في سنوات متعددة، في هذه المرحلة المغيّبة عمداً. فلم يكن أمامي إلا أن أطلّ على تلك المرحلة، وأن أرجع بذاكرتي وأفتش في دفاتري ويومياتي ... لكنني خلال ذلك كله كنت أرى نفسي أمام مرآة، أرى وأسمع صورتي وصوتي الداخلي".

أوراق المؤسسة

إحياء الذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس

أحيا أبناء الشعب الفلسطيني في الوطن والشتات الذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد الرئيس المؤسس ياسر عرفات ،التي صادفت الاثنين ٢٠١٩/١١/١١، بفعاليات ومسيرات وندوات ومهرجانات تأبين واستذكار لمسيرة القائد المؤسس، في محافظات الوطن والسفارات الفلسطينية في الخارج.

ونظمت مؤسسة ياسر عرفات الفعالية الرئيسية في حفلها الثقافي السنوي الذي احيته في قصر رام الله الثقافي مساء الأحد ٢٠١٩/١١/١٠ بحضور رسمي وشعبي ودبلوماسي.

وتحدث في الحفل د.ناصر القدوة رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات داعيا إلى إجراء حوارات وطنية واسعة للتوصل إلى توافق عريض وبلورة موقف جمعي، لمواجهة الوضع الصعب الذي يعيشه الشعب الفلسطيني وقضيته الوطنية والذي نتج عن إشكاليات في البنية وفي الإستراتيجية السياسية وفي بناء الإنسان، مبدياً استعداد المؤسسة للقيام بدور في مثل هذه الحوارات.

وتحدث رئيس مجلس الوزراء د. محمد اشتية عن " صفقة القرن" مؤكدا انها سقطت وفشلت، ودعا العرب وأوروبا إلى التحضير لمرحلة ما بعد فشلها على أرضية القانون الدولي والشرعية الدولية وفي إطار مؤتمر دولي بعد إخفاق المفاوضات الثنائية في إنهاء الاحتلال، مضيفاً أن الوفاء لعرفات هو جزء من الإلتزام بالقضة الوطنية، وأن "شمعة" عرفات ستواصل إضاءة الطريق إلى القدس والعودة.

وأعلن د.نبيل قسيس رئيس لجنة جائزة ياسر عرفات للإنجاز، عضو مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات فيها عن فوز كل من مركز المعمار الشعبي "رواق"، وجامعة الاستقلال بجائزة ياسر عرفات للانجاز للعام ٢٠١٩.

وقام أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير د. صائب عريقات واشتية والقدوة وقسيس بتسليم مجسم الجائزة وبراءتها والمبلغ المالي إلى د. خلدون بشارة المدير التنفيذي لمركز رواق، وإلى اللواء توفيق الطيراوي رئيس مجلس أمناء جامعة الاستقلال، وألقى كل منهما كلمة قصيرة بمناسبة الفوز بالجائزة.

واشتمل الحفل على عرض لفيلم وثائقي قصير من انتاج المؤسسة بعنوان" جرائم " عن الجرائم الإسرائيلية المرتكبة بحق الشعب الفلسطيني منذ بدايات النكبة في العام ١٩٤٨ والجرائم التي ترتكبها قوات الاحتلال الإسرائيلي باستمرار وحتى اليوم. كما اشتمل الحفل على فقرات فنية وطنية ملتزمة.

ونظمت المؤسسة في يوم ٢٠١٩/١١/١١ وضع الأكاليل على ضريح الرئيس المؤسس ، حيث وضع الرئيس محمود عباس، إكليلا من الزهور على ضريح الشهيد الراحل ياسر عرفات، كما وضع أعضاء اللجنتين التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وامناء الفصائل واللجنة المركزية لحركة فتح ، والحكومة الفلسطينية أكاليل من الزهور، احياء لذكراه.

وقال الرئيس في كلمة للجماهير التي احتشدت امام الضريح بعد مسيرة في رام الله: علينا الاستمرار في حمل الأمانة التي أوصلها الرئيس الراحل ياسر عرفات الذي كان فيها مناضلاً حتى الرمق الأخير، للوصول إلى حلم الدولة وعاصمتها القدس الشرقية. وقال إنّ عرفات كان حريصا على القرار الوطني المستقل وحمل العالم على الاعتراف بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني.

وأضاف: نحن هنا صامدون، سنبقى أشواكا في عيونهم، سنبقى نناضل حتى الوصول إلى حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وقيام دولته المستقلة.

وأحيت مؤسسة ياسر عرفات والمواطنون في قطاع غزة، الذكرى الخامسة بفعاليات متنوعة تؤكد السير على دربه وخطاه.

`وقامت مؤسسة ياسر عرفات بتوزيع الاف الملصقات الخاصة بالذكرى، وزودت الجهات التنظيمية والشعبية وعدد من السفارات الفلسطينية بالملصقات والصور والأفلام وبمعارض وانتاجات ثقافية عن الثورة الفلسطينية وعن ياسر عرفات لاستخدامها في إحياء ذكرى الاستشهاد

وذكرى إعلان الاستقلال التي تصادف الخامس عشر من تشرين الثاني / نوفمبر.

وشهدت مواقع عديدة في مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية لقاءات ومهرجانات وندوات ومسيرات ونشاطات ثقافية متنوعة بمشاركة واسعة من الشباب وممثلي المؤسسات والتنظيمات والفعاليات المجتمعية، أكد خلالها المشاركون استمرار التمسك بالثوابت الوطنية واستلهام تراث القائد المؤسس لتعزيز العمل الوطني والتحرك للتحرر من الاحتلال.

واحتفلت الجالية الفلسطينية في أستراليا بذكرى إعلان الاستقلال الوطني، والذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات، في برلمان نيو ساوث ويلز، بحضور سفير فلسطين عزت عبد الهادي، وأعضاء من البرلمان، وعدد من السفراء العرب ورؤساء المؤسسات العربية والفلسطينية، وحشد من أبناء الجالية العربية والفلسطينية.

وفي تونس أحيا الفلسطينيون ، الذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد القائد الرمز ياسر عرفات، بإشعال الشموع، وقراءة الفاتحة على روحه الطاهرة.

وشارك في إحياء الذكرى، سفير فلسطين لدى تونس هائل الفاهوم، وكوادر السفارة وأبناء الجالية، وإقليم حركة "فتح"، واتحاد طلبة فلسطين فرع تونس، واتحاد المرأة الفلسطينية، وأبناء الفصائل الفلسطينية، وأعضاء الوفد الفلسطيني المشارك بالمهرجان الشبابي العربي للتطوع، وعدد كبير من ممثلي الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني التونسية.

وأحيا الاتحاد العام لطلبة فلسطين فرع اليونان، الذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات.

وتم خلال الحفل الذي حضره حشد من طلبة فلسطين في اليونان وعدد من المتضامنين مع القضية الفلسطينية، عرض فيلم العاصفة مرت من هنا.

وفي إيطاليا أحيت الجالية الفلسطينية، بالتعاون مع سفارة فلسطين ومع حركة فتح اقليم ايطاليا الذكرى الخامسة عشرة لاستشهاد القائد ياسر عرفات في العاصمة روما.

ورفع المشاركون خلال المهرجان الذي حضره العديد من أبناء الجالية الفلسطينية والعربية والعديد من ممثلي المنظمات غير الحكومية الايطالية، الأعلام الفلسطينية، وتم وضع اكليل من الزهور على اللوحة التذكارية إحياء لذكراه.